

نظراتٌ فقهيةٌ وتربويةٌ
في
أمثال الخليل بن أحمد
مع تقديم في علوم الحديث

تأليف
دكتور عبد المجيد محمود عبد المجيد
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والأستاذ المشارك بكلية الشريعة - جامعة أم القرى

مكتبة الصديق
الطائف

مكتبة السّوادي
جدة

مكتبة البكيان
الطائف

—

نظرات فقهية وتربوية
في
امثال الحديث

حُقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤١٣هـ ~ ١٩٩٢م

الطائفت - شارع خالد بن الوليد - محطة أبو فوارح
ص.ب. : ١٠٥٠ - هاتف: ٧٤٥٤٦٧١ - فاكس: ٧٤٢٤٢٠٧ - السعودية

مكتبة البيت



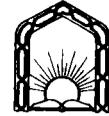
ص.ب. : ٤٨٩٨ - جدة ٢١٤١٢ - هاتف: ٦٨٨٤٢١٢

مكتبة السوادي للتوزيع فاكس: ٦٨٧٨٦٦٤ - المملكة العربية السعودية



الطائفت - بجوار مسجد ابن عباس - أمام المقبرة
هاتف: ٧٣٢٣٣٣٧ - المملكة العربية السعودية

مكتبة الصديق



قامت بطباعته وإخراجه دار البسائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب. : ٥٩٥٥ - ١٤

وَقَفَّ لِلَّهِ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبَعَةِ الْأُولَى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله النبي الأمي الذي علمه الله ومنحه الحكمة وجوامع الكلم، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان. وبعد:

فتسعد الأمثال باهتمام ملحوظ، سواء من حيث الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، أو من حيث الاستعمال، على الصعيدين: الشعبي والأدبي، إذ هي خلاصة تجارب وخبرات إنسانية، تُقدَّم بأوجز عبارة وأوضحها، فتحدث تأثيراً واستجابة لا يرقى إليهما كثير من صور البيان.

لهذا أكثر الله تبارك وتعالى من ضرب الأمثال في قرآنه، لتوضيح الفكرة وتجسيما وتقريبها وحمل السامع على الاستجابة لها. كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة

الزمر: الآية ٢٧].

وقد تناول الباحثون هذه الأمثال القرآنية بدراسات كثيرة.

أما أمثال الحديث فلم تلق من الباحثين والدارسين في عصرنا ما هي جديرة به من عناية، على الرغم من غزارة مادتها، وتشعب موضوعاتها وتنوع صورها.

وقد قمت بجمع كثير من هذه الأمثال، ورتبتها على حسب موضوعاتها، وشرحت ألفاظها وأساليبها، واستنبطت من معانيها وإشارات ما يسره الله لي، وحرصت على بيان الارتباط بينها وبين القرآن، وقدمت بين يدي هذه الدراسة

بتمهيد تعرضت فيه لمعنى المثل، وأنواعه، والمؤلفات فيه، كما عرفت بالمنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة.

ولما كانت دراسة أمثال الحديث لا يستغنى فيها عن التعرض لبعض المصطلحات، والحكم على الحديث من حيث الصحة أو الضعف، والتعرض لإسناده - وبخاصة أنني حرصت على تخريج الأحاديث - رأيت أنه من المناسب أن أوجز القول في علوم الحديث ليكون القارئ على بينة من المصطلحات من جهة، وليتعرف على جهود المحدثين ومنهجهم في الرواية ودقة هذا المنهج من جهة أخرى.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدته أو في بعضه، وأعتذر عما قد يكون في عملي من تقصير أو خطأ، فإن الكمال لله وحده، وأسأله سبحانه وتعالى من فضله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

عبدالمجيد محمّد

التقدمة
التعريف بعلم الحديث

معنى الحديث والسنة

الحديث: في اللغة، ضد القديم، يقال مثلاً: أدب حديث، وأدب قديم. كما يطلق على الخبر لأنه يحدث شيئاً فشيئاً، كما يطلق على القصص، لأنها أخبار تُحكى بعد حدوثها.

أما الحديث في الاصطلاح فهو ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

ونجد في كتب أهل الحديث كلمتين أخريين تستعملان مع الحديث، هاتان الكلمتين هما:

(الخبر والأثر). فهل هما في الاصطلاح مرادفان للحديث، أم لهما دلالة أخرى؟

قال ابن حجر: إن الخبر مرادف للحديث، فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف والمقطوع، وفرق غيره بينهما بأن الحديث ما جاء عن النبي ﷺ، والخبر ما جاء من غيره، ومن هنا قيل لمن يشتغل بالسنة محدث، وبالتواريخ ونحوها: إخباري.

وقيل: بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل حديث خبر ولا عكس.

وقيل: لا يطلق الحديث على غير المرفوع إلا بشرط التقييد.

أما الأثر فهو مرادف للحديث عند المحدثين، ويطلقونه على المرفوع والموقوف. وكان فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر، والمرفوع بالخبر.

ويقال: أئرت الحديث: أي رويته، ويسمى المحدث أثرياً نسبة للأثر^(١).

أما السنة: فأصل معناها الطريقة والسيره، حسنة كانت أوقبيحة، وإذا أضيفت إلى لفظ الجلالة (سنة الله) فمعناها أحكامه وأمره ونهيه، أوقوانينه التي يسير عليها الكون.

وإذا أضيفت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فهي مرادفة للحديث. أما إذا أطلقت في الاستعمال الشرعي دون إضافة، بأن يقال: (من السنة كذا) فقد اختلف في دلالتها حينئذ. هل المقصود بها سنة النبي عليه السلام خاصة، أوسنته وسنة غيره من السلف الصالح؟ يميل أهل الحديث إلى اعتبارها مرادفة للحديث عند إطلاقها، ويرجحون أن المقصود بها عند الإطلاق سنة النبي ﷺ خاصة.

وقد تطلق السنة على النوافل المنقولة عن النبي ﷺ في العبادات.

وتقسم حينئذ إلى سنة مؤكدة، وهي ما يتعلق بتركها كراهة وإساءة كسنة الفجر وغيرها، وإلى سنة غير مؤكدة، وهي ما لم يتعلق بتركها كراهة وإساءة، كالركعتين قبل العصر، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر مثلاً.

وقد تطلق السنة على ما سنه النبي ﷺ، أي شرعه عن الله، فتتظم الفرض والواجب والنافلة حينئذ^(٢).

(١) القاموس ولسان العرب في مادة (حديث)، وتدريب الراوي ٤٢/١ - ٤٣، ١٨٤ -

١٨٥.

(٢) انظر معاني السنة في كشاف اصطلاحات الفنون ٧٥٣/١ وما بعدها، ومقدمة رسالتنا للدكتوراه (الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث).

تقسيم علم الحديث :

للحديث أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة . ويهمننا هنا أن نعرف أن علم الحديث ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما :

أولاً – علم الحديث رواية .

ثانياً – علم الحديث دراية .

أولاً – علم الحديث رواية

وقد يسمى بعلم رواية الحديث : وهو ما يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، وروايتها وضبطها وتحريم ألفاظها .

وقد حرص أصحاب الرسول ﷺ على حفظ أحاديثه وتبليغها، على تفاوتهم في الحفظ والرواية . وهذا يعني أن رواية الحديث بدأت منذ فجر الرسالة الإسلامية، وأن الاهتمام بحفظ النصوص الحديثية عاصر الاهتمام بحفظ القرآن وإن لم يبلغ شأوه، وشجع على هذا ما جاء من تحريض على تبليغ العلم، من مثل قوله ﷺ : « ليلبغ الشاهد الغائب »^(١)، وقوله : « نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها . . »^(٢) .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتناوب في العلم مع جاره من الأنصار، فقد روى البخاري عن عمر قال : (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ : ينزل يوماً، وأنزل يوماً . فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك . . .)^(٣) .

(١) صحيح البخاري ١/٣٦، ٣٧، ط . الشعب .

(٢) الرسالة للشافعي ص ٤٠١، وأخرجه أبو داود وابن ماجه عن زيد بن ثابت مرفوعاً .

(٣) صحيح البخاري ١/٣٣، ٣٥ – ٣٦ .

كما كان أبو هريرة رضي الله عنه حريصاً على الحديث، روى البخاري عنه أنه قال: (قيل يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه» (١).

وأمر النبي ﷺ وفد عبد القيس بأن يحفظوا ما أمرهم به ويخبروه من وراءهم، وترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: (باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم. وقال مالك بن الحويرث: قال لنا النبي ﷺ: ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم) (٢).

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تولى الصحابة تبليغ سنته، وروايتها وكان لبعضهم مجالس ذات مواعيد منظمة للدرس. فقد روى البخاري في كتاب العلم باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة - أن عبد الله بن مسعود كان يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال: أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم، وأنني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها، مخافة السامة علينا) (٣).

وكان لأبي هريرة مواعيد منظمة للدرس، وكان يقوم كل خميس يحدثهم، وكان الناس يتواعدون في بعض الأماكن ليسمعوا منه الحديث فيقضي ساعات طويلة يحدثهم (٤)، ثم توالى الاهتمام برواية الحديث حتى بلغ أوجه في القرنين الثالث والرابع.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) صحيح البخاري ٣٢/١.

(٣) صحيح البخاري ٢٧/١.

(٤) السنة قبل التدوين ص ٤٢١.

تدوين النصوص الحديثية :

كان صحابة رسول الله ﷺ يتلقفون كل كلمة أو حركة منه، وسرعان ما يطبقونها على أنفسهم، فترجمها أعمالهم، وتصدع بها جوارحهم، وتعيها قلوبهم، لأنهم كانوا يحبون الرسول حباً عبّر عنه أبو سفيان بقوله: (ما رأيت أحد يحب أحداً، كما يحب أصحاب محمد محمداً) ﷺ. ووجه عليه الصلاة والسلام وتقديمه على النفس والأهل والمال من كمال الإيمان، وقد أمر المسلمون بطاعته والافتداء به في القرآن في آيات كثيرة.

ولما كان لسنة الرسول هذه المكانة العظيمة في قلوب أصحابه - كان يخشى إن دُوت في بدء الدعوة أن تختلط بالقرآن، أو أن يشغل بها عنه، مع أنها تالية له ومبينة، فهى رسول الله ﷺ عن كتابتها فيما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فَلْيَمْحُهُ»^(١).

ثم زال هذا الخوف على القرآن من كتابة السنة بكثرة الحافظين له والكتابين، وبنمو ملكة التمييز بينه وبين غيره، فانتفى ما كان يمنع من كتابة بعض الصحابة بعض ما يسمونه أو يشاهدونه من أقوال النبي ﷺ وأفعاله حيث أذن لهم النبي ﷺ في هذه الكتابة، فقد روى البخاري في (باب كتابة العلم)، عن أبي جحيفة، قال: (قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: «العقل وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر»)^(٢).

(١) رواه مسلم في: باب الثبوت في الحديث وحكم كتابة العلم آخر كتاب الزهد (صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/١٢٩)؛ وانظر: تدريب الراوي ٢/٦٥.

(٢) صحيح البخاري ١/٣٨، والعقل أي الدية يعني حكمها وأنواعها، و(فكاك) بفتح الفاء وكسرهما، أي حكم فك الأسير والترغيب فيه.

وخطب النبي ﷺ بعد أن فتح مكة، فجاء رجل من أهل اليمن، فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: «اكتبوا لأبي فلان»^(١) وفي بعض الروايات «اكتبوا لأبي شاة».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب)^(٢). وقد كان لغير عبد الله بن عمرو بن العاص صحائف فيها حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، منهم سعد بن عبادة الأنصاري، وسُمرة بن جندب، وجابر بن عبد الله وغيرهم.

كان هؤلاء الصحابة الكرام يكتبون استعانة على النسيان، بتظاهر الكتابة مع الحفظ، وإن لم توجد بعد الضرورة الداعية إلى التدوين، فالرسول بين أظهرهم، يستفتونه فيفتيهم، ويسألونه فيجيهم، ويغلب عليهم حفظ ذلك وضبطه في قلوبهم، ثم لا حرج على من يقيد ذلك ويكتبه.

وبعد وفاة الرسول ﷺ، نقل الصحابة سنته إلى من بعده، ولم يضمنوا على الأجيال التي لم تحظ بشرف صحبته عليه السلام بما يعرفهم الكثير من كلامه، وصفاته، وأحواله. فتزاحم عليهم التابعون، وأصبحوا هدفاً لرحلاتهم. وبعض هؤلاء التابعين كان يدون ما يسمعه، على حين كره معظمهم الكتابة ودعوا إلى الاعتماد على الحفظ حتى كان عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (ت ١٠٢هـ)، الذي أحس بحاجة المسلمين إلى تدوين الحديث، لاتساع رقعة الأرض المسلمة، ووفاة الصحابة وبعض كبار التابعين، وقلة الضبط، وكثرة الفتن. فكتب إلى أهل الآفاق أن يدونوا ما كان

(١) صحيح البخاري ٣٨/١ - ٣٩، ط. الشعب.

(٢) المرجع السابق.

من حديث رسول الله ﷺ، فاستجاب لرغبته العلماء، وتخص الروايات من بينهم أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت ١١٧هـ) وكان والياً على المدينة، وأبا بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ).

وطبيعي أن يكون التدوين الأول للسنة غير جامع لكثير منها، كما كان ينقصه الترتيب، وكان يجمع مع الأحاديث أقوال الصحابة والتابعين مختلطة بها، ويعتبر (الموطأ) للإمام مالك من نماذج التأليف في القرن الثاني.

وفي القرن الثالث نشط التأليف في جمع الحديث، ولاقى عناية عظيمة مما جعل ابن الأثير يقول عنه في مقدمة كتابه (جامع الأصول): (فكان هذا العصر خلاصة العصور في تحصيل العلم وإليه المنتهى).

وفي بداية هذا القرن بدأ التصنيف المقتصر على جمع حديث رسول الله ﷺ، حيث أفرد الحديث ومُيز عن أقوال الصحابة والتابعين، فصنفت (المسانيد)، جمع (مسند) وهي جمع مرويات الصحابي عن الرسول في مكان واحد، وإن تعددت موضوعاتها، فجمع الأحاديث التي رواها عمر بن الخطاب مثلاً في مكان واحد، وإن تعددت موضوعاتها حيث تجد حديثاً يتكلم عن الزكاة وقد يليه حديث عن الاختلاف في قراءة القرآن، وحديث عن الصلاة وهكذا.

وأول من صنف بهذه الطريقة عبيد الله بن موسى العبسي (ت ٢١٣ أو ٢١٤هـ). ومسدد بن مسرهد، وأسد بن موسى المصري (ت ٢١٢هـ)، ونعيم بن حماد الخزازي وكان يسكن مصر (ت ٢٢٧هـ)، وأبو داود الطيالسي (سليمان بن داود بن الجارود (ت ٢٠٤هـ)، ثم أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ). وغير هؤلاء كثيرون استوعب ذكرهم صاحب كشف الظنون.

غير أن غاية مصنفي المسانيد كانت جمع ما يصل إليهم من الحديث . فلم يسقطوا مما وصل إليهم منه إلا ما شاع ضعفه أو علم وضعه . وهذا المنهج في تصنيف المسانيد يجد منه طالب الحديث صعوبة كبيرة عندما يريد أن يتبين حالة الحديث من صحة أو ضعف، كما يصعب عليه استخراج حديث لا يعلم الصحابي الذي رواه، فكانت الحاجة ماسة إلى أفراد الحديث الصحيح بالتأليف، وتصنيفه على الأبواب لا على المسانيد.

وأول من صنف في الصحيح المجرد هو الإمام البخاري (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ)، وتلاه الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، ثم ألفت من بعدهما كتب فيها الصحيح والحسن والضعيف منها سنن أبي داود ومجتبى النسائي، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، وسنن الدارمي .

– وفيما يلي تعريف موجز بمسند أبي داود الطيالسي، ومسند أحمد بن حنبل، ثم تتبعه بتعريف لصحيح البخاري ومسلم:

تعريف بمسند الطيالسي :

والطيالسي هو أبو داود سليمان بن داود بن الجارود، فارسي الأصل، عاش بالبصرة . ومات ٢٠٤هـ وعمر حتى الثمانين .

ويتكون مسنده من أحد عشر جزءاً في مجلد واحد، وبدأ مسنده بما روى عن العشرة المبشرين بالجنة، مقدماً ذكر الخلفاء الراشدين على غيرهم . وقد طبع طبعته الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند سنة ١٣٢١هـ في ٣٦١ صفحة من القطع الكبير، عدا الفهارس والتصحيحات .

مسند أحمد بن حنبل :

هو إمام أهل السنة أحمد بن محمد بن حنبل، عربي الأصل، عاش أبوه بمرو، وولد هو ببغداد وطلب العلم ورحل في سبيله إلى كثير من أقطار العالم الإسلامي، وكان من أئمة الحديث والفقه والتصوف، وتوفي سنة ٢٤١هـ.

ومسنده من أوسع كتب السنة وأجمعها. أثبت فيه نيفاً وثلاثين ألف حديث، اختارها من سبعمائة وخمسين ألف حديث، وقد ألفه ليكون مرجعاً للناس إن اختلفوا في الحديث، وروى فيه عن سبعمائة صحابي، وعن ست وسبعين صحابية. وأشهر من روى عنه المسند ابنه عبد الله.

وينقسم المسند من حيث الرواية عن أحمد إلى ستة أقسام:

١ - قسم رواه عبد الله بن أحمد (ت ٢٩٠هـ)، عن أبيه سماعاً منه، وهو ثلاثة أرباع المسند.

٢ - قسم رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه وغيره، وهو قليل جداً.

٣ - قسم رواه عبد الله بن أحمد عن غير أبيه. وهو المسمى (زوائد عبد الله)، وهو كثير بالنسبة للأقسام غير الأول.

٤ - قسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه منه. وهو قليل.

٥ - قسم لم يقرأه ولم يسمعه، ولكنه وجدته في كتاب أبيه بخطه، وهو قليل كذلك.

٦ - قسم رواه الحافظ أبو بكر القطيعي (ت ٣٦٨هـ) عن غير عبد الله، وهو أقل الجميع.

وقد طبع المسند بالمطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣١٣هـ. ثم أعاد طبعه

الشيخ أحمد شاعر «رحمه الله». وهي طبعة علمية محققة صدر منها خمسة عشر جزءاً، أي ما يقارب خمس المسند، ومات قبل أن يتمه.

ولما كان يصعب الانتفاع بمسند أحمد، لصعوبة ترتيبه. قام بعض العلماء بمحاولة ترتيبه، منهم الشيخ عبدالرحمن الساعاتي رحمه الله في كتابه (الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني)، ثم علق على هذا الكتاب وشرحه، وأدرج في تعليقه كتاب أحمد بن حجر العسقلاني (القول المسدد في الذبّ عن مسند الإمام أحمد) الذي دافع فيه عن ٢٤ حديثاً وردت في المسند، حكم ابن الجوزي على خمسة عشر منها بأنها موضوعة، وحكم الزين العراقي على تسعة بالإضافة إليها، وسمى الشيخ عبدالرحمن شرحه (بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني)^(١).

وكتاب الفتح مرتب على سبعة أقسام، وكل قسم ينقسم إلى كتب، ويندرج تحت كل كتاب عدد من الأبواب.

والأقسام السبعة هي:

- ١ - التوحيد وأصول الدين.
- ٢ - الفقه.
- ٣ - القرآن وما يتعلق به.
- ٤ - الترغيب.
- ٥ - الترهيب.
- ٦ - التاريخ، ويشمل السيرة والمناقب.
- ٧ - أحوال الآخرة وما يتقدم ذلك من الفتن.

(١) مطبوعان بمصر في اثنين وعشرين جزءاً من القطع الكبير.

ونتقل بعد هذا إلى التعريف بالصحيحين، ثم نشير إلى المؤلفات في الصحيح غيرهما:

التعريف بصحيح البخاري:

الإمام البخاري هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي، فارسي الأصل أسلم جده (المغيرة) على يد اليمان الجعفي، فنسب إليه بالولاء. ولد البخاري ببخارى في شوال سنة ١٩٤هـ أربع وتسعين ومائة، وتوفي ببلدة قرب بخارى تسمى (بيكند) سنة ٢٥٦هـ.

وسبب تأليفه للصحيح ما سبق أن ذكرناه من أن التصانيف قبله كانت تجمع بين الصحيح وغيره، فأحس بالحاجة إلى إفراد الصحيح بالتأليف، وبخاصة أن شيخه إسحاق بن راهويه حث تلاميذه - ومنهم البخاري - على هذا فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح.

وروى عن البخاري قال: (رأيت النبي ﷺ وكأني واقف بين يديه ويدي مروحة أذب - أي أذف - بها عنه. فسألت بعض المعبرين - أي الذين يؤولون الرؤيا - فقال لي: أنت تذب عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح)^(١)، وصنفه في ست عشرة سنة، وسماه (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه).

وعدد أحاديث البخاري المسندة بالمكرر منها (٧٢٧٥) سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً.

(١) هدي الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر العسقلاني ص ٧، وتدريب الراوي

وبإسقاط المكرر أربعة آلاف. ذكر ذلك ابن الصلاح في علوم الحديث. وذكر ابن حجر أن من قال هذا قلّد فيه أبا محمد عبد الله بن أحمد بن حَمويه السرخسي (ت ٣٨٠هـ)، وكان له عناية بالصحيح حيث رواه عن محمد بن يوسف الفَرَبْرِي عن البخاري. ثم أثبت ابن حجر أن العدد الصحيح بالمكرر هو (٧٣٩٧) سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثاً، سوى المعلقات والمتابعات^(١).

ومما يذكر أن الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رَقَم الأحاديث في فتح الباري في النسخة التي تم طبعها سنة ١٣٩٠هـ، فوصل إلى (٧٥٦٣) سبعة آلاف وخمسمائة وثلاثة وستين حديثاً في نهاية الكتاب^(٢).

أما عدد أحاديث البخاري بحذف المكرر فقد قال ابن حجر: (فجميع ما في صحيح البخاري من المتون الموصولة بلا تكرير على التحرير (٢٦٠٢) ألفاً حديث وستمائة حديث وحديثان).

ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يوصلها في أي موضع آخر من الجامع المذكور مائة وتسعة وخمسون حديثاً، فجميع ذلك (٢٧٦١) ألفاً حديث وسبعمائة وواحد وستون حديثاً). ثم قال: وبين هذا العدد الذي حررته، والعدد الذي ذكره ابن الصلاح وغيره تفاوت كثير) ثم بيّن سر هذا التفاوت بقوله (يحتمل أن يكون العادّ الأول الذي قلده في ذلك كان إذا رأى الحديث مطوّلاً في موضع ومختصراً في موضع آخر يظن أن المختصر غير

(١) هدي الساري ص ٤٦٥، ٤٦٨، وانظر: تدريب الراوي ١٠٢/١ - ١٠٣ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف.

(٢) فتح الباري ٥٣٧/١٣: بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وتصحيح محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية بمصر.

المطوّل، إما لبعد العهد به، أو لقلّة المعرفة بالصناعة، ففي الكتاب من هذا النمط شيء كثير^(١).

وكان للبخاري اهتمام بالغ بالاستنباط الفقهي ومناقشة من يخالفهم في الرأي والرد على المبتدعة وخصوم أهل السنّة، مع عنايته بالربط بين القرآن والحديث. وقد فصلنا هذا في كتاب الاتجاهات الفقهية للمحدثين^(٢).

وقد اقتضاه هذا المنهج أن يقطع الأحاديث ويكررها بحسب الموضوع الذي يترجم له، ويشكل هذا صعوبة لمن يريد استخراج حديث تام منه أو معرفة رواياته المختلفة، وقد ذلت هذه الصعوبة بكثرة شراح الصحيح وإشارتهم لمواضع الحديث في الأبواب المختلفة. ومن أجلّ هذه الشروح (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني، ووضع له مقدمة تعتبر من البحوث العلمية الرائدة، سماها (هدي الساري)، تكلم فيها عن منهج البخاري وصحيحه وتصدّى لمن انتقده، وفهرس الصحيح وترجم لصاحبه.

التعريف بصحيح مسلم:

وصاحبه هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. ولد سنة ٢٠٤هـ توفي سنة ٢٦١هـ في (نصر أباد) إحدى قرى نيسابور. وصحيحه ثاني كتب الصحاح. ألفه بعد البخاري، واستغرق في جمعه وتهذيبه خمس عشرة سنة.

وعدد أحاديثه من غير المكرر أربعة آلاف، فإذا عدّ المكرر بالطرق

(١) هدي الساري ص ٤٧٧.

(٢) ص ١٤٩ - ١٥٣، ٢٢٧ وما بعدها، وانظر الفصل الثالث من (هدي الساري) ص ١٥ وقد سجّل عدد من الباحثين رسائل للدكتوراه في فقه البخاري، بكلية الشريعة جامعة أم القرى، تمّت مناقشة بعضها، منها (فقه الإمام البخاري في الحج والصوم) للدكتور نزار عبد الكريم الحمداني، و (فقه الإمام البخاري في الوضوء والغسل) للدكتورة نور حسن قاروت.

المختلفة بلغ قريباً من اثني عشر ألفاً^(١).

وقد رتب مسلم الأحاديث ترتيباً جيداً على حسب الموضوعات، ولكنه لم يضع لها عناوين بل سردها سرداً، ويمتاز بجمع طرق كل حديث في مكان واحد مما يسهل البحث فيه عن الحديث بطرقه. وقد صدر كتابه بمقدمة وافية شرح فيها منهجه، وتناول بعض قضايا علوم الحديث. ومن أشهر شروحه (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) المعروف بشرح النووي.

ولجمع مسلم طرق الحديث في مكان واحد فضله بعض العلماء – وبخاصة المغاربة – على البخاري ولكن الجمهور على أن صحيح البخاري مقدم على صحيح مسلم وأكثر فوائد منه، وقد فصل ذلك ابن حجر في هدي الساري (ص ١٠ وما بعدها).

كتب أخرى في الصحاح:

المشهور أن البخاري ومولماً لم يستوعبا الصحيح، وقد روى أن البخاري قال: (ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح، وتركت من الصحاح مخافة الطول)، وقال مسلم: (ليس كل شيء عندي صحيح وضعته هنا).^(٢) ولهذا استمر التأليف في الصحاح بعدهما، فمن ذلك:

١ – السنن الصحاح، لسعيد بن السكن (ت ٣٥٣هـ).

٢ – صحيح ابن حبان (هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي ت ٣٥٤هـ) أفغاني من أصل عدناني.

رتبه ترتيباً مخترعاً، ليس على الأبواب ولا على المسانيد، والكشف

(١) تدريب الراوي ١/١٠٤.

(٢) تدريب الراوي ١/٩٨.

على الحديث من كتابه فيه عسر شديد، وقد رتبّه علاء الدين أبو الحسن علي بن بلبان الحنفي النحوي (ت ٧٣٩هـ) وسمّى ترتيبه (الإحسان في تقريب ابن حبان)، وعمل له أبو الفضل العراقي أطرافاً، وجرّد الحافظ أبو الحسن الهيثمي زوائده على الصحيحين في مجلد طبع بمصر بالمطبعة السلفية، وسماه (موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان) وابن حبان متساهل في تصحيحه، وإن كان أمكن في الحديث من الحاكم.

٣ - صحيح ابن خزيمة النيسابوري^(١) (ت ٣١١هـ).

وهو أعلى مرتبة من صحيح ابن حبان، لشدة تحريه، حتى أنه يتوقف في التصحيح لأدنى كلام في الإسناد.

٤ - المستدرک على الصحيحين، للحاكم (أبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ت ٤٠٥هـ).

فقد روى ما لم يروه البخاري ومسلم مما هو على شرطهما، أو على شرط أحدهما أو مما اعتبره صحيحاً وإن لم يتوافر فيه شرط أحدهما، وربما روى في مستدركه بعض ما في الصحيحين، وربما أورد فيه ما يصح عنده منبهاً على ذلك. وهو متساهل في تصحيحه، واعتذر عنه بأنه سؤد الكتاب لينقحه فأعجلته المنية.

وقد لخص الذهبي مستدركه، وتعقب كثيراً منه بالضعف والنعارة، وقد طبع المستدرک وبأسفله تلخيص الذهبي.

٥ - المنتقى في الأحكام، لابن الجارود (عبد الله بن علي ت ٣٠٧هـ).

(١) هو إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، ويقوم بتحقيق صحيحه الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، وأخرج منه جزءين، نشر المكتب الإسلامي ببيروت.

٦ - صحيح أبي عوانة يعقوب بن إسحاق (ت ٥٣١٦هـ).

٧ - المتقى في الآثار، لقاسم بن أصبغ (٥٣٤٠هـ).

هذا عدا الكتب المخرجة على الصحيحين، كمستخرج الإسماعيلي على البخاري، ومستخرج أبي عوانة الإسفراييني على مسلم، ومستخرج أبي نعيم الأصبهاني ومستخرج أبي ذر الهروي على كل من الصحيحين^(١).

ومعنى أن مؤلفاً يخرج على صحيح البخاري، أنه يأتي إلى كتاب البخاري فيروي أحاديثه بإسناد من غير طريقة، أي لا يروي عن البخاري بل يروي عن شيخ البخاري بواسطة أو غيرها، أو يلتقي مع البخاري فيمن فوق شيخه.

فصاحب المستخرج يأتي إلى كتاب كالبخاري، فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب، فيجتمع معه في شيخه أو فيمن هو من فوقه.

وأصحاب الكتب المخرجة على الصحيحين لا يلتزمون موافقتهم في ألفاظ الحديث، فحصل بينهما تفاوت قليل في اللفظ وأقل في المعنى، لأنهم إنما يروون بالألفاظ التي سمعوها عن شيوخهم.

وللكتب المخرجة على الصحيحين فوائد منها علو الإسناد، وزيادة الصحيح فإن تلك الزيادات صحيحة لكونها بإسنادهما، ومنها قوة الحديث بكثرة الطرق للترجيح عند المعارضة، وغير ذلك^(٢).

* * *

(١) وهناك مستخرجات على السنن، كمستخرج قاسم بن أصبغ على سنن أبي داود، ومستخرج ابن منجويه على الترمذي.

(٢) انظر تدريب الراوي ١/١١٤ - ١١٦.

ويُتَبَيَّن من ملاحظة تاريخ وفيات من قدمناهم ممن ألفوا في الصحيح
— أن كثيراً منهم من رجال القرن الرابع، كما يتبين من الاطلاع على من ألفوا
في المسانيد أو المعاجم في كشف الظنون، والرسالة المستطرفة وغيرهما. أن
القرن الرابع كان نشطاً في خدمة الحديث. وأن جهود رجاله لا تقل عن جهود
من سبقهم من رجال القرن الثالث.

وبانتهاء القرن الرابع تم تدوين السنّة، وجمع متنها، وامتاز صحيحها^(١)
من غيره ولم يكن لعلماء القرون التالية، إلاّ بعض استدراقات على الصحاح
وإلاّ التهذيب والترتيب والتسهيل والتقريب على طلاب الحديث.

وإلى هذا أشار ابن الأثير بقوله: (لما كان أولئك الأعلام هم الأولين في
هذا الفن لم يأتِ صنيعهم على أكمل الأوضاع وأتم الطرق، فإن غرضهم كان
أولاً حفظ الحديث وإثباته ودفع الكذب عنه وحذف الموضوعات منه، والنظر
في طرقة وحفظ رجاله وتزكيّتهم واعتبار أحوالهم والتفتيش عن دخائل أمورهم،
حتى قدحوا فيمن قدحوا، وجرحوا من جرحوا، وعدّلوا من عدّلوا... فكان
هذا هو مقصدهم الأكبر... ولم يتسع الزمان لهم والعمر لأكثر من هذا الغرض
الأعم والمهم...)

ثم جاء الخلف الصالح، فأحبوا أن يظهروا تلك الفضيلة... إما بإبداع
ترتيب، أو بزيادة تهذيب، أو اختصار وتقريب، أو استنباط حكم وشرح
غريب^(٢).

(١) رأي ابن الصلاح أنه ليس لأهل العصور المتأخرة أن يصححوا حديثاً لم ينص على
صحته الحفاظ المتقدمون، وخالفه جمهور المحدثين، فأجازوه لمن تمكّن وقويت
معرفة. وانظر تدريب الراوي ١/١٤٣ - ١٤٨.

(٢) من مقدمة جامع الأصول.

فأبو عبد الله الحميدي (ت ٤٤٨هـ) مثلاً جمع بين الصحيحين على ترتيب المسانيد.

وأبو السعادات مبارك بن الأثير (٦٠٦هـ) جمع الكتب الستة في (جامع الأصول).

ونور الدين الهيثمي (٨٠٧هـ) جمع ما زاد على الكتب الستة من المصنفات المشهورة في (مجمع الزوائد).

والسيوطي (٩١١هـ) جمع الكتب الستة والمسانيد العشرة وغيرها مما يزيد على خمسين مصنفاً في كتابه (جمع الجوامع) المسمى بالجامع الكبير. وهكذا غيرهم.

احتياط المسلمين في نقل السنة

قدمنا أن الصحابة كانوا يهتمون بالسنة اهتماماً فائقاً، فما سمعوه بأنفسهم من الرسول حفظوه وعملوا به، وما فاتهم سماعه طلبوه ممن سمعوه من أصحابهم الذين يثقون بهم. فكان عمر بن الخطاب يسكن عوالي المدينة، وكان له جار من الأنصار يتناوب معه النزول على رسول الله ﷺ، ينزل عمر يوماً، وينزل جاره يوماً، وأيهما نزل جاء صاحبه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره.

ويقول بعض الصحابة (البراء بن عازب): (ما كل الحديث سمعناه من رسول الله ﷺ كان يحدثنا أصحابنا، وكنا مشتغلين في رعاية الإبل وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله، فيسمعونه من أقرانهم وممن هو أحفظ منهم، وكانوا يشددون على ما يسمعون منه).

وهذا يدل على أن الصحابة كانوا يحتاطون في قبول الحديث، فلا يأخذون إلا ممن يثقون فيه من إخوانهم، على الرغم من أن جيل الصحابة

كان جيلاً فريداً في أخلاقه وورعه وتقواه، وهم لم يكونوا يكذبون في حياتهم ومعاملاتهم العادية، فضلاً عن أن يظن منهم الكذب على رسول الله ﷺ، وقد علموا الحديث الذي يتوعد من يفعل ذلك: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وهذا الاحتياط هو الذي جعل أبا بكر لا يكتفي في بيان ميراث الجدة براو واحد حتى يشهد معه آخر، فقد جاءت الجدة إليه تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه^(١).

وهذا الاحتياط هو الذي جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يثبت في بعض المواضع التي لم تطمئن نفسه فيها إلى صحة الحديث من أول وهلة، فقد روى عن أبي سعيد الخدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يأذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»، فقال عمر: والله لتقيمن عليه بينة، ثم خاطب أبو موسى من في المجلس قائلاً: أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمتم معي فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك فقال عمر لأبي موسى: أما إني لم أتهمك، ولكن خشيت أن يقول الناس على رسول الله ﷺ^(٢).

(١) الموطأ ٢/٥١٣.

(٢) البخاري بحاشية السندي ٤/٨٨.

وهذا الاحتياط هو الذي جعل عليّ بن أبي طالب يقول: (كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء منه، وإذا حدثني غيره استحلقتني، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر حدثني - وصدق أبو بكر - أنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له»^(١).

هكذا كان الصحابة يحتاطون في قبول الحديث، عندما تدعو ظروف الرواية إلى إثارة الشك، فيزيلون هذا الشك بالتثبت والتحقيق، فإذا لم تساورهم الشكوك قبلوا رواية الواحد الثقة، كما سبق عن عمر في قبوله لرواية جاره الأنصاري، وقبول جاره روايته.

وهم باحتياطهم هذا وتثبتهم إنما كانوا يدلّون الأجيال التالية لهم على المنهج السليم في رواية الحديث وقبوله، بل لقد صرح بهذا عقبة بن نافع الفهري عندما أوصى بنيه قائلاً: «لا تقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا من ثقة»^(٢). ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: (إنا كنا إذا سمعنا الرجل يقول: قال رسول الله ﷺ، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بأذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف).

وقد اتبع المحدثون فيما بعد هذا المنهج وأحكموه وزادوا فيه، فكانوا يضعون الراوي تحت الاختبار الدقيق قبل أن يرووا عنه، فينظرون إلى صلاته كيف يصلّيها، وإلى معاملاته وسلوكه وأخلاقه، يقول أحدهم: (كنا إذا أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه حتى يقال لنا: أتريدون أن تزوجوه؟)^(٣).

ولم يكونوا يكتفون بالصلاح والتدين، بل يضيفون إلى ذلك العقل والذكاء والعلم.

(١) سنن الترمذي ٢/٢٥٧.

(٢) كتاب الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم ٢/٢٩، وانظر ترجمته في الإصابة

لابن حجر، في القسم الثاني ٣/٨٠. (٣) الكفاية، للخطيب البغدادي ص ١٥٥.

يقول ربيعة بن أبي عبد الرحمن: (إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه ولو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها).

ويقول الإمام مالك: (أدركت بالمدينة مشيخة لهم فضل وصلاح وعبادة يحدثون، فما كتبت عن أحد منهم حديثاً قط، لأنهم لم يكونوا يعرفون ما يحدثون وكنا نزدحم على باب ابن شهاب).

ويقول أيضاً مبيناً منهجه فيمن يقبل حديثه ومن يترك: (لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك: لا يؤخذ من سفيه معلى بالسفه، وإن كان أروى الناس، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس إذا جرب ذلك عليه وإن كان لا يتهم أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به)^(١).

لهذا وغيره اهتم المحدثون بإسناد الحديث، أي بنسبته إلى قائله، فلا يكفي أن يقول التابعي قال رسول الله حتى يبين الصحابي الذي سمع منه، وكذلك - من دون التابعي من الرواة عليه أن يبين من روى عنه فإن كان ثقة قبل حديثه، وإن كان من فوقه غير ثقة لم يقبل حديثه، لأنه أصبح رواية ثقة عن غير ثقة، وهذا يضعف سند الحديث.

وهذا الاهتمام بالسند^(٢) قد بدأ في عصر الصحابة وزاد في عصر التابعين ثم من بعدهم، فعن محمد بن سيرين قال: (لم يكونوا يسألون عن

(١) كتاب الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، باب صفة من لا يحتمل الرواية في الأحكام والسنن عنه ٣١/٢ - ٣٤.

(٢) السند في اللغة: ما ارتفع من الأرض، يقال أسند في الجبل، إذا صعده، وفلان سند أي معتمد، والمقصود به رواية الحديث، والإسناد قد يطلق بمعنى السند، وقد يراد به رفع الحديث لقائله، أي نسبه إليه، والمتن: هو ألفاظ الحديث التي رواها الرواة، وهو في اللغة: كل شيء صلب ظهره وارتفع.

الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمو لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم).

وقال عبد الله بن المبارك: (الإسناد من الدين، ولولاه لقال من شاء ما شاء)، وقال سفيان بن عيينة: حدث الزهري يوماً بحديث، فقلت: هاته بلا إسناد، فقال: أترقى السطح بلا سلم؟! (١).

وهذا الإسناد الذي يصل التعاليم الإسلامية بمصدرها، أي برسول الله ﷺ - يعتبر من مميزات الأمة الإسلامية وخواصها، وهو ما يؤكد ابن حزم عند كلامه عن الحديث النبوي حيث يقول: (نقله الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ به النبي ﷺ، ويخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان. على أن أكثر ما جاء هذا المجيء فإنه منقول نقل الكواف: إما إلى رسول الله ﷺ من طرق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وإما إلى الصاحب وإما إلى التابع، وإما إلى إمام أخذ عن التابع، يعرف ذلك من كان من أهل المعرفة بهذا الشأن والحمد لله. وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وأبقاه عندهم غضاً جديداً على قديم الدهور) ثم يذكر ابن حزم أن أقرب الأخبار عند اليهود إلى موسى تبعد عنه كثيراً، فبين أقرب الأخبار عندهم وبين موسى أزيد من ثلاثين عاماً في أزيد من ألف وخمسمائة عام.

وهذا الاحتياط هو الذي أنتج (علم الحديث دراية) أو علم أصول الحديث.

*
**

(١) انظر هذه الآثار وغيرها في الاهتمام بالسند، مقدمة صحيح مسلم، والجرح والتعديل، لابن أبي حاتم ١٥/٢ - ١٦.

ثانياً – علم الحديث دراية

ويسمى علم أصول الحديث، وعلوم الحديث ومصطلح الحديث. وتسميته بعلم دراية الحديث، أو علم الحديث دراية، هو اصطلاح المتأخرين ممن جاء بعد الخطيب البغدادي^(١).

وهذا العلم مما يبحث فيه عن الراوي والمروي من حيث معرفة المقبول والمردود.

ويعرّف هذا العلم بأنه (علم يعرف منه حقيقة الرواية، وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة، وشروطهم، وأصناف المرويات وما يتعلق بها).

فحقيقة الرواية: نقل السنّة ونحوها وإسناد ذلك إلى من عزى إليه بحديث أو إخبار وغير ذلك.

وشروطها: تحمّل راويها لما يرويه بنوع من أنواع التحمل. من سماع أو عرض أو إجازة ونحوها.

وأنواعها: الاتصال والانقطاع ونحوهما.

وأحكامها: القبول والرد.

وحال الرواة: العدالة والجرح، وشروطهم في التحمل وفي الأداء.

(١) ذكر ذلك الأستاذ عبد الوهاب في مقدمة تحقيقه (تدريب الراوي) ص ٥.

وأصناف المرويات: المصنفات من المسانيد والجوامع، والمعاجم وغيرها كالسنن والأطراف والأجزاء.

وما يتعلق بها: هو معرفة اصطلاح أهلها.

وعرّفه ابن حجر تعريفاً مختصراً فقال: هو (القواعد المعرّفة بحال الراوي والمرويّ)^(١).

تدوين علوم الحديث:

علوم الحديث تشمل أنواعاً كثيرة، كالجرح والتعديل، والناسخ والمنسوخ وتاريخ الرواة وبيان أسمائهم المشكّلة والمتشابهة، ومصطلحات الحديث. وآداب المحدث، وغيرها.

وقد أوصلها ابن الصلاح إلى خمسة وستين نوعاً، ثم قال: (وذلك - أي النوع الخامس والستون - آخرها وليس بآخر الممكن في ذلك، فإنه قابل للتنوع إلى ما لا يحصى، إذ لا تحصى أحوال رواة الحديث وصفاتهم، ولا أحوال متون الحديث وصفاتها، وما من حالة منها ولا صفة إلاّ وهي بصدد أن تفرد بالذكر وأهلها).

وقد نقل عن ابن الملقن أن أنواعه تزيد على المائتين، وبلغ أبو حاتم في تقسيم الضعيف منه خمسين قسماً إلاّ واحداً^(٢).

ويلاحظ أن كثيراً من هذا الأنواع يمكن أن يدمج بعضها في بعض، وأن اعتبار السند هو الذي يحدد أكثر هذه التنوعات والتقسيمات، والقليل منها هو المتعلق بالمتن: كالمدرج، والناسخ والمنسوخ، واختلاف الحديث، وكيفية كتابته.

(١) تدريب الراوي للسيوطي ٤١/١.

(٢) تدريب الراوي للسيوطي ٥/١.

وقبل التعرض لبعض هذه الأنواع نشير بإيجاز إلى مراحل تدوين علوم الحديث .

تمتد جذور هذه العلوم إلى عصر الصحابة، وكان علماء القرون الأولى يمارسون علم الحديث ككل، ويعرفون أنواعه ومصطلحاته، دون أن يحددوا معظمها، وقد تكلموا في بعض أنواعه في وقت مبكر، وكان التصنيف فيها مسائراً حركة التصنيف في المتن، حيث كان مصنّفو المتون يتكلمون في أسانيد الحديث وعللها في كتبهم .

وكانت بداية التصنيف في هذه العلوم بداية بسيطة ساذجة، أخذت تتدرج حتى وضحت معالمها وتميزت عن غيرها، فالمصطلحات في بادئ الأمر كانت قليلة وعامة، ثم كثرت بعد ذلك وحددت تحديداً دقيقاً .

والراجح أن أول من صنف في علوم الحديث تصنيفاً جامعاً هو القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الراهرمزي (٣٦٠هـ) في كتابه «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي»، وقد حقق هذا الكتاب وأخرجه الدكتور محمد عجاج الخطيب .

ثم ألف الحاكم (٤٠٥هـ) كتابه «معرفة علوم الحديث» وذكر فيه خمسين نوعاً، وقد لخصه طاهر الجزائري (١٣٣٨هـ) في كتابه «توجيه النظر» .

ثم جاء الخطيب البغدادي (علي بن ثابت ٤٦٣هـ) فألف كتاباً جامعاً في هذا الفن، منها «الكفاية في قوانين الرواية»، و«الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع» و«تقييد العلم»، و«شرف أصحاب الحديث» وكتباً أخرى كثيرة، فكان كما قال الحافظ أبو بكر بن نقطة «كل من أنصف علم أن المحدثين بعده عيال على كتبه» .

ثم جاء القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٥٤٤هـ) فجمع كتابه «الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع» إلى أن جاء الحافظ تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح الشهرزوري، نزيل دمشق (٦٤٣هـ) فجمع كتابه المشهور لما ولى تدريس الحديث بالمدرسة الأشرفية فهدب فنونه وأملاه شيئاً فشيئاً، واعتنى بتصانيف الخطيب البغدادي المتفرقة فجمع شتات مقاصدها وضم إليها من غيرها نخب فوائد، فاجتمع في كتابه ما تفرق في غيره، فلهذا عكف الناس عليه، فلا يحصى كم ناظم له، ومختصر، ومستدرك عليه.

فنظمه الزين العراقي (عبد الرحيم بن الحسين ت ٨٠٦هـ) وزاد عليه في ألفيته «نظم الدرر في علم الأثر»، وقد شرحها الناظم، ومن أوفى شروحها كتاب «فتح المغيث في شرح ألفية الحديث» للسخاوي.

واختصره جماعة: منهم الحافظ البلقيني (٨٠٥هـ) في «محاسن الاصطلاح وتضمنين كتاب ابن الصلاح» والنووي في «الإرشاد» ثم اختصر الإرشاد في «التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير» وهو الذي شرحه السيوطي في تدريب الراوي واختصره كذلك ابن كثير في «الباعث الحثيث» وغيرهم.

ومن المختصرات النافعة في هذا الفن «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» لابن حجر العسقلاني، وعليها شروح وحواشي كثيرة.

وللزين العراقي على علوم ابن الصلاح تعليقات سماها: «التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح»، ولابن حجر العسقلاني: «الإفصاح عن نكت ابن الصلاح».

ومن أهم ما ألف في علوم الحديث في بداية هذا القرن كتاب «توجيه النظر» لطاهر بن صالح الجزائري (١٣٣٨هـ)، وكتاب «قواعد التحديث من

فنون مصطلح الحديث» للقاسمي جمال الدين بن محمد الدمشقي
(١٣٣٢هـ).

ويمتاز كتاب «توجيه النظر» بغزارة مادته، لأن صاحبه اختصر معظم
أمهات هذا الفن وأثبته في كتابه.

ويمتاز «قواعد التحديث» بحسن التنظيم والتبويب وسهولة الانتفاع به،
وقد نشط التأليف في علوم الحديث في العصر الحاضر، وظهرت كتب عديدة
لتقريب هذا الفن، أو إخراج القديم منه في ثوب جديد.

وأشجع الآن في التعريف ببعض أنواع علوم الحديث بادئاً بمصطلحات
الحديث وهي من أهم أنواعه، حتى أنها تطلق أحياناً على مجموعة أنواع
علوم الحديث.

*
**

(أ) مصطلح الحديث

ويعرف بأنه (علم يعرف به أحوال السند والتمن من حيث القبول والرد) ونريد به هنا الألقاب التي يسمى بها الحديث باعتبارات مختلفة:

فمن حيث عدد الرواة ينقسم الحديث إلى متواتر، وخبر آحاد.

فالمتواتر: هو ما اتصل بنا عن رسول الله ﷺ بالنقل المتواتر. مأخوذ من قولهم: تواترت الكتب إذا اتصل بعضها ببعض في الورد متتابعاً.

فالخبر المتواتر هو ما نقله جمع لا يتوهم اجتماعهم على الكذب أو تواطؤهم عليه. لكثرة عددهم وتباين أمكتهم، عن قوم مثلهم هكذا. إلى أن يتصل برسول الله ﷺ، فيكون أوله كآخره، وأوسطه كطرفيه، وكان مستند انتهائهم الحس. وهو مفيد للعلم ويجب العمل به.

والبحث في المتواتر من مباحث أصول الفقه ولم يذكره المحدثون قبل الخطيب.

والتواتر في السنة العملية كثير، كنقل أعداد الركعات في الصلاة، ومقادير الزكاة والديات وما أشبه ذلك.

والتواتر في السنة القولية ينقسم إلى تواتر لفظي وتواتر معنوي.

فالتواتر اللفظي: هو ما نقلته الجماعة السابقة باللفظ والمعنى. وهو قليل حتى قال ابن الصلاح: ومن سئل عن إبراز مثال لذلك فيما يروى من الحديث

أعياء تطلبه^(١)، ثم ذكر أن حديث (من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار) يعد مثلاً للمتواتر، فقد نقله عدد كبير من الصحابة قدرهم بعض الحفاظ بأربعين وقدرهم آخرون منهم باثني وستين أو أكثر، منهم العشرة المبشرون بالجنة.

وذكر العراقي أمثلة أخرى للمتواتر، منها أحاديث الشفعة والمسح على الخفين^(٢).

أما المتواتر في المعنى فهو أن تروى أحاديث في موضوعات مختلفة، مع اتفاقها على معنى مشترك بينهما، مثل (رفع اليدين في الدعاء) حيث ورد هذا المعنى في نحو مائة حديث في موضوعات مختلفة.

وقد ذكرنا أن الخبر المتواتر هو (ما نقله جمع...) فما عدد هذا الجمع؟

اختلف العلماء في تقدير أقل هذا العدد ما بين أربعين أو أقل أو أكثر والرأي الصحيح هو الذي لا يحدد عدداً معيناً بل كما يقول الغزالي: (إن أقل عدد يورث العلم ليس معلوماً لنا، لكننا بحصول العلم الضروري نتبين كمال العدد لا أنا بكمال العدد نستدل على حصول العلم).

(١) التقييد والإيضاح ٢٦٦ و ٢٦٩ وما بعدها. وأشار السيوطي في كتابه تدريب الراوي (١٧٩/٢) من النسخة المحققة إلى أنه ألف كتاباً لم يسبق إلى مثله سماه (الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) أورد فيه كل حديث بأسانيد من خرجته ثم لخصه في جزء سماه (قطف الأزهار) اقتصر فيه على عزو كل طريق لمن أخرجها، ومما جاء فيه: حديث المسح على الخفين من رواية سبعين صحابياً، ونزول القرآن على سبعة أحرف من رواية سبع وعشرين وقد استدرك على السيوطي محمد بن جعفر الكتاني في (نظم المتناثر من الحديث المتواتر).

(٢) نفس المرجع السابق.

أما خبر الأحاد: فهو ما ليس بمتواتر، وكثير من الأخبار قد تواترت بعد عصر الصحابة فلا تسمى متواترة، لأنها فقدت شرط التواتر في البداية. فإذا روى الحديث صحابي أو اثنان أو ثلاثة أو عشرة أو أكثر فهو خبر آحاد طالما لم يتوفر فيه شرط التواتر السابق.

غير أن خبر الأحاد يسمى بعدة أسماء تبعاً لعدد رواته.

قال ابن الصلاح: (روينا عن أبي عبد الله بن منده الحافظ الأصبهاني أنه قال: الغريب من الحديث كحديث الزهري وقتادة وأشباههما من الأئمة ممن يجمع حديثهم:

إذا انفرد الرجل عنه بالحديث يسمى غريباً.

فإذا روى عنهم رجلان وثلاثة واشتركوا في حديث، يسمى عزيزاً.

فإذا روى الجماعة عنهم حديثاً سمي مشهوراً^(١).

الغريب والفرد:

مما سبق يتضح أن الغريب هو ما تفرد بروايته راو واحد في أي طبقة من طبقاته، أو تفرد بزيادة أو أمر في الإسناد أو في المتن لا يذكره فيه غيره.

وبعض العلماء يجعل الغريب والفرد بمعنى واحد، وبعضهم يخص الفرد المطلق بما كان التفرد فيه في أصل السند، كأن يروي الحديث صحابي واحد، أو تابعي واحد ينفرد بروايته عن الصحابي. أما الغريب فهو ما كان

(١) انظر: التقييد والإيضاح (ص ٢٦٨ - ٢٧٤). وهناك من خصوا الثلاثة فما فوقها

بالمشهور، والاثني بالعزيم، وسمي بهذا لعزته أي قوته بمجيئه من طريق أخرى، أو لقلته وجوده. وانظر: تدريب الراوي ١٨١/٢.

التفرد فيه لا في أصل السند، ولكن في تابع التابعي أو فيمن دونه، وهو الفرد النسبي .

والغريب قد يكون صحيحاً، كالأفراد المخرجة في الصحيحين، وقد يكون غير صحيح، وهذا هو الغالب، ولهذا يقول ابن حنبل: (لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب، فإنها مناكير، وعامتها عن الضعفاء)^(١).

والغربة في الحديث قد تقع في المتن، وهو ما تفرد برواية متنه راو واحد .

وقد تقع في الإسناد دون المتن، كالحديث الذي متنه معروف يروى عن جماعة من الصحابة إذا تفرد بعضهم بروايته عن صحابي آخر، فإنه يكون غريباً من هذا الوجه مع أن متنه غير غريب. ومن ذلك غرائب الشيوخ في أسانيد المتون الصحيحة. وهذا الذي يقول فيه الترمذي (غريب من هذا الوجه).

يقول الترمذي: (رب حديث يكون غريباً لا يروى إلا من وجه واحد، مثل ما حدث حماد بن سلمة، عن أبي العشاء، عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ فقال: «لو طعنت في فخذها أجزأ عنك» فهذا حديث تفرد به حماد بن سلمة عن أبي العشاء، ولا يعرف لأبي العشاء عن أبيه إلا هذا الحديث وإن كان هذا الحديث مشهوراً عند أهل العلم، وإنما اشتهر من حديث حماد بن سلمة لا يعرف إلا من حديثه .

ورب حديث إنما يستغرب لزيادة تكون في الحديث، وإنما تصح إذا

(١) التقييد والإيضاح ص ٢٦٨ - ٢٧٤ ، وعلوم الحديث ومصطلحه، لصبحي الصالح ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه، مثل ما روى مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على كل حر أو عبد، ذكر أو أنثى من المسلمين صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير» قال: وزاد مالك في هذا الحديث، (من المسلمين).

ورب حديث يروى من أوجه كثيرة، يستغرب لحال الإسناد.

حدثنا أبو كريب وأبو هشام الرفاعي وأبو السائب والحسين الأسود، قالوا: حدثنا أبو أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة، عن جده أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد». قال أبو عيسى (الترمذي): هذا حديث غريب من هذا الوجه من قبل إسناده. وقد روى من غير وجه عن النبي ﷺ، وإنما يستغرب من حديث أبي موسى. سألت محمود بن عيلان عن هذا الحديث فقال: هذا حديث أبي كريب عن أبي أسامة. وسألت محمد بن إسماعيل (البخاري) عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث أبي كريب عن أبي أسامة لم نعرفه إلا من حديث أبي كريب عن أبي أسامة. فقلت له: حدثنا غير واحد عن أبي أسامة بهذا، فجعل يتعجب، وقال: ما علمت أحداً حدث هذا غير أبي كريب. وقال محمد (البخاري): كنا نرى أن أبا كريب أخذ هذا الحديث عن أبي أسامة في المذاكرة^(١)

الشاذ والمنكر:

يجمع بين هذين النوعين وبين الغريب صفة التفرد، غير أن الغريب فيه تفرد الراوي وليس فيه مخالفة لغيره، ويحكم له بالصحة أو بالحسن أو بالضعف تبعاً لحال راويه.

(١) سنن الترمذي ٣٣٤/١٣ بتصرف.

أما الشاذ والمنكر ففيهما تفرد ومخالفة، ولا يكونان إلا ضعيفين.

وقد عرفوا الشاذ بأنه ما تفرد به راو ثقة مخالفاً من هو أرجح منه عدداً

أو صفة، ومثاله ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بإسنادهم:

عن سفیان بن عیینة، عن عمرو بن دينار، عن عوسجة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً توفي على عهدہ ﷺ، ولم يدع وارثاً إلا مولى هو أعتقه، فدفع ﷺ ميراثه إليه.

وروى هذا الحديث أيضاً عن ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عوسجة، عن ابن عباس، بالنص السابق.

فسفیان بن عیینة، وابن جريج اجتمعا على ذكر ابن عباس في السند، هذا هو المحفوظ.

ولكن حماد بن زيد خالفهما، فروى الحديث عن عمرو بن دينار، عن عوسجة أن رجلاً توفي... إلخ. فأرسل الحديث وأسقط من السند ابن عباس. ولهذا كان حديثه شاذاً مردوداً، على الرغم من أن حماداً ثقة، لأنه خالف سفیان بن عیینة وابن جريج وكل منهما ثقة.

ومثاله أيضاً ما رواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الواحد بن زياد — وهو ثقة — عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع عن يمينه».

قال البيهقي: خالف عبد الواحد العدد الكثير في هذا، فإن الناس إنما روه من فعل النبي ﷺ لا من قوله، وانفرد عبد الواحد من بين ثقات أصحاب الأعمش بهذا اللفظ^(١).

أما المنكر: فهو ما تفرد به راو غير ثقة مخالفاً من هو أرجح منه.

(١) علوم الحديث ومصطلحه ص ٢٠٩ - ٢١٠.

فالفرق بينه وبين الشاذ أن الشاذ راويه ثقة، وأن المنكر غير ثقة، مع تفرد كل منهما ومخالفته. مثال المنكر ما رواه حبيب بن حبيب الزيات - وهو غير ثقة - عن أبي إسحاق عن العيزار بن حريث عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أقام الصلاة وآتى الزكاة وقرى الضيف دخل الجنة». قال أبو حاتم: هو منكر، لأن غير حبيب من الثقات رواه عن أبي إسحاق موقوفاً على ابن عباس، فهو من كلام ابن عباس وليس من كلام النبي ﷺ، وهذا هو المعروف في هذا الحديث.

العزیز: ما رواه اثنان أو ثلاثة ولو في طبقة واحدة، بشرط ألا يقل عدد الرواة في باقي الطبقات عن اثنين اثنين.

ومثاله حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»، فقد روى هذا الحديث من الصحابة أبو هريرة وأنس، رواه عن أنس اثنان من التابعين هما: قتادة وعبد العزيز بن صهيب، ورواه عن قتادة اثنان: شعبة وسعيد، ورواه عن عبد العزيز اثنان إسماعيل بن علية وعبد الوارث ورواه عن كل من إسماعيل وعبد الوارث جماعة.

وقد اشترط الحاكم في صحة الحديث أن يكون عزيزاً، وخالفه الجمهور، فلم يشترطوا التعدد لصحة الحديث.

المستفيض أو المشهور: هو ما رواه ثلاثة فأكثر بحيث لا يقل عدد رواه عن ثلاثة. وبعض العلماء يخص المستفيض بأنه ما رواه الجماعة ويكون في ابتدائه وانتهائه سواء.

واشتهار الحديث أمر نسبي:

فحديث: «أبغض الحلال عند الله الطلاق» مشهور عند الفقهاء.

وحديث: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» مشهور

عند الأصوليين.

وحدیث: «نعم العبد صهیب لو لم یخف الله لم یعصه» مشهور عند النحاة.

قال العراقی وغیره: لا أصل له، ولا یوجد بهذا اللفظ فی شیء من كتب الحدیث.

وحدیث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ویده» مشهور عند أهل الحدیث والعلماء والعوام. لهذا قد یكون المشهور صحیحاً وقد یكون غیر صحیح.

فمثال المشهور وهو صحیح حدیث، «إن الله لا یقبض العلم انتزاعاً ینتزعه من العباد، ولكن یقبض العلم بقبض العلماء، حتی إذا لم یبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

ومثال المشهور وهو حدیث حسن: «طلب العلم فریضة علی كل مسلم».

ومثال المشهور وهو ضعیف حدیث «الأذنان من الرأس».

والمشهور الاصطلاحی عند أهل الحدیث لا یراد به ما اشتهر علی ألسنة العلماء أو العامة، بل یراد به ما رواه ثلاثة فأكثر، وأمثله علی كثرتها لا یعرفها إلا المشتغلون بالحدیث والمجتهدون فی جمعه، مثل حدیث أنس: «أن رسول الله ﷺ قنت شهراً بعد الركوع یدعو علی رعل وذکوان»^(۱).

*
**

(۱) انظر: تدریب الراوی ۱۷۳/۲ - ۱۷۵، وقد ذکر السیوطی أن للزرکشی کتاباً فی الأحادیث المشهورة یرسمى: التذکرة فی الأحادیث المشهورة، وأن له (أی للسیوطی) کتاباً استدرك فیہ ما فات الزرکشی، وللسخاوی أيضاً کتاب المقاصد الحسنة، ولإسماعیل بن محمد العجلونی (ت ۱۱۶۲هـ)، کتاب (كشف الخفاء ومزیل الإلباس عما اشتهر من الأحادیث علی ألسنة الناس).

تقسيم الحديث من حيث القبول والرد

المقبول: هو ما رواه عدل ضابط، عن مثله، بسند متصل، مع خلوه من الشذوذ والعلة.

وينقسم إلى (أ) صحيح، (ب) حسن.

(أ) والصحيح ما رواه عدل تام الضبط، عن مثله، بسند متصل، مع خلوه من الشذوذ والعلة.

(ب) والحسن ما رواه عدل خفيف الضبط، عن مثله، بسند متصل، مع خلوه من الشذوذ والعلة.

فالفرق بين الصحيح والحسن تحدده صفة (الضبط).

أما العدالة فيريدون بها شيئاً أكثر من مجرد التدين والورع، إذ لاحظوا فيها العلاقات الإنسانية والسلوك الاجتماعي في الحياة، ولذا اشترطوا السلامة من الفسق، وخوارم المروءة.

وقد اكتفى أهل العراق في العدالة بإظهار الإسلام، وسلامة المسلم من فسق ظاهر، واحتجوا بما روي عن ابن عباس أن إعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني رأيت الهلال - يعني هلال رمضان - فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم. قال: وأشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: يا بلال أذن في الناس فليصوموا غداً».

فقد قبل النبي ﷺ خبره، من غير أن يختبر عدالته بشيء سوى ظاهر إسلامه.

أما جمهور العلماء فخالفوا أهل العراق في ذلك، واستظهروا أنه يجب البحث عن عدالة الراوي بأكثر من البحث عن عدالة الشاهد – ولهذا كانت العدالة شيئاً زائداً على ظهور الإسلام يحصل بتتبع الأفعال:

(فالعدل هو من عرف بأداء فرائضه، ولزم ما أمر به، وتوقى ما نهى عنه وتجنب الفواحش المسقطه، وتحرى الحق والواجب في أفعاله ومعاملته، وتوقى في لفظه ما يثلم الدين والمروءة. فمن كانت هذه حاله فهو الموصوف بأنه عدل في دينه، ومعروف بالصدق في حديثه). وليس يكفيه في ذلك اجتناب كبائر الذنوب، حتى يكون متوقياً لما يخل بالمروءة من الصغائر.

أما الضبط: فيلاحظ فيه قوة الذاكرة ودقة الملاحظة.

فالضابط من الرواة، هو الذي يقل خطؤه في الرواية.

وغير الضابط هو الذي يكثر غلظه ووهمه فيها، سواء كان ذلك لضعف استعداده، أو لتقصير في اجتهاده.

فالذي يسمع الرواية، ويفهمها، ويحفظها حفظاً كاملاً، ثم يثبت على هذا من وقت السماع إلى وقت الأداء. هو الراوي الضابط.

يقول ابن الصلاح: (ويعرف ضبط الراوي بموافقته الثقات المتقين الضابطين، إذا اعتبر حديثه بحديثهم، فإن وافقهم في روايتهم غالباً – ولو من حيث المعنى – فضابط، ولا تضر مخالفته النادرة لهم. فإن كثرت مخالفته لهم وندرت الموافقة اختل ضبطه ولم يحتج بحديثه)^(١).

لهذا لم يقبل المحدثون رواية من عرف بالتساهل في سماع الحديث أو إسماعه كمن لا يبالي النوم في مجلس السماع، وكمن يحدث لا من أصل

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٥٠.

مقابل صحيح كما لا تقبل رواية من كثرت الشواذ والمناكير في حديثه. جاء عن شعبة: لا يجيئك الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ، ولا تقبل رواية من عرف بكثرة السهو في رواياته، إذا لم يحدث من أصل صحيح^(١).

ويلاحظ أن الإسلام شرط بديهي للعدالة، كما أن العقل لازم للضبط.

ومع هذا نص عليهما ابن الصلاح فقال: (يشترط فيمن يحتج بروايته أن يكون عدلاً، ضابطاً لما يرويه. وتفصيله: أن يكون مسلماً، بالغاً، عاقلاً، سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة، متيقظاً غير مغفل، حافظاً إن حدث من حفظه، ضابطاً لكتابه إن حدث من كتابه، وإن كان يحدث بالمعنى اشترط فيه مع ذلك أن يكون عالماً بما يحيل المعاني)^(٢).

وشرط البلوغ إنما هو شرط للأداء، لا للتحمل. فالصبي المميز يتحمل الحديث، ولا تقبل روايته حتى يبلغ.

وقد بلغ الحازمي (أبو بكر محمد بن موسى ٥٨٤هـ) بالشروط التي إذا توفرت في إنسان لزم قبول خبره واستحق إخراج حديثه في الصحيح - إلى أحد عشر شرطاً، تنحصر - في: الإسلام، والعقل، والعدالة، والضبط.

وهذه شروطه بإيجاز:

- ١ - الإسلام.
- ٢ - العقل.
- ٣ - الصدق.
- ٤ - عدم التدليس.
- ٥ - الشهرة بطلب الحديث.

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٥٧.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٤٩ - ٥٠، وانظر: تدريب الراوي ٣٠٠/١ وما بعدها.

- ٦ - التلقي من العلماء لا من الصحف .
- ٧ - الضبط لما يسمع ، والتحقق من عدم تدليس شيخه .
- ٨ - التيقظ وسلامة الذهن من شوائب الغفلة .
- ٩ - قلة الغلط والوهم .
- ١٠ - حسن السمات والوقار .
- ١١ - مجانبة الأهواء وترك البدع^(١) .

وقد اختصر ابن حجر هذه الشروط في قوله :

قال الحازمي ما حاصله : إن شرط الصحيح أن يكون إسناده متصلاً ، وأن يكون راويه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط ، متصفاً بصفات العدالة ، ضابطاً متحفظاً ، سليم الذهن قليل الوهم ، سليم الاعتقاد^(٢) .

والصحيح درجات تتفاوت بحسب ضبط رواته وتحريمهم واتقانهم^(٣) .

١ - فأعلاها ما اتفق عليه البخاري ومسلم ، وهو المعنى بقولهم (متفق عليه) .

٢ - ثم ما انفرد به البخاري عن مسلم .

٣ - ثم ما انفرد به مسلم عن البخاري .

٤ - ثم ما كان على شرطهما ، والمراد بشرطهما أن يروى الحديث برجال موجودين في صحيح البخاري ومسلم أو مساوين لهم .

٥ - ثم ما كان على شرط البخاري .

(١) شروط الأئمة الخمسة للحازمي ص ٣٨ - ٤٢ .

(٢) هدي الساري ص ٩ . (٣) انظر: تدريب الراوي ١/١٢٢ وما بعدها .

٦ - ثم ما كان على شرط مسلم .

٧ - ثم ما صححه ابن خزيمة .

٨ - ثم ما صححه ابن جبان .

٩ - ثم ما صححه الحاكم .

١٠ - ثم ما صححه غير هؤلاء .

والمختار أنه لا يجزم في إسناد بأنه أصح الأسانيد مطلقاً، وقد نصّ العلماء على نماذج من الأسانيد تعتبر من أجود الأسانيد التي يثبت بها الصحيح، منها: الزهري، عن سالم، عن أبيه عبد الله بن عمر.

ومنها: الزهري، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب .

ومنها: مالك، عن نافع، عن ابن عمر .

ومنها: الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود^(١) .

ويلاحظ أنه لا تلازم بين صحة الحديث وصحة السند، فقد يصح السند لاستجماع شروطه من العدالة والضبط والاتصال، ولا يصح المتن لشذوذ فيه أو علة، وقد لا يصح السند ويصح المتن لوجوده من طرق أخرى صحيحة . كما يلاحظ أن الترمذي كان يصف الحديث أحياناً بأنه (حسن صحيح)، وقد فسر العلماء صنيع الترمذي بأن للحديث إسنادين: أحدهما صحيح والآخر حسن، أو للتردد في الحكم على الراوي: هل اجتمعت فيه شروط الصحة

(١) تدريب الراوي ٧٦/١ - ٧٨، أما عبارة أصح شيء في الباب كذا - وهي تتردد كثيراً في جامع الترمذي - فلا يلزم منها صحة الحديث، بل قد يكون المراد بها أرجح ما جاء في الباب أو أقله ضعفاً .

أو قصر عنها إلى درجة الحسن، أو لأن المراد بالحسن هنا هو الحسن اللغوي دون الاصطلاحي.

وما ذكرناه في تعريف الصحيح، هو ما يعرف بالصحيح لذاته، أما الصحيح لغيره فهو الحديث الحسن لذاته إذا جاءت روايته من طرق أخرى حيث تجبر ما فيه من نقص وتزليل خوف الوهم والغلط الناشئين من قلة الضبط.

مثال الصحيح لغيره: ما رواه محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

فمحمد بن عمرو بن علقمة من المشهورين بالصدق، ولكنه لم يكن من أهل الإتيان حتى ضعفه بعضهم من جهة سوء حفظه، ووثقه بعضهم لصدقه، فحديثه من هذه الجهة حسن، ولكن هذا الحديث لما روى من أوجه أخر زال بذلك ما كنا نخشاه عليه من جهة سوء حفظه، وانجبر به ذلك النقص اليسير، فصح هذا الإسناد والتحق بدرجة الصحيح^(١).

وقد يكون في الحديث ضعف لكنه يجبر بكثرة الطرق والمتابعة فيجبر ما فيه ضعف ويرتفع إلى مرتبه الحسن لغيره.

والضعيف الذي قد يرتفع إلى مرتبة الحسن هو ما كان الضعف فيه ناتجاً من سوء حفظ الراوي أو تدليسه أو جهالته، أما الضعيف بسبب الفسق أو الكذب فلا ترفعه إلى درجة الحسن إلا إذا روي من طريق أقوى.

هل يفيد خبر الأحاد العلم؟

إذا قيل عن حديث إنه صحيح فهل يوجب ذلك القطع واليقين بأنه صدر عن الرسول ﷺ؟

(١) التقييد والإيضاح ص ٥١.

قال بهذا جماعة منهم حسين الكرابيسي وابن حزم وداود.

والراجح أنه مفيد للظن الغالب، فقولهم: حديث صحيح، أي توفرت فيه الشروط المطلوبة فيجب العمل به، لا أنه مقطوع به في نفس الأمر، لجواز الخطأ والنسيان على الثقة. وإذا قيل عن حديث غير صحيح، فمعناه لم يصح إسناده على الشرط المذكور، لا أنه كذب في نفس الأمر، لجواز صدق الكاذب، وإصابة من هو كثير الخطأ - أما الأحاديث التي اتفق عليها البخاري ومسلم، أو أخرجها أحدهما، ففي إفادتها القطع خلاف بين أهل الحديث، فيرى ابن الصلاح أنها مقطوع بصحتها، والعلم القطعي حاصل بما رويها أو أحدهما في الصحيح، ووافقه آخرون كالسيوطي وابن كثير، ويرى آخرون أنها لا تفيد إلا الظن شأن الصحيحين في ذلك كشأن الأخبار الصحيحة المروية في غيرهما، ومن هؤلاء النووي الذي ذكر رأي ابن الصلاح ثم عقب عليه بقوله: (وخالفه المحققون والأكثر، فقالوا: يفيد الظن ما لم يتواتر)^(١).

المتابع والشاهد: من تتبع الطرق المختلفة للحديث قد يعثر على طريق آخر يعزز الحديث الذي يظن أن راويه تفرد به:

فإن كان الراوي في الطريق الثانية وافق الراوي في الطريق الأولى في شيخه حتى الصحابي، سميت هذه (متابعة تامة)، وإن وافقه في الصحابي دون شيخه سميت (متابعة ناقصة).

فالحديث المتابع: هو ما شارك حديثاً آخر في اللفظ أو المعنى مع الاتحاد في الصحابي.

مثال: روى أصحاب مالك، عن مالك، عن عبد الله بن دينار، عن

(١) انظر: تدريب الراوي ٧٥/١، ١٣١ وما بعدها. وقد اهتمت كتب أصول الفقه باستيفاء الكلام في هذا الموضوع فلتراجع.

عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفتطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له».

ورواه الشافعي عن مالك بالسند المتقدم وفيه: «فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين»، فظن قوم تفرد الشافعي بهذا اللفظ من دون أصحاب مالك .
وبالبحث وجد أن محمد بن مسلمة القعنبي رواه عن مالك بالسند السابق. فهذه متابعة تامة، وكذا أخرجه البخاري .

ووجد أن عاصم بن محمد روى عن أبيه محمد بن زيد، عن جده عبد الله بن عمر مثل ما روى الشافعي. فهذه متابعة ناقصة وهي مخرجة في صحيح ابن خزيمة.

ووجد أن محمد بن حنين رواه عن ابن عباس كما رواه الشافعي، كما روى أيضاً عن أبي هريرة. فهذا شاهد. وعملية البحث عن الطرق لاستخراج المتابع أو الشاهد تسمى بـ (الاعتبار).

ويدخل في المتابعة والاستشهاد رواية من لا يحتج به. ولا يصلح لذلك كل ضعيف^(١).

الحديث المردود:

هو ما فقد شرطاً من شروط الحديث المقبول، وقد سبق أن شرطنا لقبول الحديث خمسة شروط، هي:

- ١ - عدالة الراوي.
- ٢ - ضبطه.
- ٣ - اتصال السند.

(١) انظر تدريب الراوي ١/٢٤١ - ٢٤٥، ونزهة النظر، لابن حجر، حيث يقول في النخبة: (والفرد النسبي إن وافقه غيره فهو المتابع، وإن وجد متن يشبهه فهو الشاهد، وتتبع الطرق لذلك هو الاعتبار) ثم شرحه في النزهة بالأمثلة.

٤ - خلوه من الشذوذ.

٥ - خلوه من العلة.

فإذا فقدت عدالة الراوي أو ضبطه كان الحديث مردوداً، وكذلك إذا فقد اتصال السند.

والمراد باتصال السند أن يكون كل واحد من الرواة قد سمع الحديث ممن فوقه حتى ينتهي إلى النبي ﷺ أو إلى من ينتهي إليه دونه.

غير أن الحديث الضعيف لفقد شرط الاتصال يسمى بعدة أسماء باعتبار الموضوع الذي انقطع فيه السند وباعتبار خفاء هذا الانقطاع.

الموقوف: وهو ما روي عن الصحابة من أقوالهم أو أفعالهم، ولا يتجاوز به إلى النبي ﷺ، وهذا عند الإطلاق، وقد يستعمل مقيداً في غير الصحابة.

وقول الصحابي، كنا نفعل كذا على عهد الرسول، أو أمرنا بكذا أو نهينا عن كذا، أو من السنة كذا - كل هذا من الحديث المرفوع على الصحيح.

المرسل: وهو الحديث الذي سقط منه الصحابي، بأن يرفع التابعي الحديث إلى النبي ﷺ وينسبه إليه، دون أن يذكر الصحابي الذي أخذ عنه.

وكثير من الفقهاء وبعض المحدثين لا يعتبرون المرسل من قبيل الحديث الضعيف، بل يعتبرونه مقبولاً متى كان التابعي الذي يحدث به ثقة في نفسه، لأنه لا يأخذ إلا عن ثقة، حتى جاء الإمام الشافعي فأعلن رأيه في ضعف المرسل ما لم يجيء مسنداً عن طريق آخر، أو يتقوى بموافقة قول صحابي أو بفعل الصحابة أو بإفتاء أكثر العلماء بمقتضاه أو بموافقته للقياس، وتابعه على هذا أهل الحديث.

وفي ذلك يقول الإمام مسلم صاحب الصحيح : (والمرسل من الروايات في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة).

ويقول الترمذي : (والحديث إذا كان مرسلًا فإنه لا يصح عند أكثر أهل الحديث، قد ضعفه غير واحد منهم).

ويقول ابن الصلاح : (وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه هو المذهب الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث ونقاد الأثر).

المقطوع : هو الموقوف على التابعي، قولاً له أو فعلاً. واستعمله الشافعي ثم الطبراني في المنقطع.

المنقطع : يطلقه كثير من الفقهاء على ما لم يتصل إسناده على أي وجه كان انقطاعه. وأكثر ما يستعمل في رواية من دون التابعي عن الصحابي، كمالك عن ابن عمر. وقيل هو ما اختل منه رجل قبل التابعي. محذوفاً كان أو مبهما كرجل.

المعضل : هو ما سقط من وسط سنده راويان فأكثر على التوالي، كقول الإمام مالك : بلغني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال : «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق». ورواه مالك عن أبي هريرة لا تكون إلا بواسطة اثنين وقد سقطا على التوالي من وسط السند. ويسمى مثل هذا التعبير الذي فيه (بلغني) بلاغاً.

المعلق : هو ما حذف من أول سنده راوٍ أو أكثر على التوالي مع بقاء بعض السند، مثل رواية البخاري، عن الماجشون، عن عبد الله بن الفضل، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعاً : «لا تفاضلوا بين الأنبياء» فالبخاري

لم يعاصر الماجشون، بل يروى عنه بواسطة راوٍ واحد سقط من السند. وبعضهم يستعمله فيما حذف منه كل السند.

ومن رأى بعض العلماء أن المعلق لا يعتبر ضعيفاً إذا وقع في كتاب التزمته صحته وكان بصيغة الجزم (كقال وأمر ونهى)، بخلاف ما إذا كان بغير الجزم نحو (يقال عنه، ويذكر ويحكى).

المدلس: من التدليس وهو الغموض والإيهام والتغطية، مشتق من (الدلس) وهو اختلاط الظلام. والتدليس قسمان:

(أ) تدليس الإسناد، وعرفه ابن الصلاح بأن يروي المحدث عن لقيه ما لم يسمع منه موهماً أنه سمعه منه، أو عن عاصره ولم يلقه موهماً أنه لقيه وسمعه منه. ومن شأنه ألا يقول في ذلك (أخبرنا فلان) ولا (حدثنا) وما أشبههما، وإنما يقول: (قال فلان) أو (عن فلان) أو (أن فلاناً قال)، مثل ما روى علي بن خشرم قال: كنا عند ابن عيينة فقال: قال الزهري، فقيل له: حدثك الزهري؟ فسكت ثم قال: قال الزهري، فقيل له: أسمعت من الزهري؟ فقال: لا، لم أسمعه من الزهري ولا ممن سمعه من الزهري. حدثني عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري^(١).

وبعض العلماء يخص التدليس بما يرويه المحدث عن لقيه ما لم يسمعه منه موهماً أنه سمعه منه. أما إذا روى عن عاصره ولم يلقه فيسمونه بالمرسل الخفي^(٢).

ويدخل في تدليس الإسناد ما يعرف بتدليس العطف، وهو أن يصرح

(١) التقييد والإيضاح ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) التقييد والإيضاح ص ٩٧، وفتح المغيث للسخاوي ١/١٦٩ وما بعدها، والنخبة وشرحها لابن حجر ص ٣٩.

بالحديث في شيخ له ويعطف عليه شيخاً آخر لم يسمع منه ذلك المروي، سواء اشتركا في شيخ واحد أولاً. مثاله ما رواه الحاكم في علومه قال: اجتمع أصحاب هشيم فقالوا: لا نكتب عنه اليوم شيئاً مما يدلّسه، ففطن لذلك، فلما جلس قال: (حدثنا حصين ومغيرة، عن إبراهيم . .) وساق عدة أحاديث فلما فرغ قال: هل دلست لكم اليوم؟ قالوا: لا، فقال: لم أسمع من مغيرة حرفاً مما ذكرته، إنما قلت: حدثني حصين، ومغيرة غير مسموع لي^(١).

والتدليس مكروه جداً، ذمّه أكثر العلماء، لكنهم اختلفوا في قبول رواية من عرف به، فجعله فريق من أهل الحديث والفقهاء مجروحاً بذلك، وقالوا: لا تقبل روايته بحال: بين السماع أولم يُبين، لما في التدليس من غش وإيهام. وذهب فريق إلى قبول روايته مطلقاً: بين السماع أولم يبين، لأن نهاية أمره أن يكون مهملاً، وذهب فريق إلى أن من عرف بالتدليس عن الثقات يقبل حديثه أو إن عرفها بالتدليس عن الضعفاء فلا يقبل حديثه^(٢)، والرأي الراجح عند ابن الصلاح هو التفصيل بين ما رواه المدلس بلفظ محتمل لم يبين فيه السماع والاتصال، فهذا حكمه حكم المرسل، وما رواه بلفظ مبين للاتصال نحو (سمعت وحدثنا وأخبرنا) وأشباهها فهو مقبول محتج به، وهذا لأن التدليس ليس كذباً، وإنما هو ضرب من الإيهام بلفظ محتمل.

(ب) القسم الثاني من التدليس هو تدليس الشيوخ: وهو أن يروي عن شيخ حديثاً سمعه منه، ولكنه يسمى شيخه، أو يكتنيه، أو يصفه بما لا يعرف به. وهذا يسبب صعوبة معرفة المروي عنه والوقوف على صلاحيته، مثل قول أبي بكر بن مجاهد المقرئ: (حدثنا محمد بن سند) يريد محمد بن

(١) علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص ١٠٥.

(٢) انظر: فتح المغيث ١/١٧٣ وما بعدها.

الحسن بن محمد بن زياد النقاش، فنسبه إلى جد له .

وكراهية هذا النوع من التدليس تختلف شدة وضعفاً باختلاف الغرض الداعي إليه: فشر أنواعه ما كان تغطية للضعف في الراوي . وهذا حرام لأنه خيانة و غش .

وقد يكون الدافع إليه هو صغر سن الشيخ عن الراوي، مثل رواية الحارث بن أبي أسامة، عن أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، الحافظ الشهير، فلكون الحارث أكبر من أبي الدنيا قال في روايته عنه مرة: (عبد الله بن عبيد) ومرة (عبد الله بن سفيان) ومرة (أبو بكر بن سفيان) ومرة (أبو بكر الأموي).

وقد يكون الدافع إليه هو الاختبار والدعوة إلى حسن النظر في الرواة ونسبتهم إلى قبائلهم وبلدانهم وحرفهم، وألقابهم وكناهم .

ومن أنواع التدليس أيضاً ما يعرف بتدليس التسوية: وهو أن يسقط ضعيفاً بين ثقتين لقي أحدهما الآخر، بأن يروي المدلس حديثاً عن شيخ ثقة بسند فيه راوٍ ضعيف، فيحذفه المدلس من بين الثقتين اللذين لقي أحدهما الآخر ولم يعرف أولهما بالتدليس ويأتي بلفظ محتمل، ويصرح المدلس بالاتصال عن شيخه لأنه قد سمعه منه، فلا يظهر في الإسناد ما يقتضي رده إلا لأهل النقد والمعرفة بالعلل . وكان علماء الحديث الأقدمون يسمونه (تجويداً) فيقولون (جوده فلان) أي ذكر من فيه من الأجواد الثقات وحذف غيرهم . وهو أفحش أنواع التدليس، وقد فسق ابن حزم من يفعله ورد خبره لأنه ساقط العدالة، وممن عرف عنه هذا النوع من التدليس الوليد بن مسلم، وبقية بن الوليد .

* * *

بعد أن ألممنا بالألقاب التي يوصف بها الحديث الذي فقد شرط اتصال السند نعود إلى الحديث المردود لفقد شرط من شروط قبوله .

وقد ذكرنا أن المقبول يجب أن يكون غير شاذ ولا معلل .

أما الشاذ فقد سبق الحديث عنه عند تقسيم الحديث باعتبار عدد رواته .

وأما المعلل : فهو ما فيه علة، وعلل الحديث هي أسباب خفية غامضة تخرج الحديث من حال الصحة إلى حال الضعف . فالحديث المعلل : هو الذي وجدت فيه علة تقدح في صحته مع أن الظاهر هو السلامة منها، ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذي رجاله ثقات، الجامع شروط الصحة من حيث الظاهر، لكن الخبير الجامع لطرق الحديث يتنبه إلى أن هذا الحديث المتصل فيه إرسال أو تدليس، أو أن هذا المرفوع أصله الوقف، أو فيه وهم أو دخل فيه حديث آخر أو غير ذلك . والعلة قد تكون في السند وقد تكون في المتن . وشرط الحديث ليكون معللاً أن تكون علته خفية، فإذا كانت ظاهرة كالجرح بالكذب في أحد رواته لم يطلق عليه هذا الاسم إلا بضرب من التوسع، ويغلب ذلك على متقدمي المؤلفين .

ومعرفة علل الحديث من أجل علوم الحديث وأدقها، وإنما يضطلع به أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب، وهي أشبه بتطبيق عملي يتبين منه مدى استفادتهم بما حصلوه من الحديث ومذاكرته وجمع طرقه ومعرفة تاريخ الرجال الذين رووه، ومتى ولدوا، ومتى ماتوا، وما قيل فيهم جرحاً أو تعديلاً ومعرفة الاصطلاحات وطول العهد بممارسة الحديث – كل هذا يعطي خبرة بنقد الحديث وحدساً قريباً من الإلهام يكشف به المحدث نواحي الضعف في الأخبار .

وقد أُلّف في علل الحديث كثيرون، منهم أحمد بن حنبل، والترمذي،

وابن أبي حاتم الرازي (عبد الرحمن بن محمد).

والحديث قد يعلل أحياناً لاضطرابه، أو لقلب فيه، أو إدراج:

فالمضطرب^(١): هو الحديث الذي روي على أوجه مختلفة متساوية لا يمكن الجمع بينها. أما إذا ترجحت إحدى الروايات، بأن يكون راويها أحفظ أو أكثر صحبة للمرروي عنه أو غير ذلك من وجوه الترجيحات المعتمدة - فالحكم للمراجعة، ويزول عنه الاضطراب الذي يوجب ضعف الحديث؛ لأن الاختلاف في الرواية دون مرجح مشعر بأن الحديث لم يضبط.

ثم قد يقع الاضطراب في متن الحديث، وقد يقع في الإسناد، وقد مثل السخاوي للحديث المضطرب متنه بقصة ذي اليمين التي روى فيها أن النبي ﷺ نسي في صلاته، حيث وقع الاختلاف في تعيين الصلاة التي حدث فيها النسيان، فمرة شك الراوي أهى الظهر أو العصر، ومرة قال: إحدى صلاتي العشي . . . ، ومرة جزم بالظهر وأخرى بالعصر^(٢).

ومثلوا له أيضاً بحديث أنس في استفتاح القراءة في الصلاة بالبسملة، فإنه روى عنه بها وروى بغيرها.

وأكثر ما يقع الاضطراب في السند، وقد يقع الاختلاف من راوٍ واحد أو من جماعة.

وعندما يكون الراوي ثقة ويقع الاختلاف في اسمه واسم أبيه ونسبته لا يؤثر هذا على صحة الحديث.

المقلوب: هو الحديث الذي حدث فيه إبدال في سنده أو في متنه،

(١) تدريب الراوي ١/٢٦٢.

(٢) فتح المغيبي ١/٢٢٥.

مثال الإبدال في السند أن يروى الحديث مثلاً (سهيل عن أبي صالح، عن أبي هريرة) فيرويه شخص عن (الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة). أو أن يكون للحديث سند، فيعطى لحديث آخر مع إعطاء الحديث الأول سند الثاني، ومن هذا ما يروى من أن البخاري قدم بغداد فاجتمع قبل مجلسه قوم من أصحاب الحديث وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وألقوها على البخاري فلما فرغوا التفت إليهم فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، فأذعنوا له بالفضل.

المدرج: وأهم أنواعه أن يذكر بعض الرواة كلاماً من عنده موصولاً بالحديث، فيظنه الراوي عنه أنه من كلام النبي ﷺ.

مثاله ما رواه أبو خيثمة زهير بن معاوية، عن الحسن بن الحر بسنده عن ابن مسعود «أن رسول الله ﷺ علمه التشهد في الصلاة فقال: قل التحيات لله»، فذكر التشهد، وفي آخره «فإذا قلت هذا فقد قضيت صلاتك، إن شئت أن تقوم فقم وإن شئت أن تقعد فاقعد».

هكذا رواه أبو خيثمة عن الحسن بن الحر، فأدرج في الحديث قوله: «فإذا قلت هذا... إلخ»، وهو من كلام ابن مسعود لا من كلام الرسول بدليل أن ثلاثة من الثقات رووه عن الحسن مع ترك هذه الزيادة، ورواه آخرون ففصلوا كلام ابن مسعود عن الحديث.

ومن أنواع الإدراج أن يدخل بعض حديث في حديث آخر مخالف له في سنده مثل رواية سعيد بن أبي مریم، عن الزهري، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تنافسوا».

(١) تدريب الراوي ١/٢٦٨.

فقوله: «لا تنافسوا» أدرجه ابن أبي مريم من متن حديث آخر رواه مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، فيه «لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا».

الموضوع: في نهاية بحثنا عن الأحاديث الضعيفة نذكر كلمة موجزة عن الموضوع وهو ليس حديثاً إلاً على زعم واضعه الذي اختلقه.

وقد بدأ الوضع بعد مقتل عثمان وحرب علي ومعاوية التي انقسم المسلمون بسببها إلى شيعة وخوارج وجمهور، فبدأ الوضع انتصاراً للمذاهب ومجالاً للزندقة الحاقدين ييثون به سمومهم، فتصدى لها العلماء منذ وقت مبكر، وقد شكوا بعض الناس إلى الإمام عبد الله بن المبارك كثرة الأحاديث الموضوعية، فرد عليه بقوله: (تعيش لها الجهابذة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾).

ومن أسباب الوضع: الزندقة، فقد وضع الزنادقة كثيراً من الأحاديث لإفساد الإسلام وبلبلة المسلمين، مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب، وقد اعترف كل منهما بوضع أربعة آلاف حديث.

ومن أسباب الوضع كذلك التعصب لمذهب سياسي أوفقي، والتقرب إلى الأمراء، والتقرب من العامة والتعالم بينهم كما كان يصنع القصاص، والجهل كما حدث من بعض الزهاد والمتصوفة من وضع أحاديث للترغيب ظناً منهم أن هذا من عمل الخير، مثل ما روى عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم أنه قيل له: من أين لك عن عكرمة، عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق، فوضعت هذه الأحاديث حسبة.

ويعرف وضع الحديث: باعتراف الواضع نفسه، أوركافة معناه،

أو مناقضته للمقطوع به من القرآن والسنة والإجماع، أو مناقضته لصريح العقل، كالذي وضعه عبد الرحمن بن زيد أن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين، وكحديث محمد بن شجاع الثلجي: إن الله خلق الفرس فأجراها، فعرفت، فخلق نفسه منها.

ومن الأمور الدالة على وضع الحديث أن يتضمن المروي وعيداً شديداً على أمر صغير، أو وعداً عظيماً على أمر حقير، أو أن يكون الراوي مشهوراً بالكذب وقلة الدين.

وقد تعقب العلماء هذه الموضوعات، ونبهوا إليها وألفوا الكتب فيها ومن أهم ما ألف فيها كتاب (الموضوعات) لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) الذي عرف بتشدده والحكم بالوضع على الحديث لأدنى شبهة، وقد قام السيوطي بتلخيص (الموضوعات) في كتاب سماه (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة وناقش السيوطي ابن الجوزي في بعض الأحاديث في كتاب (ذيل اللآلئ المصنوعة). ومن الكتب في الموضوعات أيضاً: «المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي».

مصطلحات^(١) التحمل والأداء:

يقسم العلماء طرق تحمل الحديث إلى أقسام ثمانية، لكل منها ألفاظ تدل عليها:

١ - القسم الأول: السماع من لفظ الشيخ، سواء كان يملي على تلاميذه من حفظه أو من كتابه، أو كان يحدث من غير إملاء، وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجمهور.

(١) انظر تدريب الراوي ٨/٢ وما بعدها.

والألفاظ المستعملة للتعبير عن هذا القسم من التحمل، هي :
(سمعت)، ثم (حدثنا وحدثني) - وصيغة الأفراد أعلى من صيغة الجمع في
نظر بعض العلماء - ثم (أخبرنا)، قبل أن تُخصَّص بما قرىء على الشيخ، ثم
(أنبأنا) وهما قليلان في الاستعمال، ثم أقل العبارات في ذلك هي (قال
فلان، أو ذكر فلان) دون أن يضيف إليها كلمة (لي) أو (لنا) فأما قوله : (قال
لي) أو (ذكر لي أو لنا)، فهو من قبيل قوله (حدثنا فلان)، غير أنه لائق بما
سمعه منه في المذاكرة، وهو به أشبه من (حدثنا).

وللراوي أن يختار من هذه الألفاظ ما يدل على سماعه، وهي مُرتَّبة في
القوة بهذا الترتيب الذي ذكرناه.

٢ - القسم الثاني من أقسام الأخذ والتحمل : هو القراءة على الشيخ،
وأكثر العلماء يسمونها (عَرْضاً)، من حيث إن القارىء يعرض على الشيخ
ما يقرؤه، كما يعرض القرآن على المقرئ، وسواء كنت أنت القارىء، أو قرأ
غيرك وأنت تسمع، أو قرأت من كتاب أو من حفظك، أو كان الشيخ يحفظ
ما يقرأ عليه أو لا يحفظ لكن يمسك أصله هو أو ثقة غيره.

وقد قدمنا أن القسم الأول أرفع الأقسام، غير أنه نقل عن أبي حنيفة
وابن أبي ذئب وغيرهما ترجيح العرض على السماع. كما نقل عن مالك
التسوية بينها.

وأجود العبارات للتعبير عن العرض أن يقال (قرأت على فلان، أو قرىء
على فلان وأنا أسمع فأقرَّ به) ويلي ذلك ما سبق من عبارات السماع مقيدة
بالقراءة بأن يقال : (حدثنا فلان قراءة عليه).

أما أن يقال : (حدثنا وأخبرنا) في العرض دون التقييد بالقراءة، فقد
أجازه بعض المحدثين، ومنهم البخاري. وذهب آخرون إلى تخصيص

(أخبرنا) بحالة العرض، وجعلوها علماً يقوم مقام قوله: (أنا قرأته عليه، لا أنه لفظ به لي).

وأول من أحدث هذا الفرق بينهما في مصر (ابن وهب). وإلى هذا ذهب (مسلم) في صحيحه.

ويلاحظ أن (حدثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، وذكر لنا، وقال لنا) كلها ألفاظ تفيد التحديث والسماع من حيث اللغة، وأن التماس الفرق بين (حدثنا وأخبرنا) من اللغة عناء وتكلف. وخير ما يقال فيه أنه اصطلاح منهم أرادوا به التمييز بين النوعين، ثم خصص النوع الأول بقوله (حدثنا)، لقوة إشعاره بالنطق والمثابفة.

٣ - القسم الثالث: الإجازة، وهي إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته، ولو لم يسمعها منه أو يقرأها عليه.

وقد خالف في جواز الرواية بالإجازة جماعة من أهل الحديث والفقهاء والأصوليين ولكن الذي استقر عليه العمل وقال به جماهير أهل العلم هو إباحة الإجازة وإباحة الرواية بها.

والإجازة أنواع: أولها إجازة لمعين في معين، كأن يقول الشيخ لتلميذه: «أجزت لك الكتاب الفلاني»، وهذا أعلى أنواعها - ثانياً - إجازة لمعين في غير معين، كأن يقول الشيخ: (أجزت لك جميع مسموعاتي) - ثالثاً - إجازة عامة كأن يقال: (أجزت لمن قال لا إله إلا الله) والأرجح في هذا النوع المنع. وهناك أنواع أخرى لا يعتد بها.

٤ - القسم الرابع: المناولة: وهي أن يعطي الشيخ تلميذه كتاباً أو حديثاً مكتوباً ليقوم بأدائه وروايته عنه.

وهي على صور متعددة تتفاوت قوة وضعفاً. فأعلى صورها وأقواها أن

يناول الشيخ تلميذه الكتاب أو الحديث المكتوب ويقول له: (قد مَلَكْتُكَ إياه وأجزتك برواياته، فخذه مني واروه عني). وتسمى هذه الصورة مناولة مع الإجازة. وقد غالى بعضهم في شأنها حتى جعلها أعلى من السماع، لكن الصحيح أنها أقل منه. ويقارب الصورة السابقة من المناولة أن يقول الشيخ لتلميذه: (خذ هذا الكتاب فانسخه وراجعه ثم رده إلي).

٥ - القسم الخامس: المكاتبة: وهي أن يكتب الشيخ بخطه أو يكلف غيره بأن يكتب عنه بعض حديثه لشخص غائب عنه ترسل الكتابة إليه. وقد تتجرد المكاتبة عن الإجازة، وقد تقترب بها. والمكاتبة المقترنة بالإجازة في قوة المناولة المقرونة بالإجازة. أما المكاتبة المجردة عن الإجازة فقد منعها قوم، إلا أن الصحيح المشهور بين علماء الحديث هو إباحتها والعمل بها.

وقد ذهب (الليث بن سعد) إلى أنه يجوز أن يقال في المكاتبة (حدثنا وأخبرنا) دون تقييدها بالكتابة، لكن المختار لمن يريد الدقة أن يقول: (كتب إلي فلان قال) أو يقول: (أخبرني به مكاتبة أو كتابة) أو نحو ذلك.

٦ - القسم السادس: الإعلام، وهو إعلام الراوي للطالب بأن هذا الحديث أو هذا الكتاب سماعه من فلان أو روايته مقتصراً على ذلك من غير أن يقول: اروه عني أو أذنت لك في روايته أو نحو ذلك)، وكأنه بمجرد إعلامه إياه بما صح سماعه يومئذ إلى رضاه عن تحمله، وأدائه، فالإجازة مفهومة ضمناً وإن لم يذكرها الشيخ صراحة.

٧ - القسم السابع: الوصية، وهي أن يوصي الراوي لشخص بكتاب يرويه عند سفره أو موته. وهذا غير معهود ولا معمول به، إلا أن يراد به الوجادة.

٨ - الوجادة: مصدر (وجد يجد) مولد غير مسموع من العرب. ومثال

الوجداء: أن يقع في يده كتاب شخص فيه أحاديث يرويها بخطه ولم يلقه، أو لقيه ولكنه لم يسمع منه الذي وجدته بخطه، وليست له منه إجازة، فله أن يقول: (وجدت بخط فلان، أو قرأت بخط فلان، أو في كتاب فلان بخطه).

فإذا قال الواجد (عن فلان) بحيث يوهم سماعه منه كان ذلك تدليساً قبيحاً، ولا يصح في الوجداء أن يقول (حدثنا) ولا (أخبرنا).

ويجب أن يتأكد من نسبة الكتاب إلى صاحبه. وقد أصبح الاعتماد في العصور المتأخرة على النقل بطريق الوجداء.

**

(ب) غريب الحديث

وهو من علوم الثقافة الحديثية التي يقبَحُ جهلها بأهل الحديث خاصة، ثم بأهل العلم عامة، وهو عبارة عن ما وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة عن الفهم لقلة استعمالها.

وأول من صنف فيه النضر بن شميل، أو أبو عبيدة معمر بن المثنى، وكتابه صغيران، وصنف بعد ذلك أبو عبيدة القاسم بن سلام، فأجاد فيه. ومن الكتب المشهورة فيه (النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير، وهو مطبوع متداول وكتاب الفائق للزمخشري وهو مطبوع أيضاً.

*
**

(ج) مختلف الحديث، والناسخ والمنسوخ منه، ومشكل الحديث

علمنا أن الحديث ينقسم إلى مقبول ومردود، وأن المقبول هو ما وراء عدل ضابط لما يرويه، بسند متصل، مع خلوه من الشذوذ والعلة.

فإن سلم الحديث المقبول من أن يعارضه حديث آخر سمي محكماً.

وإن عورض بحديث مقبول مثله: فإن أمكن الجمع بين الحديثين بغير تعسف فهو مختلف الحديث.

وإن لم يكن الجمع بينهما، وثبت تأخر أحدهما، عرف المتأخر بالناسخ والآخر بالمنسوخ.

وإن لم يثبت تأخر أحدهما، فإن أمكن الترجيح بين الحديثين، صير إليه وإلاً توقفنا عن العمل بهما.

وبناء على هذا عرف العلماء (مختلف الحديث) بأنه علم يبحث فيه عن التوفيق بين الأحاديث المتناقضة ظاهراً، إما بتخصيص العام تارة، أو بتقييد المطلق، أو بالحمل على تعدد الحادثة، إلى غير ذلك من وجوه التأويل، ويطلق عليه (علم تليق الحديث).

فصحة الحديثين وتعارضهما من حيث الظاهر شرطان أساسيان ليكونا من مختلف الحديث. فإذا كان أحد الحديثين ضعيفاً لم يصلح لمعارضة ما هو أقوى منه.

أما النسخ فهو (رفع حكم شرعي بدليل متأخر)، فالمنسوخ من الحديث هو الحكم الشرعي الذي أثبتته حديث مقبول سابق. والناسخ منه هو الحكم الشرعي الذي أثبتته حديث مقبول متأخر عن الأول. والصحة والتعارض الذي لا يقبل التوفيق شرطان جوهریان في الأحاديث الناسخة والمنسوخة.

أما مشكل الحديث أو الآثار: فهو أعم من (اختلاف الحديث) ومن (الناسخ والمنسوخ منه) لأن الإشكال - هو الالتباس والخفاء - قد يكون ناشئاً من ورود حديث يناقض حديثاً آخر من حيث الظاهر - كما هو الحال في مختلف الحديث - أو من حيث الحقيقة - كما هو شأن الناسخ والمنسوخ - وقد ينشئ الإشكال من مخالفة الحديث للعقل أو للقرآن أو للغة.

والمؤلف يرفع هذا الإشكال أما بالتوفيق بين الأثرين المتعارضين، بيان نسخ فيهما، أو يشرح المعنى بما يتفق مع العقل أو القرآن أو اللغة، أو بتضعيف الحديث الموجب للإشكال ورده أو بغير ذلك.

وتخصيص (مختلف الحديث) بمعناه الذي قدمناه هو صنيع المتأخرين، وإلاً فمعنى (الاختلاف) شامل لما ذكره، كما يشمل أيضاً (الناسخ والمنسوخ) و(الراجع والمرجوح) من الحديث.

وعلم اختلاف الحديث من العلوم الهامة التي تحتاج إلى ثقافة تجمع بين الحديث والفقه، ولذلك يقول ابن الصلاح: (وإنما يكمل للقيام به الأئمة الجامعون بين صناعة الحديث والفقه، والغواصون في المعاني الدقيقة).

ويقول غيره: (هذا من أهم الأنواع، ويضطر إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف، وهو أن يأتي حديثان متضادان في المعنى ظاهراً فيوفق بينهما أو يرجح أحدهما. وإنما يكمل له الأئمة الجامعون بين الحديث والفقه، والأصوليون الغواصون على المعاني).

والمصنفون في (علم اختلاف الحديث) قليلون، ولا نعلم أحداً ألف فيه قبل الإمام الشافعي رضي الله عنه (ت ٢١٤هـ)، ثم ألف فيه ابن قتيبة (ت ٢٦٣هـ)، وأبويحيى زكريا بن يحيى الساجي (ت ٣٥٧هـ)، ثم أبو جعفر الطحاوي: أحمد بن محمد بن سلامة (ت ٣٢١هـ).

ولا شك أن مناقشات كانت تدور حول الأحاديث المتعارضة قبل عصر الإمام الشافعي. وأن اجتهاد الصحابة ومن بعدهم في تأويلها ورفع التعارض بينهما بصورة ما كان أحد أسباب اختلاف العلماء، إلا أنني لم أعر على مؤلف فيها قبل الإمام الشافعي، الذي ذكر في كتابه (الأم) أبواباً اختلف فيها علي وابن مسعود، وأبواباً اختلف فيها الشافعي مع مالك وهذه الأبواب تصلح أمثلة لاختلاف الحديث الذي أفرده الشافعي بمؤلف مستقل (ولم يقصد استيفاء بل ذكر جملة منه ينبه بها على طريقته)^(١).

*
**

(١) راجع (أبو جعفر الطحاوي وأثره في الحديث) للمؤلف، ص ٢٥٧ - ٢٧٨، في بيان منهج هذه الكتب ونماذج منها وموازنة بينها.

(د) الجرح والتعديل

وهو فرع من أهم الفروع في علوم الحديث، وهو يعني بمعرفة رواية الحديث ويبحث تاريخهم ووفياتهم، وما قيل فيهم جرحاً أو تعديلاً. فهو يبين من الرواة (من هو في الثقة والتثبت كالسارية، ومن هو في الثقة كالشباب الصحيح الجسد، ومن هو ليّن كمن يوجعه رأسه وهو متماسك ويُعدُّ من أهل العافية، ومن صفته كمحموم تَرَجَّحَ إلى السلامة، ومن صفته كمريض شعبان من المرض، وآخر كمن سقطت قواه ثم أشرف على التلف)^(١).

وقد صنّف العلماء كتباً كثيرة في الرجال ما بين تاريخ عام، وتاريخ الثقات، وتاريخ الضعفاء والمدلسين، وأسماء الرواة وكناهم وألقابهم، والأسماء المتشابهة وغيرها ومن أهم هذه الكتب «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني، ولسان الميزان، له أيضاً، وميزان الاعتدال للذهبي، وتذكرة الحفاظ له أيضاً، وكل هذه الكتب مطبوعة.

ألفاظ الجرح والتعديل^(٢) :

للعلماء الحديث ألفاظ يصفون بها الراوي تدل على مرتبته في الرواية تعديلاً أو جرحاً.

(١) الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ ص ١٦٣ - ١٦٨.

(٢) انظر: تدريب الراوي ٣٤١/١ وما بعدها، ومقدمة كتاب الجرح والتعديل

لابن أبي حاتم، وللزميل رفعت فوزي بحث جيد عن ابن أبي حاتم وأثره في علوم الحديث وهو رسالته للماجستير.

وقد وضع ابن أبي حاتم ألفاظ التعديل في أربع درجات تدل على مرتبة الراوي، وتبعه ابن الصلاح والنووي، وجعلها الذهبي خمسة، وابن حجر العسقلاني ستة وإليك ألفاظ التعديل:

١ - أعلاها قولهم: أوثق الناس وأثبت الناس، وإليه المنتهى في التثبيت، ومَنْ مثل فلان، ونحو هذا.

٢ - ثقة ثقة، أو ثقة حجة، أو ثقة حافظ.

وهذه مراتب من يحتج بحديثهم.

٣ - ثقة، أو متقن، أو حجة، أو عدل حافظ.

٤ - صدوق، محله الصدق، مأمون، لا بأس به. وهذه درجة من يكتب حديثه وينظر فيه.

٥ - شيخ، حسن الحديث، صدوق يهيم، فيكتب وينظر.

٦ - صالح الحديث، ومثله يكتب حديثه للاعتبار، ومثلها: صدوق إن شاء الله، ومقبول.

أما ألفاظ الجرح فهي على حسب مراتبها:

١ - أولها ما يقرب من التعديل، وهو قولهم: لئِن الحديث، فيه مقال، سيئ الحفظ.

وهذه المرتبة يكتب حديث أصحابها وينظر فيه اعتباراً.

٢ - ليس بقوي، ويكتب حديثه للاعتبار.

٣ - ضعيف الحديث. ولا يطرح حديثه بل يعتبر به أيضاً. ومنه منكر الحديث.

٤ - متروك الحديث، واهي الحديث، مردود الحديث، ضعيف جداً.

٥ - متهم بالكذب أو بالوضع .

٦ - كذاب، يكذب، دجال، وضاع، وضع حديثاً .

والدرجات الثلاث الأخيرة لا يكتب حديثها ولا يعتبر به ولا يستشهد .

*
**

«آداب المحدث وشروطه»

علم الحديث علم ديني، ولهذا ينبغي لمن يشتغل به، سواء كان شيخاً أو طالباً - أن يخلص النية في طلبه، وأن يُطهِّر قلبه من أية غاية دنيوية، وأن يعمل بما يحفظه من الحديث، يقول ابن الصلاح: (علم الحديث علم شريف يناسب مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وينافر مساوئ الأخلاق ومشايين الشيم. وهو من علوم الآخرة لا من علوم الدنيا، فمن أراد التصدي لإسعاد الحديث أو لإفادة شيء من علومه فليقدم تصحيح النية وإخلاصها، وليطهر قلبه من الأغراض الدنيوية وأدناسها، وليحذر بليّة حب الرياسة ورعوناتها)^(١).

فإن كان شيخاً فينبغي له ألا يحدث بحضرة من هو أولى منه بذلك، وإذا سئل عن شيء ويعلم أن غيره أكثر إفادة للسائل فيما سأل فعليه أن يرشد السائل إليه، فإن الدين النصيحة. وإذا أراد أن يحدث فعليه أن يتوضأ ويجلس متمكناً بوقار وهيبة، وقد كان الإمام مالك يفعل ذلك ويقول: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ. وعليه أن يفتح المجلس بالقرآن والذكر والدعاء ويختمه بذلك، وعليه أن يتأكد أن صوته يصل إلى الجميع إما مباشرة أو بواسطة مستمّلٍ أو مكبر للصوت مثلاً، ويشي على شيخه ويدعو له، وإذا كان يملي على الطلبة فعليه أن يمكنهم من مقابلة نسخهم على نسخته للتأكيد والإتقان، وإصلاح ما قد يوجد من خطأ بسبب القلم أو السماع، ولا يجلس المحدث للإسماع إلا إذا كان مثقفاً ثقافة دينية ولغوية. ولهذا قال

(١) التقييد والإيضاح ص ٢٤٣، وتدريب الراوي ١٤٠/٢ وما بعدها تحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف الطبعة الثانية - دار الكتب الحديثة بعابدين.

الرامهرمزي: إن المحدث لا يجلس للإسماع إلا إذا بلغ من العمر أربعين أو خمسين سنة، ولعله اشترط هذا حتى تمكنه هذه السنون الطوال من التزود بما ينبغي له من أنواع العلوم، إلا إذا نبغ في سن مبكرة فلا مانع من أن يجلس للتحديث، كالإمام مالك والإمام الشافعي.

وإن كان طالباً للحديث: فعليه أن يوقر شيخه، ولا يثقل عليه حتى يضجره، وأن يسمع من أهل بلده ثم يرحل إلى خارجها للاستفادة من علماء الأقطار، وعليه أن يدل زملاءه على موضع الإفادة ليستفيدوا كما استفاد، ومن كتم عن غيره لينفرد به عنهم كان جديراً بالآئنتفع به، وذلك من اللؤم الذي يقع فيه جهلة الطلبة الوضعاء، كما يقول ابن الصلاح^(١)، ولا يكن ممن يمنعه الحياء أو الكبر عن الاستفادة، سواء كان الذي يفيد شيخاً أو زميلاً له أو أقل منه. وعلى الطالب أن يتتقف بالثقافة الحديثية رواية ودراية، وليكن كلما مر به اسم مشكل أو كلمة مشكلة بحث عنها وأودعها قلبه فإنه يجتمع له بذلك علم كثير في بصره وليكن تحفظه للحديث على التدرج قليلاً قليلاً مع الأيام والليالي، فذلك أحرى أن يمتع بمحفوظه، قال الزهري: من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين. ثم عليه أن يذاكر غيره بما حفظه، وفي هذا يقول علقمة: تذاكروا الحديث فإن حياته ذكره. ويقول إبراهيم النخعي: من سره أن يحفظ الحديث فليحدث به ولو أن يحدث به من لا يشتهيه.

وعلى المحدث وطالب الحديث أن يشتغل بالتأليف والتصنيف إذا كمل استعداداه، فإن هذا كما يقول الخطيب البغدادي^(٢): (يثبت الحفظ، ويذكي

(١) التقييد والإيضاح ص ٢٥٢.

(٢) كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب ٣٣٧/٢، تحقيق د. محمد رأفت سعيد طبع الكويت.

القلب، ويشحذ الطبع، ويبسط اللسان، ويجيد البيان، ويكشف المشتبه ويوضح الملتبس، ويكسب أيضاً جميل الذكر، ويخلّده إلى آخر الدهر، وقل ما يسهر في علم الحديث ويقف على غوامضه، ويستبين الخفي من فوائده إلا من فعل ذلك.

ثم ليحذر أن يخرج إلى الناس ما يصنّفه إلا بعد تهذيبه وتحريره وإعادة النظر فيه.

* * *

وبهذا نكون قد انتهينا من التعريف بعلوم الحديث، وهي المقدمة لهذا الكتاب، وأشرع الآن في المقصود الرئيسي فيه، وهو أمثال الحديث، والله أسأل العون والتوفيق.

*
**

نظراتٌ في
أعمال الخيرية

تمهيد

نتعرف في هذا التمهيد على معنى المثل، وأنواعه، والمؤلفات فيه،
ومنهجنا في تناول أمثال الحديث:

معنى المثل:

في كشاف^(١) اصطلاحات الفنون أن المثل - بفتح الميم والثاء - في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منه إلى القول السائر، أي الفاشي المُمَثَّل مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ. وهو من المجاز المركب.

وفي لسان العرب أن (مثل) كلمة تسوية. يقال هذا مِثْلُه ومَثَلُه - بكسر الميم وسكون الثاء في الأول وفتحهما في الثاني - أي شِبْهُه وشَبَّهه بمعنىً. والفرق بين المماثلة والمساواة، أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين؛ لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار، لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين، تقول نحوه كنحوه، ولونه كلونه، وطعمه كطعمه. فإذا قيل هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يسد مسده، وإذا قيل هو مثله في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون جهة. ثم ذكر أن المثل يكون بمعنى الصفة وبمعنى الآية والعبرة.

وذكر ابن العربي أن (المِثْل) بفتح الميم والثاء، و(المِثْل) بكسر الميم وفتح الثاء - عبارة عن تشابه المعاني المعقولة، وأن (المِثْل) بكسر فسكون -

(١) للتهانوي محمد علي بن محمد حامد الفاروقي، ١٣٤٠/٤، طبع ليز ١٩٦٢م.

عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة، وقد يدخل أحدهما على الآخر^(١).

ونقل الميداني عن المبرد أن (المثل) قول سائر يُشَبَّه به حال الثاني بالأول، مأخوذ من المِثَال. والأصل فيه التشبيه، فقولهم: مَثَل بين يديه، أي وقف مشبهاً الصورة المنتصبة، وفلان أمثل من فلان، أي أشبه بماله من الفضل - فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول ومن هنا سميت الحِكم القائم صدقها في العقول أمثالاً، لانتصاب صورها في العقول، مشتقة من المثل الذي هو الانتصاب^(٢).

ويقرر أبو هلال العسكري أن كل حكمة سائرة تسمى (مثلاً). وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يُتمثل به، إلا أنه لا يتفق أن يسير، فلا يكون مثلاً^(٣).

وهذا يعني أن الشيوخ والانتشار وكثرة الدوران على الألسنة هو ما يفرق بين الحكمة والمثل: فالقول الصائب الصادر عن تجربة يسمى حكمة إذا لم يتداول ويسمى مثلاً إذا كثر استعماله وشاع أداؤه في المناسبات المختلفة، ويعرف حينئذٍ بأنه القول السائر الذي يُشَبَّه به حال الثاني بالأول، أو الذي يشبه مضربه بمورده، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، وبالمضرب الحالة المُشَبَّه التي أريدت بالكلام.

وهذا التعريف مقصور على نوع من الأمثال، وهي الأمثال السائرة، وهو

(١) شرح ابن العربي على الترمذي ٢٩٥/١٠.

(٢) الأمثال للميداني أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المتوفى ٥١٨هـ -

٥/١، المطبعة الخيرية ١٣١٠هـ.

(٣) جمهرة الأمثال، لأبي هلال حسن بن عبد الله العسكري المتوفى ٣٩٥هـ، ٥/١

على هامش مجمع الأمثال.

المعنى المتبادل عند إطلاق كلمة الأمثال، لكنه لا يتناول النوع الذي يستعمل فيه لفظ (المثل) لتشبيه معقول بمحسوس أكثر وضوحاً، وهو المعروف بالمثل القياسي كما سيأتي .

أنواع المثل :

ذكر الباحثون له أنواعاً ثلاثة^(١).

١ - النوع الأول: المثل الموجز السائر: وهو إما شعبي، لا تعمّل فيه ولا تأنق ولا تقيد بقواعد النحو، وإما كتابي صادر عن ذوي الثقافة العالية كالشعراء والخطباء، كقولهم: (رُبَّ عجلة تهب ريثاً) أو (كالمستجير من الرمضاء بالنار). ومما جاء في الحديث من هذا النوع قوله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» وكثير غيره مما سنعرض له في حينه إن شاء الله تعالى .

٢ - المثل القياسي: سرد وصفي أو قصصي أو صورة بيانية، لتوضيح فكرة ما، عن طريق التشبيه والتمثيل^(٢)، ويسميه البلاغيون التمثيل المركب، فإنه تشبيه شيء بشيء لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين

(١) انظر: أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري، تأليف نور الحق تنوير ص ٢٢ - ٣٤ ومراجعته، وهي رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم ومكتبة جامعة القاهرة.

(٢) في كشف اصطلاحات الفنون (٤/١٣٤٤) أن التمثيل عند أهل البيان يطلق على معانٍ: منها المجاز المركب، والتشبيه، وقسم من التشبيه وهو الذي وجهه منتزع من متعدد، وعند عبد القاهر التشبيه الذي وجهه عقلي غير حسي منتزع من متعدد. اهـ. وليس بلازم عنده أن يكون منتزعاً من متعدد ثم إن من الأوجه العقلية عنده ما لا يكون مثلاً (يراجع أسرار البلاغة).

إلى الآخر، أو اعتبار أحدهما بالآخر، لغرض التأديب والتهذيب أو التوضيح والتصوير، وهذا النوع فيه إطناب إذا قورن بسابقه، ويجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير.

٣ - المثل الخرافي: هو حكاية ذات مغزى على لسان غير الإنسان، لغرض تعليمي أو فكاهي وما أشبه ذلك. كقولهم: (أُكَلْتُ يومَ أُكَلِ الثور الأبيض).

فالفرق بين المثل الخرافي والمثل القياسي، أن الأول تنسب الأحاسيس الإنسانية فيه إلى غير الإنسان من حيوان أو طير أو غيرهما. أما القياسي فالحيوانات فيه - إن استخدمت - لا تعدو أن تكون مجرد توضيح للفكرة، دون أن تتعدى القوانين التي يخضع لها نوعها.

والمثل الخرافي يرمز إلى الأشياء، أي يقال شيء ويراد منه شيء آخر، أما القياسي فيراد بالأشياء المذكورة فيه توضيح الفكرة عن طريق التشبيه والتمثيل.

ضَرْبُ المَثَلِ:

ضرب الله سبحانه لعباده الأمثال، وضرب الرسول ﷺ لأمته الأمثال. ويضرب الحكماء والعلماء والمؤدبون الأمثال. فما معنى ضرب المثل؟

قد يكون مشتقاً من قولك (ضَرَبَ في الأرض) إذا سار فيها، فمعنى ضرب المثل جعله ينتشر ويذيع ويسير في البلاد، وإلى هذا ذهب أبو هلال في مقدمة كتابه (جمهرة الأمثال).

وقد يكون معنى (ضرب المثل)، نصبه للناس بإشهاره لتستدل عليه خواطرهم، كما تستدل عيونهم على الشيء المنسوب، واشتقاقه حينئذٍ من

قولهم: (ضربت الخباء) إذا نصبته وأثبت طُنْبَهُ^(١). وقوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، أي ينصب منارهما ويوضح أعلامهما، ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه، كما قال الشريف الرضى في كتابه (تلخيص البيان في مجازات القرآن).

وقد يفهم من ضرب المثل صنعه وإنشاؤه، فيكون مشتقاً من ضَرَب اللِّبْنِ وضرب الخاتم.

أو قد يكون من الضرب بمعنى إيقاع شيء على شيء، ومنه ضرب الدراهم، أي إيقاع النموذج الذي به السِّكُّ على الدراهم لتطبع به. فكأن المثل مطابق للحالة أو للصفة التي جاء لإيضاحها.

أهمية المثل في الكلام:

للمثل في الكلام مكانة هامة ووظيفة لا تنكر فائدتها، فله تأثير عجيب في الأذان، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان. قال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكفاية، فهو نهاية البلاغة.

وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس، لتقريب المراد، وتفهم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثل الذي مُثِّلَ به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير.

ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق - أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ضُرِبَتْ لها الأمثال ازداد

(١) هو الحبل يشد به الخباء والسرادق جمعه أطباق.

المعنى ظهوراً ووضوحاً. فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولبّه وثمرته^(١).

التأليف في الأمثال:

ولمكانة الأمثال وأهميتها اهتم العلماء بالتأليف فيها قديماً وحديثاً حيث جمعوها ورتبوها وشرحوا غريبها، وبيّنوا القصص التي صدرت عنها، والمناسبات التي تضرب فيها وتحكى، وليس من غايتنا استقصاء المؤلفات فيها، إنما الإشارة إلى بعضها، وبخاصة ما يتعلق منها بأمثال القرآن وأمثال الحديث:

فمنها: جمهرة الأمثال، للعسكري (أبي هلال حسن بن عبد الله ت ٣٩٥هـ) رتبه على حروف المعجم.

ومنها: مجمع الأمثال، للميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ت ٥١٨هـ) جمع فيه نيفاً وستة آلاف مثل، رتبها على حروف المعجم كذلك.

ومنها: المستقصى للزمخشري.

ومنها: أمثال القرآن، للجنيد بن محمد القواريري (ت ٢٩٨هـ).

ومنها: أمثال القرآن، لنفطويه (ت ٣٢٣هـ).

ومنها: أمثال القرآن، لمحمد بن الحسين السلمي (٤١٢هـ).

ومنها: رسالة في أمثال القرآن، مع شرح وروضات الأمثال، لأحمد بن عبد الله الكوز كفاني، طبع فارس سنة ١٣٢٤هـ.

(١) أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ٢٩١/١ مطبوع مع حادي الأرواح، له أيضاً مطبعة النيل بمصر.

ومنها: الأمثال القرآنية، لعلي بن محمد الماوردي (٤٥٠هـ).

ومنها: أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري، لنورالحق تنوير، وهي رسالته للماجستير، مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم ومكتبة جامعة القاهرة.

ومنها: أمثال القرآن، للدكتور محمود بن الشريف طبع دار المعارف بمصر.

ومنها: الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى، للدكتور عبد المجيد عابدين.

أما أمثال الحديث: فلم تحظَ بالعناية التي نالتها أمثال القرآن أو الأمثال العربية بعامه، ولم أرَ أحداً من أصحاب الكتب الستة أفردَها بالتأليف، أو أفرد لها باباً في كتابه سوى الإمام الترمذي الذي خصص لأمثال الحديث مكاناً في جامعته تحت عنوان: (أبواب الأمثال عن رسول الله ﷺ)، لكنه لم يذكر تحت هذا العنوان غير أربعة عشر حديثاً، ولهذا يقول ابن العربي: (ولم أرَ أحداً من أهل الحديث صنف فأفرد لها باباً غير أبي عيسى - يعني الترمذي - والله درّه، لقد فتح باباً، أو بنى قصرأً أو دارأً، ولكن اختط خطأً صغيراً، فنحن نقنع به ونشكره عليه)^(١).

ويشير ابن العربي بقوله هذا إلى ما ذكره الترمذي من الأمثال قليل جداً بالنسبة لما روي عن النبي ﷺ فيها، فقد روى ابن خلد^(٢) بسنده عن ابن عمر قال: (حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل) ومع أن ابن العربي^(٣) قد

(١) الترمذي بشرح ابن العربي ٢٩٥/١٠.

(٢) في مقدمة كتابه أمثال الحديث الذي سنشير إليه قريباً.

(٣) الترمذي بشرح ابن العربي ٢٩٦/١٠.

حكم على هذا الأثر بعدم الصحة، لكنه يدل بصورة واضحة على كثرة الأمثال المروية عن النبي ﷺ.

أما البخاري فإنه لم يخصص مكاناً للأمثال الحديث، لكنه بعد أن ذم القياس في عدة تراجم، رد على من يستدل للقياس ببعض الأحاديث التي فيها تشبيه وتمثيل، مبيناً أنه لا حجة لهم فيها فقال: (باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين قد بين الله حكمها ليفهم السائل). وقد علق السندي على هذه الترجمة بقوله: (والمطلوب تشبيه المجهول على المخاطب بالمعلوم عنده، مع أن كلاً منهما معلوم عند المتكلم بدون هذا التشبيه، وإنما يشبه لتفهم السائل المخاطب والتوضيح عنده، لا لإثبات الحكم كما يقول به أهل القياس، فهذا جواب عن أدلة مثبتة القياس بأنه ما جاء من القياس كان للإيضاح والتفهم بعد أن كان الحكم ثابتاً في كل من الأصليين، ولم يكن لإثبات الحكم)^(١). وعلى كل فلم يذكر البخاري تحت هذه الترجمة سوى حديثين.

ومن المحدثين الذين أفردوا أمثال الحديث بالتأليف أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، له (كتاب أمثال الحديث المروية عن رسول الله ﷺ). وهو كتاب صغير، احتفظ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بميكروفيلم له تحت رقم ٩٤ حديث^(٢).

يقول ابن خلاد في مقدمة هذا الكتاب: (هذا ذكر الأمثال المروية عن رسول الله ﷺ، وهي على خلاف ما رويناها من كلامه المشاكل للأمثال المذكورة عن متقدمي العرب، فإن تلك تقع مواقع الإفهام باللفظ المجمل الموجز، وهذه بيان وشرح وتمثيل، يوافق أمثال التنزيل، التي وعد الله

(١) البخاري بحاشية السندي ٢٦٣/٤، ٢٦٤.

(٢) حققته أمة الكريم القرشية، وطبع بحيدرآباد - باكستان سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

عز وجل بها وأوعد، وأحل وحرم، ورجى وخوف، وفزع بها المشركين، وجعلها موعظة وتذكيراً، ودل على قدرته مشاهدة وعياناً، وعاجلاً وآجلاً، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

ويشير ابن خلاد في هذا المقدمة إلى أن الأمثال الماثورة عن النبي ﷺ، منها ما يندرج تحت النوع الأول – وهو المثل الموجز السائر، ومنها ما يدخل تحت النوع الثاني – وهو المثل القياسي، الذي هو موضوع كتابه هذا، كما يشير إلى أن أمثال الحديث توافق أمثال القرآن في القصد والغاية .

وقد ذكر الميداني في مقدمة كتابه (مجمع الأمثال) أن للعسكري كتاباً في أمثال الحديث، فقال: (وأما الكلام النبوي من هذا الفن، فقد صنف العسكري^(١) فيه كتاباً برأسه، ولم يأل جهداً في تمهيد قواعده وأساسه).

وقد خصص الميداني في آخر كتابه السابق فصلاً للكلام النبوي المندرج تحت المثل الموجز السائر، جمع فيه ثمانية وخمسين حديثاً ذهبت مذهب الأمثال في اختصارها وبلاغتها، وساقها بدون أسانيد، ومن غير تخريج لها من كتب السنة، ودون أن يبين الظروف التي قيلت فيها.

ولأبي عروبة، الحسين بن محمد بن أبي معشر الحراني، المتوفى سنة ٣١٨ هـ كتاب الأمثال السائرة، عن رسول الله ﷺ، وكما جاء في تاريخ التراث العربي لفؤاد سرجين ٤٤٢/١ .

(١) قال الكتاني في (الرسالة المستبصرة ص ٤٢) (ولأبي الحسن علي بن سعيد بن عبد الله العسكري (عسكر سامرا) نزيل الري الحافظ المتوفى سنة خمس وقيل سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة . وكتابه الأمثال جمع فيه ألف حديث شتملة على ألف مثل عن النبي ﷺ، وهكذا فعل أبو أحمد العسكري في أمثاله).

وأبو أحمد هو الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل بن زيد بن حكيم اللغوي العسكري نسبة إلى عسكر مكرم، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ .

وقد ذكر ابن حجر في (فتح الباري ١٧٨/٥ - ١٧٩) أن لابن منده وأبي الشيخ مؤلفاً في الأمثال^(١).

منهجنا في عرض أحاديث الأمثال:

تقدم أن المثل ينقسم إلى مثل قياسي، ومثل موجز سائر. وسيهتم هذا البحث بالمثل القياسي الذي يكون فيه لفظ الحديث (مثل كذا كمثل كذا) أو قريباً من هذا اللفظ. أما الموجز السائر فاكْتَفَى البحث بعرض أمثلة له عقب استيفاء النوع الأول، ورأى أن من الفائدة تخريج الأحاديث التي سردها الميداني في آخر كتاب (مجمع الأمثال) تحت عنوان (الباب الثلاثون في نبد من كلام النبي ﷺ وخلفائه الراشدين)، وكلها من قبيل المثل الموجز السائر.

أما المثل القياسي - وهو موضوع اهتمام البحث - فسأتناول كل حديث منه بشرح التشبيه البياني فيه، تحت عنوان. (بيان التمثيل في الحديث)، مع ملاحظة أن التمثيل في الحديث مقصود به مطلق التشبيه، أعم من أن يكون من قبل التمثيل الاصطلاحي - وهو ما كان وجه الشبه فيه متعدداً أو مفرداً.

ثم أعقب على هذا بشرح ما غَمَضَ من مفردات، ثم أبسط معاني الحديث أو ما تيسر لي منها، مراعيًا الربط بينها وبين ما جاء في معناها من آيات قرآنية، إذ الواقع أن الحديث ما هو إلا شرح للقرآن^(٢) وبيان له، وكثيراً

(١) أبو الشيخ الأصبهاني هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان (ت ٣٦٩هـ) وقد حقق كتابه في الأمثال الدكتور عبد العلي عبد الحميد، وطبع بالهند سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٢) يقول الزركشي في النوع الأربعون من كتابه البرهان في علوم القرآن ١٢٧/٢ (اعلم أن القرآن والحديث أبداً متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة، حتى أن كل واحد منهما يخصص عموم الآخر ويبين إجماله. ثم منه ما هو ظاهر ومنه ما يغمض)، وقد اعتنى بإفراد ذلك بالتصنيف الإمام أبو الحكم بن برحان في كتابه المسمى «الإرشاد».

ما نجد في نص حديثٍ ما تعقياً عليه من الرسول ﷺ، أو من الراوي بقوله: «اقرأوا إن شئتم قوله تعالى...»، تأكيداً لما بين السنة والقرآن من ارتباط، ودلالة على وظيفة السنة بالنسبة للقرآن، كالحديث الذي جاء في صلة الرحم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب قال: فهو لك. قال رسول الله ﷺ فاقرأوا إن شئتم:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾^(١).

ومثل هذا كثير أجمعه إن شاء الله تعالى.

وقد أضع من أجل هذا آية قرآنية عنواناً على الحديث، وسألني في هذا هو الإمام البخاري رضي الله عنه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فقد راعى الارتباط بين القرآن والحديث تمام المراعاة، وترجم الكثير من كتبه وأبوابه في الصحيح بآيات قرآنية.

وقد أعرض لبعض المباحث الفقهية في نهاية الحديث، إن كان فيه ما يتعلق بالفقه.

ومما يذكر أن الذين ألفوا في أمثال الحديث – على قلتهم – اكتفوا

وفي الهامش: هو الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام الإشبيلي المعروف بابن برحان، أحد أئمة اللغة والنحو في زمانه (ت ٦٢٧)، كما ذكره السيوطي في بغية الوعاة ٣٠٦، وكتابه الإرشاد في تفسير القرآن منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عن فيض الله، ومنه أيضاً قطعة في المكتبة التيمورية.

(١) صحيح البخاري ٩/٨ مطابع الشعب – والآية هي ٢٢ من سورة محمد.

بسردها ولم يتعرضوا لشرحها، فيما عدا ابن خلّاد الذي ذكر قليلاً منها، واهتم بشرح مفرداتها وعباراتها وإن كان الجزء الأخير من كتابه لا علاقة له بالأمثال، وإنما هي أبواب في نعت الدنيا والقبائل، والخيل، والسحاب، ثم مفردات. وتسهيلاً للبحث جمعت أحاديث الأمثال في مجموعات بحسب موضوعاتها.

١ - المجموعة الأولى: في الدعوة إلى الله، وفيها يتجلّى حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على هداية الناس ورحمته بهم وإشفاقه عليهم، وتنوعه الصور التي يبيّن لهم بها عاقبة كل من المطيع والعاصي.

٢ - المجموعة الثانية: فيها بيان لمكانة الأمة الإسلامية، وبيان القيم التي تركز عليها.

٣ - المجموعة الثالثة: في بيان وصف المؤمن والمنافق.

٤ - المجموعة الرابعة: في بيان فضل القرآن وبعض العبادات.

٥ - المجموعة الخامسة: في بيان وظيفة الدنيا وغايتها وموقف الإسلام منها.

ثم تأتي بعد ذلك أمثلة للمثل الموجز السائر من الحديث كما أوضحت من قبل.

وأرجو أن أكون قد وفقت في بعض ما قصدت إليه وأسأل الله سبحانه أن ينفع به وأن يغفر لي ما أكون قد أخطأت فيه:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

وهو حسبي ونعم الوكيل.

**

المجموعة الأولى
في الرحمة إلى الله

دين التوحيد والوحدة

قال البخاري في (باب خاتم النبيين):

١ — حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي . كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا لَبِنَةً مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: أَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

وروى البخاري هذا الحديث بطريق أخرى عن جابر، باختلاف يسير، ونصها:

(حدثنا محمد بن سنان، حدثنا سليم، حدثنا سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة».)

وقد روى الترمذي هذا الحديث بهذا الطريق الثاني، مبدوءاً بكلمة (إنما مثلي) ومضيفاً كلمة (قبلي) بعد (الأنبياء)، وكلمة (منها) بعد (يتعجبون). ثم علق عليه الترمذي بقوله: (وفي الباب عن أبي بن كعب، وأبي هريرة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه)^(١). والرواية الأولى أتم وأكمل.

* * *

(١) انظر: صحيح البخاري ١٨٦/٤ طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٢ هـ، وفتح =

بيان التمثيل في هذا الحديث :

يشبه الرسول ﷺ - إرسال الله سبحانه وتعالى الأنبياء وبعثته الرسل في تتابع وتناسق وتلاقٍ في الأصول العقائدية والخلقية العامة، وتطابق في الهدف، منذ آدم إلى قبيل بعثته ﷺ ثم بعثته - برجل بنى بيتاً لما يكتمل، أودع فيه من الإبداع والتجميل والتنسيق، ما يجعله قميناً بأن يروع الناظر وينتزع إعجاب المتأمل غير أن الإعجاب الكامل بهذا البناء لم يتم بسبب نقصه وعدم إكماله، مما حمل المقدرين لجلال البناء وروعته إلى أن يتموا إكماله، ويستحوا تمامه. فلما اكتمل البناء كمل الإعجاب.

ووجه الشبه: هو الوحدة والتناسق والارتباط الوثيق والإكمال بعد النقص عند الإحساس بالحاجة إليه.

ما يستفاد من الحديث :

خشي ابن العربي أن يوهم تشبيه النبي ﷺ نفسه بلبنة في دار، ضالة قدره بالنسبة لمن سبقه من الأنبياء، فقال: (إذا تأمل المتفطن هذا الحديث رأى أن قدر النبي ﷺ في الخلق أعظم رفعة وأكرم وفوراً من لبنة في حائط)، وبعد أن سلم بصحة الحديث هداه تفكيره إلى أن هذه اللبنة كانت في الأساس، ولولا كونها في هذا الأساس لانقضى المنزل، لأنها القاعدة والمقصود^(١).

وأرى أن الحاجة ليست ماسة إلى هذا التأويل الذي لا يدل عليه نص

الباري ٤٠٧/٦ - ٤٠٨، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٢٢/٣ -

١٢٣، طبع دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م، والترمذي بشرح

ابن العربي ٣٠٢/١٠.

(١) ابن العربي على الترمذي ٣٠٢/١٠.

هذا الحديث، لأنه لم يرد في سياق المفاضلة بين الأنبياء، وبيان التفاوت في درجاتهم وإنما مساق الحديث لغير ذلك، ومن المعروف أنه يكتفي في التشبيه بوجود صفة أو صفات مشتركة بين المشبه والمشبه به ليتحقق وجه الشبه، ولا يلزم أن يشتركا في جميع الصفات.

إن هذا الحديث جاء ليؤكد أمرين:

أولهما: وحدة الأنبياء، وبالتالي وحدة الأديان السماوية.

وثانيهما: أن الحاجة كانت ماسة إلى بعثة محمد ﷺ، وأنه آخر النبيين فلا نبي بعده.

أما من حيث الأمر الأول وهو وحدة الأنبياء والأديان، فيفيده التشبيه ببناء الدار. يقول ابن خلد: إن العرب تمثل ما يبالغون فيه من الوثاقة والأصالة وأشباه ذلك بالبنيان. قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢) ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ (٣).

وقال الشاعر (عبرة بن الطيب) يذكر قيس بن عامر:

فما كان قيسٌ هلكه هلكٌ واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تصدعا

وقال آخر:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

ويؤكد الرسول ﷺ هذه الوحدة التي تنتظم الأنبياء جميعاً والتي تردهم

إلى أصل واحد وهدف واحد - عندما يشبههم بأولاد الضرائر «الأنبياء أولاد

(١) سورة الصف: الآية ٤.

(٢) سورة النازعات: الآيتان ٢٧، ٢٨.

علات أمهاتهم شتى وأبوهم واحد»، فهم إخوة ينتسبون إلى أب واحد على الرغم من اختلاف الأمهات، مشيراً بهذا إلى أن الأنبياء على الرغم من اختلاف شرائعهم التطبيقية التي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، إلّهم إله واحد، كلهم يدعون إلى إفراده بالعبودية والعبادة، ويحذرون من الإشراك به وينبهون الإنسان إلى أن دنياه ليست كل شيء فإن هناك بعثاً وآخرة وعقاباً وثواباً، وجنة وناراً، ويعالجون نوازع الشر في نفسه. ويطلقون فيها كوامن الخير، حتى يسعد الإنسان في الدنيا، ويثاب في الآخرة، أي أن كل الأديان كانت تلتقي عند أمرين: إصلاح العقيدة، وعلاج الانحرافات في الفرد والمجتمع.

واشترك الأنبياء في هذه الأصول عامة هو ما توضحه الآية الكريمة:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١).

فالدين الموحى به إلى أول نبي وآخر نبي ومن بينهما من الأنبياء — دين واحد.

ويقرر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في سورة الأنبياء فيقول: بعد أن ذكر طرفاً من قصصهم:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ (٢).

والأمة في القرآن جاءت بمعان متعددة، وهي هنا بمعنى الملة والدين (٣).

(١) سورة الشورى: الآية ١٣٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٣) وجاءت بمعنى الملة والدين أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: لما ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام. قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما^(١).

ويقول الزمخشري في تفسيرها: (الأمة: الملة، و (هذه) إشارة إلى ملة الإسلام، أي هي ملَّتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة، (وأنا ربكم) أي إلهكم إله واحد^(٢)).

ويؤكد الله سبحانه هذه الحقيقة بخطاب مباشر إلى الرسل جميعاً. بعد أن ذكر طرفاً من سيرتهم وأخبر أنه أرسلهم تترأ، متتابعين متقاربين، فقال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٥١، ٥٢].

فالأنبياء جميعاً يدينون بدين واحد، ويدعون إلى ملة واحدة. هذا الدين وهذه الملة هي الإسلام، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩].

والإسلام بمعنى الانقياد والإستسلام والخضوع لله وحده لا شريك له – ليس فقط دين الأنبياء الذي يدعون البشر جميعاً إليه، بل هو انقياد المخلوقات

(سورة الزخرف الآيتان: ٢٢، ٢٣) وبمعنى عدد من السنين في قوله تعالى: ﴿وادكر بعد أمة﴾ (سورة يوسف: الآية ٤٥)، وبمعنى الإمام المقتدى به ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ (سورة النحل: الآية ١٢٠)، وبمعنى إحدى الأمم المعروفة ﴿كنتم خير أمة﴾ (سورة آل عمران: الآية ١١٠).

(١) تفسير القرطبي ٣٣٨/١١.

(٢) الكشاف ٢٠/٣.

جميعاً إلى الله بما أودعه فيها من نظام دقيق تسير فيه على سنن كونية ثابتة لا تتخلف، بما يشهد بوحداية الله وعظمته وجلاله، ولهذا يستنكر القرآن أن يذلل الإنسان أو يخضع أو يستسلم أو يُستعبد لغير الله الذي خلقه فسواه فعدله، يستنكر أن يتخذ الإنسان الذي مُنح حق الاختيار ديناً غير الدين الذي تدين به السموات والأرض، وهو الإسلام لله تبارك وتعالى:

﴿ أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨٣].

إن الإسلام دين الأنبياء جميعاً منذ نوح عليه السلام الذي قال:

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس: الآية ٧٢].

وإبراهيم أبي الأنبياء - عليه وعليهم الصلاة والسلام - الذي تضرع إلى ربه أن يجعله مسلماً، وأن يجعل من ذريته أمة مسلمة لله:

﴿ وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٧ - ١٢٨].

ولهذا امتن الله علينا بهذا الدين الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام

فقال:

﴿ مَلَّةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [آخر آية في سورة

الحج].

ومن ينحرف عن هذه الملة فهو السفیه الذي طاش صوابه؛ لأنها ملة من

أسلم وجهه لله: ولقد وصَّى إبراهيم بها، ووصَّى أحفاده بنهم بها، يقول الله

= في تقرير هذه الحقيقة:

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٥﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُنَا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُنَا وَجَدْنَا وَإِنَّا لَمُسْلِمُونَ ﴿١٢٦﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٠ - ١٣٣].

فالإسلام هو دين الله منذ خلق الخلق، وهو دين الأنبياء جميعاً بما فيهم موسى وعيسى، أما اليهودية والنصرانية فقد بعدا عن دين الله بعد أن شوَّهما الأحرار والرهبان والمجامع، وعكَّرت يدُ البشر صَفَوَ الوحي الإلهي بالتحريف والزيادة والنقصان، وبعد أن أصبح مفهوم الدين فيهما دعوة عنصرية لا ديناً إنسانياً، ولهذا رفض القرآن في مجادلته لليهود والنصارى دعوتهم المسلمين إلى اعتناق اليهودية أو المسيحية، ورد عليهم بأن الإسلام هو عودة بالدين إلى فطرته التي لا عوج فيها، إلى ملة إبراهيم الذي ما كان يهودياً ولا نصرانياً؛ لأنه وجد قبل اليهودية والنصرانية، إن المسلمين لا يدينون باليهودية ولا بالمسيحية، وما ينبغي لهم أن يدينوا بهما، ولكنهم يؤمنون بنبوَّة موسى وعيسى وما أنزل عليهما، بل يؤمنون بجميع الأنبياء من علموه ومنهم ومن جهلوه؛ لأن جميع هؤلاء الأنبياء كانوا يدينون بدين واحد، وهو الإسلام، دين أبيهم إبراهيم الذي وصاهم به. بهذا يأمرنا الله ويعلمنا كيف نرد على من يدعوننا إلى غير الإسلام، فيقول سبحانه عزَّ من قائل:

﴿ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ [سورة البقرة: الآية ١٣٥ - ١٣٦].

ويؤكد الله تبارك وتعالى وحدة الأنبياء هذه والتقاءهم على ملة الإسلام، معقباً عليها بأن كل دين غير الإسلام مرفوض لا أمل في قبوله من الله، فيقول تعالى في سياق محاجته أهل الكتاب:

﴿ أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمْتَابِ اللَّهِ وََمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ
رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ
يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿ [سورة آل عمران: الآية ٨٣ - ٨٥].

وتأكيداً لوحدة الأنبياء وما تربط بينهم من أخوة نهى النبي ﷺ عن المفاضلة بينهم؛ لأن مثل هذه المفاضلة تورث العصبية واللجاج، وقد تؤدي إلى الإضرار بالأنبياء والانتقاص من أقدارهم.

والقرآن الكريم في قصصه عن الأنبياء ذكر مواقف تعلن عن قصورهم وتنطق بضعفهم البشري وحاجتهم الماسة إلى عون الله، وحدث أن اتخذ بعض الصحابة من هذه المواقف مجالاً للموازنة والتخيير وتفضيل محمد ﷺ على من سبقه، فأرشدهم الرسول بتواضعه الجرم إلى أن هذه المواقف ليست دليلاً على مرجوحيتهم، وأنه لو كان مكانهم لفعل فعلهم. فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة وابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى^(١)، ومعلوم أن القرآن قصّ من خبر يونس أنه ضاق بقومه وأبّق إلى الفلك المشحون، فخشي النبي أن ينقصه أحد بسبب

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٥٥/٣ رقم ١٥٣٧، ١٥٣٩.

هذا. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾»، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي^(١)، وهذا تواضع منه ﷺ والتواضع لا يُصغَرُ كبيراً ولا يَضَعُ ربيعاً ولا يبطل لذي حق حقه، لكنه يدعوننا إلى أن لا نثير بالمفاضلة عصبيةً قد تؤدي إلى إنقاص قدر الأنبياء ومن هذا ما رواه الشيخان، عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار. قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر: قلت: أي خبيث على محمد ﷺ فأخذتني غصبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من ينشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق أم حوسب بالصعقة الأولى»^(٢).

فهذه الأحاديث تفيد ترك المفاضلة بين الأنبياء، لما تؤدي إليه من

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣/١٥٠ رقم ١٥٣٠، ونقل مؤلفه عن القسطلاني، عن الزركشي قال: (ذكر صاحب الأمثال السائرة أن (أفعل) تأتي في اللغة لنفي المعنى عن الشئين، نحو: الشيطان خير من زيد، أي لا خير فيهما، وكقوله تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ (سورة الدخان: الآية ٣٧) أي لا خير في الفريقين. فمعنى قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» لا شك عندنا جميعاً. وقوله: «إلى ركن شديد» أي إلى الله تعالى. وقوله: «لأجبت الداعي» أي لأسرعت الإجابة في الخروج من السجن، ولما قدمت طلب البراءة.

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٣/١٥٣ - ٥٥ حديث رقم ١٥٣٥.

أخطاء، ولكنها لا تنفي وجود المفاضلة بينهم، إلا أن المفاضلة ليست إلى الخلق ولكنها إلى الله . وقد قال تعالى :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣].

وقد قال الفخر الرازي في تفسيره^(١): (أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل)، ثم ذكر تسع عشرة حجة في تفضيل النبي ﷺ على عامة الأنبياء.

وإذا كان الإسلام هو دين البشرية الذي ارتضاه الله لها طول مسيرتها، ولم يقبل منها غيره، وشهد سبحانه بأنه لا دين أحسن منه:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٥].

فلا شك أن الدعوة إلى هذا الدين لها حظها العظيم من التقدير والتشريف، ولا شك أنه لا قول أحسن من قول من يدعو إلى أحسن دين.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٣].

أما الأمر الثاني الذي يؤكد هذا الحديث وهو أن الحاجة كانت ماسة إلى بعثة الرسول ﷺ، وأنه خاتم النبيين، فيتضح من استعراض حالة الأمم والشعوب قبل البعثة وما كانت تعانيه البشرية من جهل وبغي وظلم وشقاء، وتوقع كثير من المفكرين وأهل الكتاب أن يبعث النبي المنتظر، واستشراق

(١) مفاتيح الغيب ٢/٤٥١ - ٤٥٦. وانظر التوفيق بين ما جاء من النصوص مفيداً لوقوع

المفاضلة بين الأنبياء، وما جاء منها ناهياً عن المفاضلة في تفسير ابن كثير ٢/٢

- ٣ مطبعة المنار ١٣٤٣هـ، وفتح الباري ٦/٣٢٠.

فريق من العرب وأهل الكتاب إلى أن يكون هو النبي المختار.

ومعلوم أن الأديان السابقة كانت محدودة المكان والزمان، ولذا ما كان ينتهي عصر النبي منهم حتى تجدد الحاجة إلى نبي غيره، أما نبينا محمد ﷺ فدعوته عامة إلى الناس أجمعين، بل شملت دعوته الإنس والجن:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٨].
«وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

ومن مستلزمات النجاح للدعوة العامة أنها لا تتحدد بجنس ولا عنصر ولا مكان ولا زمان، بل هي تعلق فوق كل ذلك، وتخاطب الإنسان بالقدر المشترك بين كل إنسان، أي تخاطب الفطرة الإنسانية بما فيها من خصائص مشتركة لا تختلف باختلاف الجنس واللغة واللون والزمان والمكان، ولذا يقول تعالى في شأن الإسلام:

﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٠].

فتعاليم الإسلام تراعي فطرة الإنسان، وتغذي فيه جانب الروح والعقل والبدن ولا تهمل فيه أحد الجانبين.

ومن مستلزمات النجاح للدعوة العامة أن يكون برهانها عاماً وحجتها على صدقها في متناول كل إنسان في كل وقت وكل مكان، ومن هنا لم يكن من منهج الإسلام أن يقيم الدليل على صدقه بالمعجزات الخارقة للعادة، والتي كانت تتناسب مع الدعوات الخاصة، التي كانت تراعي عدم النضج في المشاعر والعقول، وإنما كان للإسلام أن يقيم برهانه على المنطق، وأن يخاطب العقل ويطلب باستعماله والاحتكام إليه، ولهذا يقول عليه الصلاة

والسلام: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه
البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً
يوم القيامة».

ومن مسلتزمات النجاح للدعوة العامة أن تتناول تنظيم العلاقات
الاجتماعية والدولية بما يحقق مبادئ العدل والمساواة والكرامة الإنسانية، وأن
تتسع قواعد هذا التنظيم للحاجات المتجددة، فيكون فيها من المرونة ما تعالج
به كل جديد، ولا تقف عقبه في طريق النمو والتقدم، مع احتفاظها بالثبات
بالنسبة لما هو ثابت في الإنسان من فطرته التي خلقه الله عليها. وقد عني
الإسلام بهذه المبادئ والتنظيمات الكلية وترك التفاصيل يجتهد الناس في
اختيار ما يناسبهم في كل بيئة وكل عصر مع مراعاة هذه القواعد الكلية. إن
الإسلام قد تضمن في ذاته عوامل نجاحه ومناسبته للإنسانية لا من الناحية
النظرية فحسب، ولكن من الناحية التجريبية كذلك، فقد أثبت التاريخ عظمة
هذا الدين وقوة تأثيره في التقدم والحضارة الإنسانية، وسيظل محتفظاً بخواصه
وقدرته على التأثير والتوجيه لا ينقصه إلا من يتحمس له ويبشر به.

وإذا كان في الإسلام الخصائص التي تجعله ديناً عالمياً يتخطى حدود
الزمان والمكان والجنس، فأى حاجة حينئذٍ إلى إرسال نبي بعد نبي
الإسلام؟ من هنا كان الإسلام هو خاتم الأديان، وكان النبي ﷺ خاتم
النبیین، به كَمُلَ البناء وسُدَّتْ الثُّغرة وقامت على الناس الحجة، وصدق الله
العظيم ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾.

إن الإسلام يعتبر الناس جميعاً إخوة، أبوهم واحد، ويعتبر الأنبياء
جميعاً إخوة أبوهم واحد، وإله الأنبياء والناس جميعاً إله واحد.. إن الإسلام
دين التوحيد والوحدة..

*
**

«وقل إني أنا النذير المبين»

٢ - عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِينِيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْنَجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا عَلَيَّ مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ وَاجْتَاكَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»^(١).

وقبل أن نقف وقفة مستأنية أمام هذا الحديث الجليل، نعرض لبيان مفرداته.

* * *

مفردات الحديث:

(بَعِينِيَّ) روي هذه الكلمة بالإفراد، أي بكسر النون وسكون الياء، وروي بالثنية، أي بفتح النون وتشديد الياء المفتوحة، وروايتها بالثنية أكثر مناسبة لتأكيد الرؤية.

(أنا النذير العُرْيَان) ذكر الميداني هذه الجملة في كتابه «مجمع

(١) هذه رواية مسلم (٤٨/١٥ - ٤٩ بشرح النووي)، رواه البخاري في (باب الانتهاء عن المعاصي) من (كتاب الرقاق) مع اختلاف يسير، ودون زيادة قوله: (فذلك مثل من أطاعني واتبع... إلخ الحديث. وانظر جامع الأصول، لابن الأثير ١/١٩٤ - ١٩٥.

الأمثال»^(١) وقال: إنها مثل يضرب في تحقق الخبر، وروى قصة في أول من قال هذا المثل، وروى ابن حجر^(٢) قصصاً أخرى له. وأنسب ما قيل فيه هو ما ذكره النووي^(٣) حيث قال: إن أصل هذا المثل أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيثة القوم - وهو طليعتهم ورفيقتهم - وإنما يفعل هذا ليكون أبين للناظر وأغرب وأشنع منظراً، فهو أبلغ في طلب سرعة التأهب للعدو.

وهذا الذي ارتضاه النووي قريب من تفسير ابن الأثير، وقريب مما ارتضاه ابن حجر، الذي أيده بما أخرجه الرامهرمزي في الأمثال - وهو عند أحمد أيضاً - بسند جيد، وهذا السند الذي أشار إليه ابن حجر هو كما جاء في كتاب الأمثال للرامهرمزي، قال: (حدثنا محمد بن الحسن بن شجاع الحضرمي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا ابن المهاجر، قال: حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم، فنادى ثلاث مرات: إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً أن يأتيهم فبعثوا رجلاً يترباً^(٤) لهم، فبينما هو كذلك إذ أبصر العدو، فأقبل لينذر قومه، فأهوى بثوبه أن أيها الناس أتيتم، ثلاث مرات».

(١) ٣١/١ - ٣٢.

(٢) انظر فتح الباري ٢٧١/١١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٨/١٥.

(٤) يترباً لهم: أي يعلو شاهقاً فيرقب العدو، لينذر به، والاسم منه الربيثة، وقولهم: إني لأربأ بك عن كذا، أي أرفعك منه.

ورواه ابن حجر في الفتح (٢٧١/١١) بلفظ (يترايا لهم) يتفاعل من الرؤية، أي يرقب لهم العدو.

(فالنجاء) في رواية البخاري مكررة مرتين، والمعنى اطلبوا النجاء بأن تسرعوا بالهرب، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش.

(فأدلجوا) أدلج يدلج، كأكرم يكرم، أي سار أول الليل، أو سار الليل كله. أما أدلج يدلج – بتشديد الدال – فمعناها سار آخر الليل، والأول هو المناسب لمعنى الحديث.

(على مهلتهم) بضم الميم وسكون الهاء وبتاء بعد اللام، هكذا في رواية مسلم. وفي رواية البخاري (على مَهْلَهم) بفتح الميم والهاء وحذف التاء. والمعنى بهدوء وسكينة.

(فصبحهم) أي أتاهم صباحاً في وقت النوم والغفلة وعدم الاستعداد. (فاجتاحهم) أي استأصلهم، من الجائحة، وهي الآفة التي تفجأ الزروع والثمار فتهلكها.

* * *

شبه الرسول ﷺ في هذا الحديث بعثته إلى الناس، واختلافهم في الاستجابة لدعوته ما بين مؤمن به وكافر وعاقبة كل، بحال رجل رأى خطراً عظيماً يهدد قومه، فأسرع لإنذارهم. وحرصاً على نجاتهم وإحساساً بضيق الوقت وإمعاناً في المبالغة في إيقاظهم – بادر فخلع ثيابه ملوحاً بها إليهم، حتى يقتنصوا الفرصة، فيأمنوا من أن يأخذوا على غرة، فنجوا من صدقه، وهلك من كذبه.

والرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يقرب للأفهام ويجسم للأذهان ما يريد أن يلقي إليها به، إنما يستخدم الصور الشائعة في البيئة، كما يستخدم الأمثال الشائعة فيها كذلك، وقد كانت عبارة (أنا النذير العريان) شائعة عند العرب، يُضرب بها المثل في تحقيق الخبر وصدق من حمله. وإذا تجاوزنا

عن الاختلاف في سبب مورد هذا المثل وفي أول من قاله، فمن المؤكد أن العُرِّي ليس الحالة الطبيعية للإنسان، ولا يتعرَّى إلا لسبب يقتضيه. وقد كان من عادة العرب إذا أرادوا التهويل في الإنذار أن يغيروا من نظام ملابسهم وهيئاتهم، بل قد يصل الأمر إلى درجة المُثَلَّة، حيث يقطعون بعض أعضائهم أو أعضاء الحيوانات التي تحملهم مبالغة في الإنذار، وقد روت لنا كتب السيرة كيف أن أبا سفيان حين خشي على قافلته من المسلمين في غزوة بدر، استأجر ضمضم بن عمرو بعشرين مثقالاً، وأمره أن يخبر قريشاً أن محمداً ﷺ قد عرض لعيرهم، وأمره أن يجدع بعيره إذا دخل مكة - أي يقطع أذنيه إنذاراً بالشر المستأصل - ويحوّل رحله، ويشق قميصه من قبله ودُبُرِه، ويصيح الغوث الغوث^(١).

ويلفت النظر في هذا الحديث الجليل أن النبي ﷺ اقتصر على توضيح جانب الإنذار، دون عنصر التبشير، مع أنه الصورة المقابلة للإنذار، والمكملة في الوقت نفسه لمهمة الرسول:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢).

بل لمهمة الرسل عامة:

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٣).

ولعل الاختصار على الإنذار كان من خصائص المرحلة الأولى للدعوة،

يؤيد هذا قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ^(١) فَرَقًا نَذِيرًا﴾.

(١) إمتاع الأسماع، للمقريزي ٦٦/١، تصحيح أحمد شاكر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٢) سورة الفتح: الآية ٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٥.

وقوله تعالى :

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (١).

وقوله تعالى :

﴿ . . . إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢).

إن الإنسانية حين تبعد عن طريق الله ترتكب من الحماقات ما يؤدي بها ويجعل الخسران عاقبتها في الدنيا والآخرة، وهي حينئذٍ أحوج ما تكون إلى الإنذار والإعلام والتخويف من المخاطر التي تنتظرها إن لم تفيء إلى أمر الله، والذي يهتدي إلى طريق الحق هو الذي تناله البشرية بالسعادة في الدنيا والآخرة. هذا بالإضافة إلى أن الإنذار عام، فكما هو موجّه للكافر هو موجّه للمؤمن كذلك، إذ على المؤمن أن يحافظ على إيمانه وأن يجاهد نفسه حتى لا تنحرف عن الطريق، أما البشرية فهي خاصة بحزب الله لا تتجاوزهم.

خصائص النذير :

وقد أكد هذا الحديث أن النبي ﷺ نذير، ووضح في صورة سهلة الإدراك قوية التأثير ما في القرآن من أنه نذير مبين، فما شأن هذا النذير؟ إن من شأن النذير أن يكون محباً لقومه حريصاً على مصلحتهم، يقرع آذانهم ليوقظهم من غفلتهم وغيوبتهم ضناً بهم أن يردوا موارد التهلكة، ولقد بلغ من حرصه ﷺ على هداية قومه أنه كاد يهلك نفسه جزعاً على انصراف الناس عما يحييهم، فقال تعالى :

(١) سورة الحجر: الآية ٨٩.

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٦.

﴿ فَلَعلَّكَ بَدِخَعٌ نَفْسَكَ عَلَيَّ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١).

وقد سجل القرآن رحمة الرسول عليه الصلاة والسلام بالناس وحرصه على مصلحتهم ورافته بهم في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

وقد قدم لنا جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، صورة من حرص الرسول المنذر على نجاة قومه فقال: «كان النبي ﷺ إذا خطب، احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه نذير جيش يقول صبّحكم ومساكم، ثم يقول: «بعثت والساعة كهاتين» - ويضرب بين إصبعيه: السبابة والوسطى (٣).

وإن من شأن النذير أن يكون عالماً بما يجهله قومه، فهو ينذرهم بما غاب عنهم، ويحذرهم من أخطاره، ويدعوهم إلى الاستعداد له، ولهذا حكى الحديث عن النذير قوله: «رأيت الجيش بعيني»، وهو إرشاد إلى أنه تحقّق عنده جميع ما أخبر به تحقّق من رأى شيئاً بعينه، لا يعتريه وهم ولا يخالطه شك، وهكذا كان ﷺ، كما قال عن نفسه فيما رواه البخاري ومسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٤).

(١) سورة الكهف: الآية ٦، وفي سورة الشعراء: الآية ٣ ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾.

(٢) سورة التوبة: ١٢٨.

(٣) رواه ابن خلدون في كتابه الأمثال. والجزء الأخير من الحديث وهو «بعثت الساعة»... إلخ، رواه مسلم (٨٩/١٨)، عن أنس مرفوعاً.

(٤) فتح الباري ١١/٢٧٣. والنووي على مسلم ١١١/١٥.

وإن من شأن النذير أن يكون صادقاً معروفاً بالصدق، وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه حتى سماه قومه بالصادق الأمين. وقد اختبر تصديقهم له عندما قال لهم: «لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل - أي تريد أن تغير عليكم - أكنت مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». (مسلم بشرح النووي ٨٢/٣ - ٨٣).

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لصدقه قريباً من المثل الذي أتناوله بالشرح، لكن في تفصيل أكثر، هذا المثل المفصل نقله ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين:

قال عليه السلام: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا، كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، لا يدرون ما قطعوا منها أكثر أو ما بقي فحسرت ظهورهم ونفذ زادهم وسقطوا بين ظهري المفازة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه. فقالوا: إن هذا لحديث عهد بريف، فانتهى إليهم، فقال: يا هؤلاء ما شأنكم؟ فقالوا: ما ترى، حسرت ظهورنا ونفدت أزوادنا بين ظهري هذه المفازة، لا ندري ما قطعنا منها أكثر أم ما بقي؟

فقال: ما تجعلون لي إن أوردتكم ماء رواءً ورياضاً خضراً قالوا: حكمك. قال: تعطوني عهدكم وموآثيقكم ألا تعصوني، ففعلوا. فمال بهم فأوردهم ماءً رواءً ورياضاً خضراً، فمكث يسيراً ثم قال: هلموا إلي رياض أعشب من رياضكم هذه، وماءٍ أروى من مائكم هذا. فقال جُلُ القوم: ما قدرنا على هذا حتى كدنا أن لا نقدر عليه. وقالت طائفة منهم: ألستم قد جعلتم لهذا الرجل عهدكم وموآثيقكم ألا تعصوه، فقد صدقكم في أول حديثه، فأخر حديثه مثل أوله، فراح وراحوا معه، فأوردهم رياضاً خضراً وماء

رواء. وأتى الآخرين العدو من ليلتهم، فأصبحوا ما بين قتيل وأسير»^(١).

إن كل صفات النذير تحمل على تصديقه وتدعو للإيمان به وأتباع طريقه لمن ابتغى النجاة، ممن أنار الله بصائرهم، فشهدوا أمارات الصدق، وأيقنوا بوقوع ما غاب عنهم مما أخبر به النذير الصادق، غير أن كثيراً من الناس يصطدم الحق بما رسب في نفوسهم من الأنانية والجحود، فيتهمون المخلص، ويكذبون الصادق، ويعرضون عن الناصح، وصدق الله العظيم:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢).

بم ينذر الرسول؟ وممَّ ينذر؟

هذا النذير المبين، ﷺ، هذا النذير الصادق الحريص على أمته الرحيم بها، بأي شيء ينذر الناس؟ إنه منذرهم بما يوحى إليه، ينذرهم بهذا القرآن الذي أقام الله به الحجة على عباده، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾^(٣).

وقال جل شأنه:

﴿ وَأَوْحِي إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾^(٤).

(١) ٢٨٥/١ - ٢٨٦ مع حادي الأرواح، وذكر نحوه الحافظ ابن حجر وقال: أخرجه أحمد والبزار والطبراني، من طريق علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، ثم قال ابن حجر: لكن علي بن زيد ضعيف من قبل حفظه، وانظر فتح الباري ١٥/١٧ ط. مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٩ م.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٤٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٩.

فكل من بلغه هذا القرآن فقد وصل إليه الإنذار، وقامت عليه الحجة .

ومن أي شيء يندر الرسول؟ إنه يحذر الناس عاقبة اتباع الهوى وعبادة غير الله . إنه نذير يحذر الناس قرب الموت وفجأة الساعة :

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْزِقُ ﴿١﴾ .

إن الموت قريب جداً من الإنسان، عبّر عن قربه أبو بكر رضي الله عنه حين قال :

كل امرئ مَصْبَحٌ في أهله والموت أَدْنَى من شراكِ نعله
فالموت قريب وإن طال الأجل، لأنه ما دام واقعاً لا محالة فهو قريب،
على حد قول الشاعر :

لَعَمْرُكَمَا إن البعيد الذي مضى وإن الذي يأتي غداً لقريب
فسمى ما ينتظر وقوعه وإن بعد وقته باسم (غد) وهو ثاني يومك، لأن
مرور الأوقات يدينه ويجعله قريباً . ومنه قوله تعالى :
﴿ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ ﴿٢﴾ .

لقد أخبر النبي ﷺ في المثل الذي نحن بصدده بأن الجيش قد صَبَحَ
من لم يستمعوا إلى الإنذار، وفجأهم . وهكذا الموت والساعة يأتيان بغتة .
فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ
مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ .

(١) سورة النجم : الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) سورة القمر : الآية ٢٦ .

(٣) آخر آية من سورة لقمان .

وقال سبحانه رداً على من يتساءلون عن موعد وقوع الساعة:

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (١).

وهذا أكبر داعٍ إلى المبادرة بالتصديق، واقتناص الوقت واغتنام العمر والأخذ بأسباب النجاة، إن السؤال ينبغي أن لا يكون متى الموت؟ ومتى الساعة؟ ولكن السؤال الذي ينبغي أن يشغلنا هو كيف نستعد لهما؟ وما رصيدنا حين يأتيان:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِلُهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلِكُهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَحْشُرُهَا ﴿٤٥﴾ كَانَهُمْ يَوْمَ يَوْمِئِذٍ لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٢).

إن الرسول، ﷺ، نذير يحذر من غضب الله تعالى وعذابه للذين يصبهما على المعرضين. وإذا وقع هذا العذاب فالظالم الخاسر هو الإنسان الذي أعرض وتولى وأصم أذنيه وغلف قلبه بالهوى والشهوات. إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون. لقد أرسل الله إلى البشرية من ينذرنا حتى لا يكون لها حجة:

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ (٣).

إن من أعرض وتولى هو الظالم الخاسر، ويا ليته خسر ديناراً أو درهماً، لكنه خسر نفسه وضاعت منه بعد أن طمس فيها النور الذي يضيء له طريقه إلى الحق. ويا ليته خسر نفسه فقط، ولكنه خسر كذلك أهله الذين ساروا على دربه، وما أعظمها من خسارة:

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

(٢) سورة النازعات: الآيات ٤٢ - ٤٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٩.

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكُمْ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُئِمِّنُ ﴾ (١).

لقد أعذر من أنذر، وبلغ الرسول الرسالة، وأدى الأمانة، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى تاركاً مهمة الإنذار لخلفائه وورثته، أي للعلماء الذين هم ورثة الأنبياء. وقد قام الصحابة والتابعون ومن بعدهم من السلف الصالح بهذه المهمة خير قيام، وهو واجب العلماء الربانيين من بعدهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، يحملون هذا القرآن تركة الرسول العظيم، لينذروا به ويبشروا، وينشروا الهدى والنور في ربوع هذا العالم، الذي هو في أمس الحاجة إلى من يقوده إلى طريق الحق والسلام.

*
**

(١) سورة الزمر: الآية ١٥.

الفراش والنار

٣ - روى البخاري في باب الانتهاء عن المعاصي من كتاب الرقاق. عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يَزَعُهن ويغلبنه فيقْتَحِمُنَّ فيها، فأنا آخذ بحُجَزِكُمْ عن النار وأنتم تَقَحَّمُونَ فيها»^(١).

* * *

مفردات الحديث:

(استوقد) بمعنى أوقد، والتعبير النبوي فيها مطابق للتعبير القرآني^(٢)، وهو يفيد السعي في طلب ما توقد به النار زيادة على معنى (الإيقاد) ولهذا قال ابن حجر أنها أبلغ.

(ما حوله) الضمير للرجل. وفي رواية المسلم: (ما حولها) والضمير فيها للنار.

(الفراش) حشرات طائرة معروفة. أجنتها أكبر منها. وهي مختلفة

(١) انظر فتح الباري، لابن حجر ٢٧٢/١١ - ٢٧٣، ومسلم بشرح النووي ٤٩/١٥ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٢١/٣ - ١٢٢ حديث رقم ١٤٧٢، وجامع الأصول لابن الأثير ١٩٥/١ - ١٩٧، والترمذي ٣٢٤/١٠ - ٣٢٥.

(٢) في قوله تعالى في آية ١٧ من سورة البقرة: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾.

الأشكال والأحجام . وإنما ذكرنا معنى هذه الكلمة مع وضوحها، لأن خلافاً وقع فيها، فنقل ابن العربي في شرحه على الترمذي عن بعضهم أن الفراش صغار البق، وقيل: هو كل حيوان يقتحم النار بتهافته إما طياراً وإما دبّاباً، وأشار ابن حجر في فتح الباري إلى أن المقصود بالبق في كلامهم هنا هو البعوض، كما نقل عن بعضهم أنها الجنادب أو الجراد.

(يزعهن) يدفعهن، وفي رواية عند مسلم (يحجزهن).

(يقتحمن) يدخلن. والقَحْم: الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت: واقتحم الدار: هجم عليها.

(فأنا آخذ) يروى بصيغة اسم الفاعل: فيكون بكسر الخاء وتنوين الذال، وهذه رواية البخاري: ويروى بصيغة الفعل المضارع، فيكون بضم الخاء والذال من غير تنوين، وهي رواية مسلم.

(حجزكم) جمع حجرة - بضم فسكون وهي معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة.

* * *

في هذا الحديث من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام، يشبه النبي ﷺ حاله مع الناس: في حرصه على نجاتهم، ومبالغته في زجرهم عن الإقدام على المعاصي وألوان الغواية المزيئة لهم، مع حرصهم على الوقوع فيها. معرضين عن النصح، غير ملتفتين للمنذر الذي يبصرهم بعاقبة إعراضهم - يشبه الرسول حاله هذه مع الناس بحال رجل أوقد ناراً، فانجذبت الفراشات إليها، وفرحت بضوئها، وانخدعت بزينتها، فسعت إليها، وألقت بنفسها فيها دون تبصر أو تروؤ. ولكن الرجل - وقد منحه الله العقل والبصيرة - يدرك عاقبة هذا التهور، ويعلم النهاية التعسة البائسة لهذه المخلوقات الضعيفة، لذلك يمنعها ويدفعها ويحول بينها وبين أن تلقى بنفسها: فتلقى

مصيرها النكد، ولكن جهالتها تغلبها، وحمقها يدفعها، واستهواء الضوء إياها يسوقها إلى أن تلقى بنفسها إلى التهلكة، مغالبةً من يمنعها، مُتَقَلِّتَةً ممن يَحُولُ دون اندفاعها.

إن الحرص على نجات مَنْ هو حريص على إهلاك نفسه، هو المعنى الذي صَوَّرَهُ النبي ﷺ في هذه الصورة الرائعة الواضحة.

وفي نهاية الحديث التفات من الغيبة إلى الخطاب، زيادة في توضيح المثال وفي حرصه عليه الصلاة والسلام على نجات أمته، فيقول: «فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها».

وقد جاء في رواية لمسلم ما يبين التوضيح أكثر، حيث جاء في نهاية هذا الحديث: «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلّم عن النار هلّم عن النار، فتغلبوني تقحمون فيها».

وفي قوله ﷺ: «أنا آخذ بحجزكم» استعارة، حيث شبه حاله في منعه الأمة عن الهلاك بحال رجل أخذ بحجزة صاحبه الذي يكاد يهوى في مهواة مهلكة.

وقد نقل الشريف الرضي هذا الجزء الأخير من الحديث بلفظ: «إني ممسك بحجزكم هلّموا عن النار، وتغلبوني تقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب وأوشك أن أرسل حجركم» ثم بيّن الشريف الرضي ما في هذا الكلام من المجاز، فقال: (إن المراد به أنه عليه الصلاة والسلام يبالغ في زجر أمته عن التقحم في المعاصي والارتكاس في المضال والمغاوي بشكائم^(١) المنع وخزائم^(٢) الردع، فشبّه ذلك عليه الصلاة والسلام بإمساك

(١) جمع شكيمة أو شكيم، وهي في اللجام: الحديدية المعترضة في فم الفرس.

(٢) خزم البعير بالخزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في وتره أنفه يشد فيها الزمام ويقال لكل مثقوب الأنف مخزوم.

الرجل حزمة صاحبه إذا كاد أن يسقط في مهواة أو يرتكس في مغواة، ليماسك يماسكه وينجو بعد إشفافه. فلما شبّه إحدى الحالتين بالأخرى، أجرى عليها الاسم على سبيل المجاز وطريق الاتساع، وحسن أن يقول عليه الصلاة والسلام: «إنني آخذ بحجزكم عن النار». ومراده: عن الأعمال المؤدية إلى دخول النار؛ لأن السبب للشيء جارٍ مجرى الشيء - يعني أنه أقام المسبب وهو النار مقام السبب وهي الأعمال السيئة التي تؤدي إلى النار - ومما يبيّن أن المراد ذلك أنهم لم يكونوا في حال سماعهم لهذا الخطاب متهافتين في النار، وإنما كانوا في الأعمال التي يستحقون بها عذاب النار - أي أن قرينة المجاز هي دلالة الحال.

ومعنى: «هلمّوا عن النار» أي ارجعوا إلى طاعة الله سبحانه التي هي الأمان من العذاب وجانبوا معاصيه التي هي الطريق إلى العقاب.

ويمضي الشريف في بيانه فيقول: ومعنى «وأوشك أن أرسل حجزكم» أي أوشك أن يطرقني طارق الموت فتفقدون نهبي لكم عن المعاصي، وأخذي بكم عن طرق المغاوي. فجعل ذلك عليه الصلاة والسلام بمنزلة إرسال حجزهم وإلقاء أزمته، وهذا مجاز ثانٍ^(١).

وتفسير هذه العبارة بما فسرها به الشريف الرضي، يتعارض مع ما هو معروف من أننا لم نفقد أمره ﷺ ونهيه بموته، بل هما باقيان بما تركه فينا من كتاب الله وسنته، وطالما هما موجودان - وسيظلان موجودين - فالإنذار قائم والأخذ بالحجز موجود. ولكن المعنى الأظهر لهذه العبارة - إن صحت - أنها تهديد لمن يغالب ويتفلسف ويصر على الاندفاع إلى النار، تهديد له بأنه قد يترك شأنه، ليلقى مصيره الذي استحقه بعناده ومغالته.

(١) المجازات النبوية، للشريف الرضي ص ٦٩ - ٧١.

إن في الحديث تصويراً بليغاً رائعاً لحرصه ﷺ على هداية الناس واستنقاذهم من النار، ولقد صدق من سمّاه الرؤوف الرحيم، ولقد كاد هذا الرسول الرحيم أن يهلك نفسه أسفاً لانفلات الناس وعدم إيمانهم، وقال له ربه تبارك وتعالى: «أفأنت تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»^(١)، إنه الرحمة المهداة، وكم تحمّل من العنت والمشقة والظلم والطغيان، تحمّل ما تعجز الجبال عن حمله، ولم يزد هذا إلا حرصاً على هداية الناس.

إنه ﷺ المربي المخلص، والمعلم الناصح، والأستاذ الذي لا يألو جهداً في التوضيح، واستخدام الوسائل التي تقرّب الفكرة وتجسدها وتمنحها التأثير المطلوب. والأمثال من أبلغ الوسائل في البيان والإقناع، ولهذا أكثر منها النبي ﷺ، ونوع فيها، وضرب للفكرة الواحدة أكثر من مثل، ولهذا روي عنه أنه قال: «... وضرب لي من الأمثال مثل القرآن»، وفي رواية «مثلاً القرآن»^(٢). وهذا يدل على غزارة الأمثال التي استعملها الرسول في إيضاحه للأمة وبيانه لها، وقد جاء تصوير حرص الرسول ﷺ على هداية الناس في حديث آخر رواه أصحاب الصحاح والسنة وهو قوله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثلي رجل أتى قومه فقال: إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة فصباحهم الجيش واجتاحهم»، وقد تكلمنا عن هذا الحديث في غير هذا الموضع، ولكن أريد أن أوضح أن الفكرة الواحدة قد يضرب الرسول لها أكثر من مثل. أما حديث (أخذ الحجز) فكما يوضح حرص النبي ﷺ على الناس - يوضح في الوقت نفسه حرص الإنسان على الاندفاع إلى ما زين له من الشهوات والغرائز دون تعقل أو تفكير أو تدبر للتتائج. وهذا الاندفاع - على الرغم من خطورته - سهل عليه ميسور له؛ لأن فيه إشباع غرائزه ورغباته الحيوانية. والصعوبة إنما

(١) من الآية ٩٩ سورة يونس. (٢) أخرجه الراهرمزي في الأمثال من حديث طويل.

هي في إيقاف هذا الاندفاع، وتحويله إلى ما هو أسمى من متطلبات الحيوان، ليتحقق للإنسان التقويمُ الأحسن، وليليق بالتكريم الذي كرمه الله به، إنه عمل صعب إلا على من قويت إرادته وصحت عزيمته: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١). لهذا قال العلماء: إن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، لأن جبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل، وهذا ما أرشد إليه من قبل رسول الله ﷺ حين قال: «حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره» (٢).

وقد أرسل الله سبحانه الرسل إلى الخلق ليأخذوا بيد البشرية إلى طريق النجاة، ليُنذروا الناس عاقبة اتباع الهوى، والتهافت على الشهوات والوقوف عند ذلك، دون إدراك لمعنى الحياة، ودون عبادة لخالق الحياة، ودون تئبه إلى أن وراء هذه الحياة الدنيا حياةً أخرى، فيها النعيم المقيم، وفيها العذاب الأليم، وأن مساءلة الإنسان ومحاسبته في الأخرى عن حصيلة حياته ونوعية عمله هو الذي يُحدّد مصيره في أيهما يكون: فإن كان في دنياه اختار لنفسه الطريق الأسهل، المحفوف بالشهوات المزيّنة، وتفرغ لها وعبد هواه وتفلت ممن أنذره وأخذ بحجزته، فمصيره هاوية:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (٣).

وإن كان في دنياه جاهد نفسه وراضها ومنعها من الاندفاع وراء الشهوات، وحوّل طاقاتها إلى جهود وأعمال تحقق الغاية من وجوده كما أمره الله ورسوله — فمصيره الجنة ونعم القرار:

(١) من الآية ٤٥ سورة البقرة.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، وانظر فتح الباري ١١/٢٧٤.

(٣) الآيات الأخيرة من سورة القارعة.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ (١).

إن إطلاق الصعوبة على العمل أو على الطريق لا يعني أنه صعب في ذاته، ولكنه صعب لمخالفته الهوى، صعب لأن النفس الأمارة بالسوء تكرهه، وإن كان يعود عليها بالخير، كما يكره المريض الدواء، وكما يكره التلميذ المذاكرة، وكما كره المسلمون الدواء الرباني - ومنه الجهاد - هذا الدواء الذي صلح عليه حال سلفهم وبه كانت لهم العزة والمنعة والزعامة والتأثير، كره المسلمون هذا الدواء الرباني، فتركوه وأغرقوا أنفسهم في الملهذات، وركنوا إلى الدنيا وإلى الذين ظلموا، فضعف أمرهم وساء حالهم، وأصبحوا من الذل والهوان بحيث تُقضي أمورهم في غيبتهم، ولا يُستأذنون وهم شهود، كما قال شاعر قديم.

وقد جربوا كثيراً من الأدوية لعلاج أمرهم فلم يزددهم استعمالها إلا مرضاً، ولعلمهم يفتنون إلى العلاج الناجح والدواء الشافي، الذي هو في متناول أيديهم وليس عنهم ببعيد أو غريب.

ولهذا لا تصلح النفس الإنسانية لأن تكون ميزاناً أو مقياساً لما يُحِبُّ وما يكره. . . يَحُولُ دون هذه الصلاحية أغراضها وشهواتها وجهلها وغرورها وطغيانها. لكن المقياس فيما نحب ونكره هو رضا الله ورسوله، فما أحبه الله ورسوله هو ما ينبغي علينا أن نُحِبَّهُ ونَحْمِلَ أَنْفُسَنَا على حبه، وما كرهه الله ورسوله فعلياً أن نُبْغِضَهُ، وَحُبُّ الله ورسوله والحب فيهما موضوع هام جليل نمسك عن الاسترسال فيه، حتى تحين فرصة مناسبة، إن شاء الله.

(١) سورة النازعات: الآيات ٣٧ - ٤١.

يقول خالق الخلق العليم بما خلق سبحانه وتعالى ، في بيان عدم صلاحية النفس الإنسانية لأن تكون مقياساً للحب والبغض :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

صلى الله عليك يا نبي الرحمة وسلم تسليماً كثيراً، فقد أديت وبلّعت ونصحت، وأنذرت وبشّرت، وأردتنا خلقاً يعقل لا فراشاً يتهافت، فدعوتنا إلى ما يحيينا، نسأل الله أن يجعلنا من المستجيبين لله وللرسول، من «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» (٢).

**

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦ .

(٢) سورة الزمر: من الآية ١٨ .

الإنسان والأرض

٤ — عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها، وسقوا، ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به»^(١). أخرجه البخاري ومسلم.

* * *

مفردات الحديث:

الهدى: الدلالة الموصلة إلى الحق وسلوك طريقه والثبات عليه، بالعلم النافع من كتاب الله وسنة رسوله وبتوفيق الله.

الغيث: المطر.

العشب والكلاً والحشيش: أسماء للنبات، لكن الحشيش مختص باليابس، والعشب والكلاً — مقصوراً — مختصان بالرطب. والكلاً — بالهمز — يقع على اليابس والرطب.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٦/١٥، وفتح الباري ١٦٠/١ - ١٦٢، واللؤلؤ والمرجان ٣/١٢٠ حديث رقم ١٤٧٣، وجامع الأصول ١٩٢/١ - ١٩٤.

أجادب: جمع جذب على غير قياس، والجذب ضد الخصب، فالأجادب إذاً هي الأرض التي لا تنبت. وقد لاحظ الخطابي معنى الكلمة في الحديث فقال: هي الأرض التي تمسك الماء فلا يسرع فيه النضوب، وهو ما ارتضاه ابن حجر أيضاً.

وقد رويت الكلمة (أحارد) بالحاء المهملة وضعفها الخطابي.

ورويت (أجارد) بالذال بدل، الباء، ومعناها الأرض التي لا تنبت جمع جرداء.

وقال بعضهم هي (إخاذات) جمع إخاذة وهو الغدير الذي يمسك الماء.

ولم ترد هذه الكلمة في مسلم ولا في غيره إلا (أجادب) من الجذب الذي هو ضد الخصب^(١).

قيعان: جمع قاع أوقية، وهي الأرض المستوية أو الملساء، وقد فسرت في الحديث بأنها التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً.

فقّه روي بضم القاف وكسرهما، والأشهر الضم، ومعناه الفهم.

فكان منها طائفة طيبة: جاء في البخاري (نقية) بدل (طيبة)، وهما بمعنى:

ورعوا: من الرعي، وجاء في البخاري (وزرعوا).

بيان التمثيل في الحديث:

شبه النبي ﷺ الناس في تفاوتهم في الاستجابة لرسالته السماوية بالأرض في اختلاف تقبلها للماء وانتفاعها به.

(١) شرح النووي على مسلم ٤٧/١٥.

ووجه الشبه: هو عموم الفائدة النازلة من السماء، وتفاوت المتلقي في قدر الاستفادة.

من معاني الحديث:

ولقد جاء تشبيه الهدي الرباني بالغيث، وتفاوت الناس في الاستجابة له والاستفادة منه في قوله تعالى:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ (١).

إن حاجة الأرض إلى الماء أمر يُحسه الناس ويدركونه، وهم على يقين من استحالة الحياة بدون الماء، فبالماء تحيا الأرض الميتة، وكم من أرض هلك فيها الحرث والنسل بسبب القحط والجذب وإمساك السماء عن المطر، وليس بعيداً عنا أخبار المجاعات المنتشرة في بعض البلدان الإفريقية نتيجة للجفاف الشديد، فإذا هطلت الأمطار اهتزت الأرض بالحياة. وصدق الله العظيم:

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٢).

وكما أن الأرض بحاجة إلى الماء ليمنعها حياتها، كذلك القلوب في حاجة إلى الهدي الإلهي ليمنعها حياتها، إن المطر قوام الحياة الحسية، وإن الهدي الإلهي قوام الحياة الروحية، والله سبحانه وتعالى كما يحيي الأرض بالمطر، يحيي القلوب بالهدي الذي يوحى به إلى رسوله ﷺ:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾.

والمطر حين ينزل على أرض إنما ينزل صافياً عاماً، لكن الأرض
تختلف في تقبلها الماء، فتقسم إلى ثلاثة أنواع، كما جاء في الحديث:

النوع الأول: الأرض الطيبة الخصبة التي انتفعت بالماء فشربت، ثم
أنبت فنفعت غيرها.

يقابل هذه الأرض الطيبة أناس طيبون، سمعوا فاستجابوا لما يحييهم،
ثم صاروا دعاة إلى الله، بهم يقتدى وينورهم يستضاء، إنهم أناس تعلموا
العلم والعمل معاً، ثم حملوا الشعلة التي أنارت طريقهم ليقتبس منها غيرهم،
إنهم معلمون مرشدون هداة، انتفعوا ونفعوا.

النوع الثاني: الأرض التي يستقر فيها الماء فتحفظه وتصونه حتى يردّه
الواردون للانتفاع به سقياً ورعياً وزراعة.

يمثل هذا النوع الثاني أناس تلقوا الهدى الإلهي، فحفظوه وتعلموه،
غير أن أوديتهم كانت محدودة، فما استطاعوا أن يتفقهوا فقه الأولين، فليست
لهم أذهان حادة، ولا عقول لماحة، لكنهم حفظوا ونقلوا إلى من بعدهم،
واستوجبوا بهذا الحفظ وهذا النقل درجات من الفضل. ومن هؤلاء بعض نقلة
الحديث مثل مطر الوراق الذي سئل عن حديث فرواه، فلما سئل عن معناه
قال لا أدري إنما أنا زاملة فقال له السائل جزاك الله من زاملة خيراً^(٢).

وفي مثل هذا النوع جاء الحديث: «نُضِرَ اللهُ امرءاً سمع مقالتي فحفظها
ووعاها وأداها، فَرُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ غَيْرِ فِقِيهِ»، قال

(١) سورة الحديد: الآيتان ١٦ - ١٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ١٢٧/٢.

الإمام الشافعي تعليقاً على هذا الحديث: دل الحديث على أنه قد يحمل الفقه غير فقيهه، يكون له حافظاً ولا يكون فيه فقيهاً^(١).

وقد قيل إن المقصود بالنوع الثاني هم العلماء الذين يعملون بالفرائض دون النوافل، وجمع النووي بين المعنيين حيث قال إن (النوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس، لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذ منهم فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم)^(٢).

النوع الثالث: الأرض السَّبِيخة التي لا تستفيد بالماء فلا تنبت، ولا تحفظه حتى يستفيد به غيرها، وهو مثل لمن يسمع الهدي الإلهي فلا يستجيب له، ولا ينتفع به، ولا ينقله لغيره، إنه ميت الإحساس والشعور لا فائدة فيه، كالأرض السبخة:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾^(٣).

ويلاحظ أن الحديث قسّم الأرض إلى ثلاثة أقسام، ثم لم يذكر في مقابلة هذه الأقسام إلا طائفتين من الناس:

طائفة ممدوحة وهي تشمل القسمين الأولين، لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وإن تفاوتت مراتب النفع والانتفاع.

(١) الرسالة ص ٤٠١، ٤٠٣.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٨/١٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٦.

وطائفة مذمومة: وهي القسم الثالث الذي لم ينفع ولم يتنفع. وهذا القسم لا يقتصر على الكافر الذي لم يقبل هدي الله ولم يؤمن به، بل يشمل أيضاً من ينتسبون للإسلام دون أن يخضعوا له حياتهم، ودون أن تكون عقائدهم وسلوكهم وتصوراتهم ومشاعرهم على وفق أصوله وقوانينه، ومن هؤلاء من يعلن الحرب على الإسلام تحت ستار من التقدمية والتطور.

لقد كان جديراً بهؤلاء أن يرفعوا رؤوسهم اعتزازاً بهدي الله، الذي جعل العزة لنفسه سبحانه ولرسوله وللمؤمنين، كان جديراً بهم أن يعتزوا بالمكانة التي أرادها الله لمن يتبع هداه، مكانة الريادة والقيادة والتوجيه، لكنهم لم يرفعوا رؤوسهم، بل حنّوها لغير الله، فأذلهم الله؛ لأنهم أخطأوا الطريق للعزة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (١).

إن هؤلاء أرض سبخة باثرة، لا نفع فيهم لا لأنفسهم ولا لغيرهم، بل لعل ضررهم هو بضاعتهم التي يصدرونها إلى غيرهم. صدق رسول الله ﷺ حين شبه طوائف الناس بطوائف الأرض، فإنهم من الأرض وإلى الأرض يعودون:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٢).

وكما أن الأرض متنوعة كان ما أخذ منها متنوعاً ولا بد. وهذا التنوع هو ما قرره عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر «تجدون الناس معادن» (٣).

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ

زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٠.

(٢) سورة طه: الآية ٥٥.

(٣) مسلم بشرح النووي ٧٨/١٨.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا التنوع سمة عامة، سواء في
المخلوقات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ
جُدُدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيدٌ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ
وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ ﴿٢٨﴾ (١) .

أو في العقائد والأفكار :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرِأُونَكَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ
رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١٧٩﴾ (٢) .

إنه سبحانه خلقهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ليكونوا شهداء على
أنفسهم :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِهِ ﴿١٧٨﴾ (٣) .

وصدق الله ورسوله .

*
**

(١) سورة فاطر: الآيتان ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سورة هود: الآيتان ١١٨ - ١١٩ .

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٢ .

«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ»

٥ - روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنما الناس كإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة».

وروى مسلم هذا الحديث بلفظ:

«تجدون الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة».

ورواه الترمذي في باب الأمثال من جامعه، عن ابن عمر أيضاً بلفظ:
«إنما الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة»^(١).

* * *

المفردات:

«إبل مائة، بدون ألف ولام: تقول العرب للمائة من الإبل: إبل، يقولون لفلان: إبل، أي مائة بعير، ولفلان إبلان، أي مائتان. وعلى هذا تكون كلمة (مائة) في قوله: (إبل مائة) بدل أو عطف بيان وتفسير.

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣/٢٣٩ - ٢٤٠ حديث رقم ١٦٥١. دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، وفتح الباري ١١/٢٨٦ - ٢٨٧، ومسلم بشرح النووي ١٠١/١٦، والترمذي بشرح ابن العربي ٣٢٣/١٠.

«كالإبل المائة» وهي رواية البخاري، بالألف واللام الجنسية، حيث يصبح المعنى: كالمئة من جنس الإبل.

وقد نقل ابن حجر عن الراغب أنه فسرها بعشرة آلاف، حيث إن (الإبل) اسم لمائة بغير، فقوله (كالإبل المائة) أي كالمائة المائة، وهو عشرة آلاف، وقد استظهر ابن حجر - على تسليم قول الراغب - أن تكون المائة الثانية للتأكيد، فلا يلزم ما قاله من أن يكون المراد عشرة آلاف.

«الراحلة» هي من الإبل: الذكر النجيب والأنثى النجبية التي تختار للركوب، والهاء فيها للمبالغة، وهي فاعلة بمعنى مفعولة، لأنها ترحل، أي يوضع عليها الرحل استعداداً للركوب.

«لا تكاد تجد...»: كلمة (لا تكاد) في رواية البخاري، الذي روى هذا الحديث من طريق شعيب، عن الزهري عن سالم عن عبد الله بن عمر. فالمعنى على نفي مقارنة وجود راحلة.

أما مسلم والترمذي فقد رواه عن طريق (معمر عن الزهري)، ثم بالإسناد السابق إلى ابن عمر.

لكن الترمذي رواه بطريق آخر (عن سفيان بن عُيينة عن الزهري) ثم بالإسناد نفسه إلى ابن عمر، وجاء في هذه الطريق الثانية: «لا تجد فيها راحلة، أو لا تجد فيها إلا راحلة» هكذا على الشك.

والعبارة الثانية «لا تجد فيها إلا راحلة» قريبة من معنى رواية البخاري «لا تكاد تجد فيها راحلة» وهي الرواية التي رجحها ابن حجر لما فيها من زيادة المعنى ومطابقة الواقع، ويحمل النفي المطلق في الروايات، الأخرى على المبالغة.

بيان التمثيل:

اختلف العلماء في بيان التمثيل في هذا الحديث، ولعل هذا الاختلاف

كان مسبباً عن وجود كلمة (لا تكاد) في الرواية أو عدم وجودها.

فعلى الرواية بدونها يكون المعنى هو تشبيه الناس في تساويهم في النسبة إلى آدم، أو في تساويهم أمام أحكام الشريعة، بالإبل المتساوية في الصلاحية للحمل، والتي لا يوجد فيها ناقة مروّضة مختارة للركوب.

وعلى رواية البخاري التي أثبتت كلمة (لا تكاد) يكون المعنى: إن الممتازين الأخيار من البشر قليل قلة النجيب المختار للركوب في الإبل.

أي تشبيه الناس في كثرتهم مع قلة الممتازين منهم بالإبل الكثيرة التي يندر أن يكون فيها راحلة. ووجه الشبه هو كثرة النوع مع قلة الممتاز فيه وندرته.

من معاني الحديث:

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، ومن تشبيهاته الرائعة المنتزعة من واقع البيئة، مما يلمسه الناس ويعايشونه، فالإبل قد تكون كثيرة، ولكن ما أقل الممتاز فيها، ومثل الإبل سائر الحيوان، ومثلهما كذلك الإنسان.

والجنس البشري في تطوره وحضارته ومسيرته عبر الزمن، مدين في كل هذا لقلّة من الأفراد، وكأن نفع البشرية اقتضى وجود أفراد ممتازين فيه.

فالقادة والزعماء والعلماء قليلون بالنسبة لسواد الشعوب، والممتازون من القادة والزعماء والعلماء أقل، ثم يندر من هؤلاء الأقل من تصح عقيدته.

والإسلام حين ينظر إلى الإنسان الممتاز لا ينظر إليه معزولاً عن عقيدته، بل ينظر إليه في إطار العقيدة السليمة.

وما أشاد القرآن بفتوحات ذي القرنين - الذي جاء ذكره في سورة الكهف، والذي بلغ مغرب الشمس ومطلعها وبنى السد - لأنه كان قائداً حربياً

عقربياً اكتسح بقواته مناطق شاسعة نعم ما أشاد القرآن به من أجل هذا، فكم من قواد فتحوا واكتسحوا وكانوا معاول هدم لحضارة الإنسان، ولكن القرآن أشاد بذي القرنين، لأنه كان قائداً يتحرك في إطار العقيدة السليمة التي تحكم حياة الإنسان على أسس العدالة الحقيقية، والذي عبّر عنها القرآن في حوار مع هذا القائد العظيم:

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ۝ (١) .

وصحيح أن نبوغ الإنسان في مجالات مختلفة يطور الحياة المادية ويدفع بها إلى التقدم، ولكن هذا التقدم إذا لم تصنه عقيدة سليمة تحكمه وتوجهه يتخبط ويتحطم؛ لأنه سَيُتْرَكُ حينئذٍ للشهوات تحكمه وللأهواء تُوجهه وللشيطان يقوده، وستكون النتيجة المحتومة حينئذٍ هي الطغيان والظلم والفساد والانهايار. والحضارة الغربية التي نعايشها تقدم الدليل على هذا. ومن هنا أقسم سبحانه وتعالى على أن الإنسان في خسر، جنس الإنسان، أقسم على هذا بالعصر، أي الزمن، وكان في هذا إشارة إلى عموم هذا الحكم على كل إنسان في كل زمن، لا يستثنى منه إلا من صحت عقيدته وصلح عمله وأقام سلوكه على وفق هذه العقيدة الصحيحة:

﴿ وَالْعَصْرَ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ۝ (٢) .

وهؤلاء المستثنون من الخسران، هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات

قليلون، بنص القرآن في قوله تعالى في سورة (ص):

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۝ (٢) ۝ (٢) .

(١) سورة الكهف: الآيات ٨٦ - ٨٨ . (٢) سورة «ص»: الآية ٢٤ .

لكن هذه القلة المؤمنة هي رمز التفوق في عصرها، وهي أفضل من أقلته الأرض في زمنها بشهادة ربها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [سورة البينة].

وقد أسند التوجيه إلى هذه القلة؛ لأنها تملك التأثير فتملك الغلبة في كثير من الأحيان:

﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾﴾.

إن هذه الفئة القليلة هي القلة المختارة الممتازة، التي رباها رسل الله وأنبيأوه - والرسل والأنبياء هم صفوة الخلق - وقد قادت العالمَ وبهرته وغيرت معالِمَه فئته قليلة رباها محمد ﷺ، وظهر من هذه الفئة مثلٌ تحتذى في فن القيادة الحربية والقيادة السياسية، وفي التضحية والفداء والرحمة والعدالة ورعاية الفقير وحماية الضعيف. وفي كل هذا أخبار ووقائع هي نماذج فريدة، ومنارات مضيئة في ليل البشرية الطويل.

إنها فئة ممتازة صنعها القرآن، هذا الكتاب الخالد الذي كان خلق محمدٍ وصحبه، هؤلاء الصحب الذين كانوا لا يتجاوزون آية من آياته حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فيتعلمون العلم والعمل جميعاً.

لقد كانوا قرآناً يمشي على الأرض. وقد تولى الله حفظ هذا القرآن في كل العصور، وخرج من مدرسته في كل عصر نماذج مختارة، ولا يزال قادراً على أن يخرج نماذج تحاكي الأفواج الأولى التي تخرجت في مدرسته، إن آمنا به إيمانهم، وتمسكنا به تمسكهم، وأقمنا حياتنا على منهجه. لقد كان ولا يزال قادراً على العطاء، بل لا صلاح للإنسانية إلا بمعطاته.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

إنها فئة ممتازة صنعها الإيمان، والإيمان يصنع المعجزات، ويستخرج الطاقات الكامنة في النفس، والتي قد تخفي حتى على صاحبها. وفي قصة السحرة مع فرعون ما يُبين كيف أن الإيمان يحوّل النفس من ضعف إلى قوة، ومن استكانة إلى عزة، ومن تملّق لأجل الحصول على عرض الدنيا إلى جهر بالحق لا تخشى فيه لومة لائم، ولا تبالي بما تلقى في سبيله ولو كان فقدَ حياتها.

لقد أحدث الإيمان في نفوس السحرة انقلاباً فجائياً: فبعد أن كانوا يقولون لفرعون: ﴿أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، وبعد أن كانوا يتملقونه فيقسمون به عند مباشرتهم السحر:

﴿فَالْقَوَاهِجَ وَالْهَمَّ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بَعِزَّةَ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤).

بعد أن كانوا يستجدون ويتملقون إذا بهم يعلنون كلمة الحق بعد أن خالط الإيمان قلوبهم، ويتوعددهم فرعون فلا يبالون:

﴿لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ كَرَمٌ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٥) ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَّقِبُونَ﴾ (٥٥) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وقالوا لفرعون كذلك:

﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢).

إن أصحاب المصالح الدنيا يجتهدون في تضليل الناس وصرفهم عن طريق الهدى، والناس كإبل سائمة، يُقادون فينقادون، ويُسْتَحْفُونَ فيُطيعون: إلاّ المؤمنين، وهم قليل شأن كل نوع فاق جنسه:

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٤٩ - ٥١.

(٢) سورة طه: الآية ٧٢.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وفي داخل هذه القلة المؤمنة تتفاوت الأقدار كذلك: فأكرمها أتقاهم لله، وأقربها من الرسول عليه الصلاة والسلام أحاسنهم أخلاقاً الموطتون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وقد شاعت صفات التفوق هذه في أهل القرن الأول وتنافسوا فيها، ثم تناقصت الهمم من بعده، ولهذا كان جيل الرسول خير القرون ثم الذين يلونهم إلى أن يندر وجود الفئة المرضية كلما بعدنا عن مصدر الامتياز والتفوق والعزة؛ أي عن القرآن.

إن الناس كثير، لكن المرَضِيَّ عنهم قليل، إذ المؤمنون قليل.

*

**

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾

٦ — (عن النُّوَّاسِ^(٢) بن سَمْعَانَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال :

(١) سورة يونس : الآية ٢٥ .

(٢) هذه هي رواية الإمام أحمد، وإسنادها هو:

(حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، ثنا ليث بن سعد، عن معاوية بن صالح، أن عبد الرحمن بن جبير حدثه عن أبيه، عن النُّوَّاسِ بن سمعان الأنصاري) والحديث سنده جيد - كما قال الشيخ عبد الرحمن البنا في كتابه الفتح الرباني ١/٨٣ - ٨٤ - ورجال السند في هذا الحديث الذي رواه أحمد هم رجال الصحيح فيما عدا شيخ أحمد (الحسن بن سوار المروزي البغدوي) قال أحمد وابن معين: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن سعد: ثقة. (تهذيب التهذيب ٢١/٢٨١ - ٢٨٢).

وقد أخرج الترمذي حديث النُّوَّاسِ بن سمعان هذا في جامعه (١٠/٢٩٥ - ٢٩٧) بسند آخر. وقال فيه: هذا حديث غريب، وأخرجه كذلك النسائي، وابن خلاد في كتاب الأمثال، وهو ثاني حديث في الكتاب. وأخرجه ابن كثير في التفسير (٢/٢٠٦) مكتبة النهضة الحديثة نقلاً عن الإمام أحمد، وابن الأثير في جامع الأصول (ص ١٨٤ - ١٨٥).

أما النُّوَّاسِ بن سمعان - بتشديد النون المفتوحة، وفتح السين من سمعان وقيل: تكسر - فقد اختلف في نسبه: هل هو أنصاري أو كلابي (تهذيب التهذيب ١٠/٤٨٠ - ٤٨١).

فهو في المسند منسوب إلى الأنصار، وفي الترمذي منسوب إلى كلاب، وقد نسبة

«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَّبِي الصراط سوران فيهما أبواب مُفْتَحَةٌ، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تَلْجُه: فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم...»).

* * *

ألفاظ الحديث:

الصراط: الطريق.

وعلى جنبتي: الجنبتان: الناحيتان، والجمع جنبات وفي رواية الترمذي

الإمام مسلم إلى الأنصار عندما روى عنه حديث «البر حسن الخلق...» ونقل الإمام النووي في شرحه على هذا الحديث عن أبي علي الجيلاني أن النواس كلابي، وقد وهم من جعله أنصارياً؛ ونقل كذلك عن المازري والقاضي عياض أن المشهور أنه كلابي، ولأنه كان حليف الأنصار فنسب إليهم.

والأصح أنه كلابي، بدليل الطريق الأخرى التي روى بها مسلم حديث (البر) السابق، وفيها عن «نواس بن سمعان قال: أقمت مع رسول الله ﷺ، بالمدينة سنة، ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة وكان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء...» إلخ الحديث.. أي لم يمنعه عن استيطان المدينة والانتقال نهائياً من موطنه، إلا حرصه على أن يسأل النبي فيستفيد منه الجواب، وكان هناك نهى لأهل المدينة عن كثرة الأسئلة، لكن يترخص مع الغرباء الوافدين، ما لا يترخص مع الملازمين للرسول ﷺ، كما جاء صريحاً في حديث أنس من كتاب الإيمان في صحيح مسلم: «وكان عجباً أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله».

«وعلى كفي»، وهو بمعنى الجانبان والناحيتان، أي أن السورين يكتنفان الصراط، فهو بينهما.

سوران: السور الحائط، يقال: سُرت الحائط وتسوّرتة: إذا صرت في أعلاه وفي رواية الترمذي بشرح ابن العربي (داران) وأظنه تصحيفاً، بدليل أن اللفظة في الترمذي بشرح المباركفوري هي (زوران) وهي سوران بإبدال السين زايًا. وهي كذلك بالزاي في جامع الأصول عن الترمذي.

ولا تفرجوا: أي امضوا قدماً على الصراط، ولا تنحرفوا ذات اليمين ولا ذات اليسار، وعند ابن خلد في الأمثال، وابن الأثير في جامع الأصول: «ولا تعوّجا»: يقال عاج بالمكان: أي أقام به، وعاج به: عطف إليه، ومال، وألم به، ومرّ عليه (النهاية في مادة عوج).

من جوف الصراط: أي داخله وأوسطه، وفي رواية من (فوق الصراط) كما في الترمذي وعند ابن خلد وابن الأثير، وهو الأرجح بدليل نهاية الحديث.

ويحك: ويح كلمة تقال رحمة لمن تنزل به بلية، وهي منصوبة على المصدر، وكانت العرب تقول لمن ترحمه: ويحه رثاية له، ومنه الحديث: «ويحك يا ابن سمية بوأساً لك تقتلك الفئة الباغية» (لسان العرب).

تَلِجُه: وَلِجٌ يَلِجُ: دخل يدخل.

الحدود: جمع حد، وهو المقدار والتناهي الممنوع من تجاوزه شرعاً، كما قال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ . (من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وأصل الحد: المنع، ومنه الحدود في العقوبات، لأنها مقادير منَع الله مِنْ تَجَاوُزِهَا، وحدود الدار هي المقدار الذي لا يتجاوزه صاحب الدار.

بيان التمثيل في الحديث :

يُسبَّه النبي ﷺ الدعوة إلى منهاج الله، بتطبيق التعاليم التي تضمنها القرآن وأوضحها السنة، مؤيدةً هذه التعاليم بالفطرة النقية .

يُسبَّه هذا بالدعوة إلى طريق مستقيم، محاط بسورين فيهما أبواب مفتحة عليها ستور، لا ينبغي لأحد أن يرفعها، إذ عليه أن يمضي في طريقه قدماً لا يلتفت حتى يصل إلى غايته .

ووجه الشبه : هو طلب الاستقامة على الطريق الصحيحة التي نصبت عليها علامات تحذر من الانحراف .

ويرى ابن العربي في شرحه على الترمذي^(١) أن التمثيل هنا تشبيه متعدد، وليس تشبيه صورة مركبة بصورة أخرى، حيث قال : (ضرب مثلاً لخمسة : صراط، أبواب، سور، داع على رأس الصراط، داع من فوقه). لكنه في تفصيله لهذه الخمسة جعلها ستة، بزيادة (الستور).

من معاني الحديث :

الطرق كثيرة، لكنها متشعبة، ملتوية، مظلمة، مخوفة، تُسلم سالكها إلى التيه والضلال، ثم إلى النار، إلاً طريقاً واحداً، يمتاز باستقامته ووضوحه، وبتعليماته التي هي إرشادات للمرور، حرصاً على أمن المار، وسلامة السالك، لينتهي به إلى غايته سليماً موفوراً سعيداً.

هناك على مفترق الطرق، وعلى رأس طريق السلامة - هناك يعلو النداء، داعياً الناس إلى سلوك الطريق المستقيم، طريق الأمان والسلامة،

(١) ٢٩٦/١٠ - ٢٩٧ .

ومحذراً إياهم من الطرق الأخرى التي تورث صاحبها الخوف والقلق والتهيه ثم تؤدي به إلى الهلاك:

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: (خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلَ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا»، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾^(١).

ويلاحظ أن الآية والحديث جاءا بإفراد (الصراط) و (السبيل) عند الإضافة إلى (الله)؛ لأن طريق الله واحد، إذ الحق واحد، وهو سبيل الله، وسبيل رسوله:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٢).

وهي سبيل المؤمنين:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣).

هذا الطريق - طريق الله ورسوله والمؤمنين - هو الطريق المستقيم المزود بتعليمات توضح معالم الطريق وتحذر من مخاطره. هذا الطريق المستقيم هو الإسلام: إنه الطريق إلى الله ورضوانه وجنته: بداية هذا الطريق

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥ نقلاً عن مسند أحمد. وقال: أخرجه الحاكم وصححه والآية هي ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٥.

هو الدخول في الإسلام، ونهايته هي الجنة:

سأل رجلُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: ما الصراط

المستقيم؟ قال ابن مسعود:

«تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌ، وعن يساره جوادٌ، ثم رجال يدعون مَنْ مَرَّ بِهِمْ، فمن أخذ في تلك الجوادِ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ الآية»^(١).

والناس بعامة مدعوون لسلوك هذا الطريق المستقيم - طريق السعادة - يدعوهم إلى سلوكه خالقهم ومربيهم والمحيط بكل شيء علماً، إنها دعوة لا إكراه فيها، وعلى الإنسان أن يختار:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢).

وهو مخلوق ليُتَلَى بهذا الاختيار، ولا عذر له إن أساء الاختيار، بعد أن أرسل إليه الدعوة ينذرون ويعلمون ويوضحون ويعينون على حسن الاختيار.

ثم ينبغي لمن سلك طريق الإسلام أن يستقيم استقامة هذا الطريق، وأن يستمر على استقامته حتى يصل إلى غايته دون أن ينحرف. ومن أجل هذا تعلم المسلمون أن يقولوا:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

(١) رواه ابن جرير، انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٠٦، والجواد - بتشديد الدال جمع جادة - وهي الطريق.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٣.

يقولون هذا عشرات المرات في اليوم واللييلة، ومن أجل هذا قال الله لرسوله عليه الصلاة والسلام:

﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(١).

وهي كذلك وصية الرسول لمن سأله:

يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك.

فقال ﷺ:

«قل آمنت بالله ثم استقم»^(٢).

يقول ابن العربي: (الصراط مثل على الطريق الجادة لكل معنى مستقيم: كالهدى والإيمان بالله والعدل ونحو ذلك. وهو عبارة عما عليه من الكتاب والسنة دليل، وليس للبدعة والمعصية إليه سبيل، مما عليه سلف الأمة، وشهدت له شواهد العبرة، ويفضي بصاحبه إلى التوحيد، ويعينه في الطاعة على بذل المجهود)^(٣).

هذا الطريق المستقيم أقيم على جانبيه سوران، مهمتهما حماية السالك والمحافظة عليه من السقوط، فليس من آداب السلوك أن يتسورهما، وليس في مصلحته أن يتعداهما أو يتجاوزهما، لقد أقيما لمصلحته ووَجِدَا لتأمين مسيرته وخوفاً عليه مما وراءهما، فعليه إذاً أن يسير في حمايتهما.

لكنه في مسيرته يرى ستوراً على جانبي الصراط، ترى ما هذه الستور؟ وماذا وراءها؟ وماذا لو رفعت أحدها لأنظر ما هنالك؟!

(١) سورة هود: الآية ١١٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٩/٢. باب جامع أوصاف الإسلام، من كتاب الإيمان.

(٣) ابن العربي على الترمذي ٢٩٦/١٠ - ٢٩٧.

لكن تعليمات الطريق وإرشادات المرور تمنع من هذا، وما منعتة إلا رعاية للمصلحة، وتأميناً للسلامة. ومع هذا فلا يضيرني أن أرفع أحدها. وعندما يهم بهذا يسمع التحذير من شرطة الأمن، تهيب به ألا يفعل، وتحذره من هذه المخالفة، وتُذكره بتعليمات الطريق، ونظام المسير، وتُذكره بأن أمامه غايةً يجب عليه أن يبلغها، وأن يواصل السير قدماً في اتجاهها، ينبغي ألا يبطن عن المسير، وألا يلتفت إلى شيء في الطريق.

إنه إذا رفع الستر فقد أزال الحاجز الذي يحول بينه وبين الولوج، إذ لا يجد بعد رفع الستر إلا باباً مفتوحاً، لن يقنع برؤيته ولا بالنظر إلى ما وراءه، بل سيدخل ويمعن في الدخول حتى يفضي به إلى الانحراف عن الطريق. هذه الأبواب محارم الله، ينبغي ألا يقتحمها أحد، وهي مفتوحة لا يصعب دخولها لأن الشهوات إليها شارعة والنفس نحوها نازعة، كما جاء في الصحيح: «حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره»^(١).

والستور التي على الأبواب هي - كما قال ابن العربي - مثل لكل حاجز عن الحرام، حاجب عن المحذور، من دين ومروءة وحياء وهمة وعفة.

هذه الستور التي تغطي المحارم ينبغي ألا ترفع، حتى يكون بين المسلم والحرام حاجزٌ وسترٌ من الحلال، فإنَّ مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يُواقعه كما جاء في حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينها مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيها، وإن لكل ملك

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه (فتح الباري ١١/٣٢٠).

حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب» متفق عليه.

إن الاقتراب من الحرام مزلقة توقع فيه، والجرأة على الصغائر تورث الجرأة على الكبائر، وما أحسن شرح الشريف الرضي هذا الحديث حيث يقول: شبه ما حظره الله سبحانه من محارمه، بالحمى الذي يحميه ذو السلطان من مواقع السحاب ومنابت الأعشاب فلا ترعى فيه إلا إبله، ولا ينزل به إلا حيه، وما كان يفعل ذلك من العرب إلا الأعز فالأعز، والأبر فالأبر، حتى ضربت العرب المثل بحمى كليب بن ربيعة - وهو كليب وائل - في أنه رجل حرام وممنوع لا يُرام، فقالوا: أعز من حمى كليب. فجعل عليه الصلاة والسلام ما حظره الله سبحانه على العباد من المحارم، كالحِمَى الذي يجب عليهم ألا يطوفوا به ولا يمروا بجوانبه، ومن خالف الله منهم أُرصد له العقاب، فما حَرَّمَ سبحانه من الأشياء حِمَى لا يُرعى، وما أحلَّ منها مَرعى لا يُحَمَى). ثم بين معنى قوله عليه السلام: «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه». فقال: (يريد به التحذير من الإمام بشيء من الذنوب، يكون ذلك مُجَرَّباً على الوقوع في كبائرها، والتَّهَوُّك في معازمها)^(١).

ينبغي للسالك إذاً ألا يرفع الستور، فضلاً عن أن يلج الباب. فقد أمره المنادي على رأس الصراط ألا يَعْرُج على شيء في طريقه. هذا المنادي هو كتاب الله عز وجل، الذي يهدي للتي هي أقوم، والذي أنار الطريق وأوضح معالمه و:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

(١) المجازات النبوية ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣ - ١٩٤.

فحمله رسول الله إلى الناس كافة، وبلغه كما أمر، وفتح الله له به قلوباً غُلفاً، وآذاناً صماً، واهتدى من تمسك به إلى صراط مستقيم. القرآن يدعو إلى الطريق ويرشد سالكه، وواعظ الله في قلب كل مسلم يصحبه طوال المسيرة، ليقوم بمهمة الإشارة الحمراء التي تنذر بالخطر إن حاد عن طريق السلامة. إنه الضمير المسلم الذي يدرك أن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه تعالى يعلم السرّ وأخفى، وما توسوس به نفسه، وهو معه أينما كان. إنه الضمير الذي أيقن بالبعث والحساب، وأن عمله سيُعرض عليه في صحفٍ يأخذها: إما باليمين أو باليسار، ليستقر في جنة أو نار. إنه الضمير الذي تَرَبَّى تربية إسلامية تجعله في حالة يقظة، ومراقبة دائمة، بحيث يقوم الأعمال على أساس من الحق والعدل والفضيلة. أو بعبارة أخرى، على أساس من طاعة الله ورسوله، حتى يصل الضمير إلى درجة يكون فيها هو الحكم بين الإثم وغيره.

فقد سأل النّوّاس بن سمعان رسول الله عن البر والإثم، فقال ﷺ: «البرُّ حسنُ الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلَعَ عليه الناس»^(١).

فعندما يتشكك داخلك ويتدرد ويتخوف من عمل، فهو إثم أو قريب من الإثم.

وجعل رسول الله ﷺ الضمير مرجعاً للفتوى عندما قال: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(٢)، إذ تكون الفتوى على أساس ظواهر الأمور،

(١) مسلم بشرح النووي ١٦/١١٠ - ١١١. باب تفسير البر والإثم من كتاب البرِّ والصلة والآداب.

(٢) حديث حسن، رواه أحمد والدارمي من حديث وابصة بن معبد (رياض الصالحين - باب الورع وترك الشبهات) ص ٢٤٨.

موافقة للهوى، لكن الضمير الذي يعلم من باطنه ما لا يعلم الناس منه، سيتحرك ويتململ ويحاسب ويسائل، فالعمدة على إحساسه لا على الفتوى.

ويؤكد الرسول ﷺ دور هذا الرقيب الداخلي عندما قال: «إنما أنا بشر، وأنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض - وفي رواية: ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها»^(١).

إنها التربية الإسلامية التي تربي الفرد وتتعهده وتقيمه على أمر الله، وتجعل من نفسه على نفسه رقيباً، وهذه التربية لا تخلق في الفرد شيئاً جديداً، ولكنها توظف ملكات أودعها الله فيه وفطره عليها، وتقاوم الشياطين التي تجتال^(٢) الناس عن دينهم، وتوحي إليهم بما يشوه الفطرة أو يمسخها، حتى تعمي البصيرة فيها فلا تبصر الطريق.

لقد أرسل الله محمداً ﷺ بكتاب مبين، ليعيد للفطرة صفاءها ونضرتها، ولينير للناس طريقهم، فيهدوا إلى دار السلام:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿﴾ [سورة المائدة: الآيتان ١٥، ١٦].

إنها التربية النبوية التي تعلم المسلم أن لا يستهين الصغائر، فإن

(١) رواه السنة.

(٢) جاء في الحديث الذي رواه مسلم (١٩٧/١٧): «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». أي تستخفهم وتستهبهم وتزيلهم عن دينهم.

الاستهانة بها تورث اعتيادها وإلّفها. وجمع الصغيرة إلى الصغيرة دون مبالاة بارتكابها، ولاندم من فعلها، ولا إحداث توبة تزيل آثارها – مما يطمس نور البصيرة، ويفضي بمعتادها إلى ارتكاب الكبيرة.

يقول رسول الله ﷺ، محذراً من ذلك: «إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهْلِكُهُ»^(١).

وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً»^(٢).

**

(١) المسند، للإمام أحمد ٣٣١/٥، وحسن ابن حجر إسناده (فتح الباري ٣٢٩/١١)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ح ٣٨٩ ط ثانية.
(٢) رواه النسائي وابن ماجه، وصححه ابن حبان.

المائدة مُعَدَّة، والدعوة عامة

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله قال:

٦ — (جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان: فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مَأْدُبَةً، وبعث داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المَأْدُبَةِ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أَوْلُوها له يَفْقَهُها. فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ. فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله. ومحمد ﷺ فرَّق بين الناس).

بعد أن روى البخاري هذا الحديث قال: (تابعه قتيبة، عن ليث، عن خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر: خرج علينا النبي ﷺ) (١).
وإنما أتى البخاري بهذه المتابعة لأن فيها تصريحاً بالرفع إلى النبي ﷺ، ليرفع بها توهم أن الطريق الأولى موقوفة.

وطريق سعيد بن أبي هلال عن جابر التي أتى بها البخاري للمتابعة، رواها الترمذي، وبيّن انقطاعها؛ لأن سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن

(١) فتح الباري ١٢/١٧ - ١٤.

عبد الله^(١)، لكن فيها بيان أن النبي ﷺ خرج عليهم يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه. اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه. فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها».

ثم روى الترمذي الحديث السابق عن ابن مسعود، مبيناً أن هذه الرؤية رآها النبي ﷺ ليلة الجن، وقد قال الترمذي عن حديث ابن مسعود إنه حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه^(٢)، وذكر ابن حجر أن ابن خزيمة صحح حديث ابن مسعود كذلك^(٣).

بيان التمثيل :

في الحديث تشبيه الرسول ﷺ، في إرسال الله إياه إلى الناس، ليدعوهم إلى ما فيه نفعهم، واختلافهم في الاستجابة له وعاقبة كل - بداع أرسله عظيم ليدعو الناس إلى قصره ليأكلوا على مائدته، فمن أجاب الداعي استمتع بصنوف الطيبات، ومن لم يجبه حرم وعوقب.

ووجه الشبه هو الدعوة إلى شيء نافع وانتفاع المستجيب وحرمان الرافض.

(١) الترمذي بشرح ابن العربي ٢٩٧/١٠ - ٢٩٨.

(٢) الترمذي بشرح ابن العربي ٢٩٨/١٠ - ٣٠١، وبشرح المباركفوري ١٥٤/٨ - ١٥٨.

(٣) فتح الباري ١٢/١٧.

وبوضع الحديث في هذه الصورة من التشبيه يتضح أنه من قبيل التشبيه المركب مع قطع النظر عن مطابقة المفردات من الطرفين، إذ ليس المقصود من هذا التمثيل تشبيه المفرد بالمفرد.

وقد ذكر ابن حجر أنه وقع في غير هذا الطريق تشبيه المفرد بالمفرد مما يدل على المطابقة، والطريق التي يعنيها هي طريق سعيد بن أبي هلال التي رواها الترمذي، وقد سبق بيانها - وجاء فيها بيان التمثيل هكذا «فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول...».

* * *

المفردات:

«جاءت ملائكة»: في رواية سعيد بن أبي هلال عند الترمذي والتي ذكرناها آنفاً بيان أن جبريل وميكائيل هما اللذان ضربا المثل. وفي حديث ابن مسعود عند الترمذي أيضاً أن النبي ﷺ توسد فخذه، قال: «فبينما أنا قاعد ورسول الله ﷺ متوسد فخذي إذا أنا برجال عليهم ثياب بيض. الله أعلم ما بهم من الجمال، فانتهوا إليّ، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ وطائفة منهم عند رجله...».

«إن العين نائمة والقلب يقظان» يراد بيقظة القلب حياته وصحة خواطره، يقال: رجل يقظ إذا كان حديد القلب. ذكره ابن خلد في الأمثال.

وفي حديث ابن مسعود أن الملائكة قالوا: «ما رأينا عبداً قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي، إن عينيه تنامان وقلبه يقظان».

«كمثل رجل بنى داراً»: في رواية ابن مسعود «مثل سيد بنى قصرًا» «وجعل فيها مآدبة» المآدبة: بسكون الهمزة وضم الدال، وحكى فتحها وقيل: إن المآدبة - بالضم - الوليمة، وبالفتح الأدب، وعلى هذا فيتعين هنا الضم.

«ومحمد فرّق . . .» بتشديد الراء، فيكون فعلاً ماضياً، أو بسكون الراء والتنوين فيكون مصدرراً، أي مميّز بين المؤمن والكافر، أي أن اتباعه ﷺ وطاعته حد فاصل بين المؤمن والكافر، وبين من يدخل الجنة ومن يحرم منها، وبين السعيد والشقي. فهو يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه، وتكذيبه. ومنه (الفرقان) من أسماء القرآن، أي أنه فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام.

من معاني الحديث:

صلى الله وسلم على محمد النبي الأمي، رسول الله الداعي إلى الله، إنه دائماً بحضرة الله سبحانه وتعالى، ذاكر له مشغول به في كل لحظة من لحظات حياته: في يقظته وفي نومه، في طعامه وشرابه، في حربه وسلمه:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴿١﴾﴾.

ومن المشاهد المعروف أن المشغول بأمر - ولو دنيوياً - يصحبه هذا الأمر في نومه كما يصحبه في يقظته، فالذي ينام وهو مشغول بالاستيقاظ في وقت معين غالباً ما يجد نفسه مستيقظاً في هذا الوقت أو قبله، والذي ينام على حافة بئر، ينام وفي داخله يَقْظَةٌ وَوَعْيٌ يحولان دون سقوطه في البئر وهو نائم، والذي ينام بجانب شخص يشاركه الفراش لا يتحرك في نومه الحركة الحرة التي اعتادها عندما ينام منفرداً^(٢). وقد كان رسول الله ﷺ مشغولاً بالله أكثر من شغل الدنيويين بديناهم، وكان في حالة استعداد دائم للتلقي عن الله سبحانه حتى في نومه؛ لأن نومه نوم العين فقط، نوم الجسد الذي تحكمه قوانين

(١) سورة الأنعام: الآيتان ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) استفدت هذا التوضيح من مذاكرة مع فضيلة الشيخ الشعراوي.

البشرية، أما قلبه وروحه فلا تنقطع صلتهما بالملا الأعلى، وهذا الحديث هو مما تلقاه ﷺ عن الملا الأعلى في هذه الحالة، حيث ضربت الملائكة له مثلاً، وكثيراً ما ضربوا له الأمثال، وقد جاء في حديث أشرنا إليه من قبل: «وضرب لي من الأمثال مثل القرآن» أو «مثلاً القرآن»^(١). فما الذي يقصد توضيحه بهذا المثل الذي بلغنا إياه رسول الله ﷺ عن الملا الأعلى؟

إن الله تبارك وتعالى هو الملك:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾^(٢).

ومن سواه لا يملكون.

وهو سبحانه مصدر كل ملك:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾^(٣).

وقد تحجب عن الناس هذه الحقيقة أو هامهم وأهواؤهم وغرورهم؛ ولكنها واضحة تمام الوضوح لمن فتح عينيه على حقائق الوجود، وستضح تمام الوضوح لكل أحد يوم لا ملك إلا ملكه:

﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤٌ لَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٤).

هناك حيث: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن

(١) انظر ما تقدم في (ص ١٢٣).

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٤) سورة غافر: الآية ١٦.

بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون»^(١).

إنه سبحانه وتعالى هو السيد المالك، ومن سواه عبيد له:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٢).

كل من في السموات والأرض عبيد لله، شاءوا أم أبوا، فهم محكومون بسنن لا تتخلف، إلا أن يشاء خالقها ومالكها والقيم عليها:

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(٣).

كل من في السموات والأرض عبد لله، غير أن الله منح بعض مخلوقاته - ومنها الإنسان - قدرًا من حرية الاختيار، ابتلاءً وامتحاناً:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٤) إِنَّا هَدَيْنَاهُ
السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٤).

وهذه المخلوقات التي منحت حرية الاختيار لا يكتفي منها بالعبودية، بل ينبغي أن تصدر عنها العبادة، التي هي اختيار منها لأحد الطريقتين. وهي بهذا الاختيار، تحدد مصيرها.

ثم لم يتركها الخالق تواجه مشكلة الاختيار إلا بعد أن بين لها الطريق وأضائه، ونصب العلامات ووضع الإرشادات. لقد أرسل رسله ليعينها على

(١) رواه مسلم عن ابن عمر مرفوعاً. انظر: مسلم بشرح النووي ١٧/١٣١، وانظر: فتح الباري ١٧/١٦٩ - ١٧٠، حيث شارك البخاري مسلماً في روايات هذا الحديث.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٤) سورة الإنسان: الآيتان ٢ - ٣.

هذا الاختيار وليذكرها بما أودعه فيها من عبودية، لتختار طريق العبادة الصحيح :

﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١).

لقد أرسل الله سبحانه إلى عبده رسلاً منهم، رحمة بهم، ليدعوهم إلى خيرهم ونفعهم، وأي خير أعظم من أن يعرفوا أنفسهم ووظيفتهم في الحياة ووضعهم في الكون. إن هذه المعرفة أساس كل انطلاق سليم، ورأس كل خير، وجماع كل نفع.

لقد أرسل سبحانه رسله يدعون الناس إلى داره: دار السلام الذي عز تحقيقه على هذه الأرض، دار الراحة بعد العناء، والسكينة والطمأنينة بعد الخوف والقلق. ولا سلام ولا سكينة إلا بالاستسلام لله وحده. إنها دعوة تَمَحُّصَ نَفْعِهَا لِلْمَدْعُوعِينَ. وقد دعاهم الله إلى دارٍ أَعَدَّهَا لَهُمْ، هي دار الخلد، وهي خير من هذه الدار الفانية :

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ (٢).

وما الحياة التي نعيشها في هذه الدنيا إلا لحظات قصيرة تمضي كأنها السراب، يزيد من قصرها خوارؤها وفراغها حين لا تُغْتَنَمَ لعمل الصالحات، فتمضي وكأنها يوم وبعض يوم. إنها حياة قصيرة شقاؤها أكثر من نعيمها، وكَدَرُهَا يَرْبُو عَلَى صِفَائِهَا. إنها حياة لعب ولهو وزينة وتفاخر، سرعان ما تتحول إلى ذكرى. . إلى حطام. أما الدار الآخرة فهي دار الحياة على الحقيقة، الحياة التي لا تعرف الموت، وخير لمن يطلب الحياة أن يعمل لها،

(١) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٠.

وكلنا يطلب الحياة ويحرص عليها، ولكن الكثيرين تغرهم الحياة الفانية فيغفلون عن الحياة الآخرة:

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

في هذه الدار الأخرى – دار الحياة على الحقيقة – أعد الله جنة عرضها السموات والأرض، في هذه الجنة وعلى هذه المائدة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

﴿وَفِيهَا مَا دَشَّتْهُيَهٗ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (٢).

والدعوة إلى هذه المائدة دعوة عامة. ولما كان يمكن أن يجهل الناس أمر هذه المائدة، أو يسمع بها بعضهم لكنهم لا يعرفون الطريق إليها – أرسل الله داعياً يدعو إليها، عرفه طريقها، وعلمه كيف يدعو الناس إليها: فمن يستجيب لهذا الداعي ويتبعه ويقتص خطاه، وصل إلى المائدة. ومن لم يستجب له ولم يتبعه فأنى يدرك طلبته، وكيف يصل إلى بغيته؟ إنه سيضل الطريق حتماً، وستقوده قدماه إلى الهاوية.

إن الدعوة عامة، والمائدة مُعَدَّة، وصاحب الدعوة هو الله خالق الخلق ومالك الملك، هو الغني عن العالمين، وهم الفقراء إليه: في كل لحظة، وفي كل طرفة عين، وهو الرؤوف الرحيم، ومن رحمته بعباده أن أرسل إليهم رسولاً ينذر ويبشر ويدعو إلى مائدة الله. فليس هناك حرص على التعذيب، وليس الحرمان غاية، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فهو يعطي المستجيب فضلاً منه، ويحرم من أبي عدلاً منه:

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٧١.

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾^(١).

ما أجدر دعوة الله أن يُستجاب لها، وخليق بالعباد أن يسرعوا لتلبيتها وأن يتنافسوا في الاستجابة إليها:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ... ﴾.

أما من أبى تلبية الدعوة فهو المحروم المرجوم، هو العبد الآبق الذي خرج عن طاعة مولاه، فإلى أين يفر؟ وإلى أين يلجأ؟ والكل ملكه، ولا نجاة إلا بطاعته والفرار إليه.

إن رسول الله ﷺ هو الداعي إلى مائدة الله، وهو فرّق بين من لبي الدعوة ومن أبى:

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾^(٢).

ويقرر هذا مولانا رسول الله ﷺ في عبارة سهلة جامعة، حيث يقول: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسول الله، ومن أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٣). صدق الله ورسوله..

**

(١) سورة النساء: الآية ١٤٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة: انظر: فتح الباري ١١/١٧ - ١٢، طبع مصطفى

البابلي الحلبي ١٣٨٧هـ - ١٩٥٩م.

الأُمَّةُ الْوَاحِدَةُ

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»

٨ — روى الترمذي بسنده عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ .

«إنما أجلكم فيما خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس . وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى، كرجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود على قيراط قيراط . فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى على قيراط قيراط . ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين . فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا . قال: فإنه فضلي أوتيته من أشاء»^(١) .

* * *

رجع العلماء^(٢) أن هذا الحديث يحتوي على موضوعين منفصلين، كل منهما

(١) قال الترمذي: هذا حديث صحيح، انظر الترمذي بشرح ابن العربي ٣١٩/١٠ - ٣٢٣، وبشرح المباركفوري ١٧٦/٨ . ورواه البخاري عن ابن عمر، وروي قريباً منه عن أبي موسى، روى البخاري الحديثين كليهما في كتاب مواقيت الصلاة، وفي أبواب الإجارة من صحيحه . انظر الصحيح في مواقيت الصلاة ٩٧/١ تحقيق محمود النواوي وآخرين ط سنة ١٣٧٦هـ .

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٧٨/٢، وفيض الباري على صحيح البخاري الشيخ محمد أنور الكشميري ١٢٤/٢ .

مستقل عن الآخر:

الأول: بيان قصر مدة هذه الأمة بالنسبة إلى مجموع أعمار الأمم قبلها.

الثاني: تشبيه حال المسلمين مع أهل الكتابين قبلهم، في أعمالهم وتفاوت أجورهم، بأجراء اختلف عملهم وتفاوت أجرهم.

ودلالة الحديث على استقلال كل من هذين الموضوعين. واضحة في رواية الترمذي هذه، وفي رواية البخاري المماثلة لها في (فضائل القرآن)، وفي رواية البخاري للحديث نفسه في (أبواب الإجارة) حيث اقتصر على الموضوع الثاني الذي فيه التشبيه (مثلكم ومثل أهل الكتابين، كمثل رجل استأجر أجراً...)، دون أن يذكر ما يختص بالموضوع الأول، أي: «إنما أجلكم فيما خلا...» لكنه في (كتاب مواقيت الصلاة وفضلها) من صحيحه، رواه بما يوهم أنهما موضوع واحد، إذ روى الحديث بهذا اللفظ: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها، حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً. ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً. ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين...» الحديث.

فقوله: «أوتي أهل التوراة...» إلخ، يوهم أنه تفسير للجمل الأولى، وليس كذلك، بدليل الروايات الأخرى، التي ترجح أنهما موضوعان مستقلان.

والموضوع الأول يفيد أن عمر هذه الأمة قليل بالنسبة إلى مجموع عمر الأمم قبلها - فلو فرض أن الدنيا منذ أن عرفت الإنسان، بسنيها وأشهرها - قدرت بيوم واحد، لكان زمان هذه الأمة من العصر إلى المغرب من ذلك اليوم. ولا شك أن الوقت من العصر إلى الغروب قليل بالنسبة للوقت من الفجر إلى العصر.

وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث الصحيحة، كقوله ﷺ: «بُعْتُ أَنَا
والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى^(١).

وقد حاول بعضهم أن يأخذ من هذا الحديث تقدير الباقي من الدنيا، لكن
— كما يقول ابن العربي — ليس لتقديرها أصل في الدين، لا على التحقيق،
ولا على التخمين؛ لأن ذلك أمر لا يدرك بالنظر، وإنما مدركه الخبر، ولا طريق
إليه على لسان بشر إلا على لسان سيدنا محمد ﷺ، وليس عنه في ذلك مسند،
لا صحيح ولا ضعيف، وما يروى من ذلك عن الإسرائيليات محرّف لا يصح منه
حرف.

أما الموضوع الثاني فهو الموازنة بين المسلمين، وأهل الكتاب قبلهم من
يهود ونصارى، وليست الموازنة بين المسلمين وكل الأمم السابقة كما هو شأن
الموضوع الأول.

وقبل أن نشرح التمثيل في الحديث، نلقي نظرة سريعة على ألفاظه.

* * *

المفردات:

قوله: «فيما خلا» أي بالنسبة إلى ما مضى وسبقكم من الأمم.

«قيراط قيراط» القيراط النصيب، وهو في الأصل نصف دائق، والدائق
سدس درهم، وقيل القيراط جزء من أجزاء الدينار. والياء فيه بدل من الراء،
كما أنها بدل من النون في (الدينار)، بدليل الجمع على (دنانير) و(قراريط).
وتكرير القيراط في قوله: «على قيراط قيراط» ليدل على تقسيم

(١) انظر مسلم بشرح النووي ٨٩/١٨، وفتح الباري ٢٩٨/١١ - ٢٠٣ حيث ذكر
الروايات المختلفة لهذا الحديث.

القراريط على العمال، كما يقال: أقسم هذا المال على بني فلان درهماً درهماً أي لكل واحد درهم.

قوله: «فإنه فضلي» أي عطائي الزائد، والهاء ضمير الشأن، أي فإن العطاء الكثير - المدلول عليه بالسياق - فضلي أوتيه من أشياء.

بيان التمثيل في الحديث:

في الحديث تشبيه حال المسلمين مع أهل الكتابين قبلهم في أعمالهم وتفاوت أجورهم، بأجراء اختلف عملهم وتفاوت أجرهم.

ووجه الشبه مساواة الأجر للعمل لفريق وزيادته على العمل لفريق آخر.

من معاني الحديث:

يدل الحديث على مكانة هذه الأمة، التي اختارها الله واجتباها، ومنحها الكثير من فضله في الدنيا والآخرة:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسَجَدُوا وَعِبَدُوا رَبَّهُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴿١﴾﴾.

كما أن البناء اكتمل^(٢) بنبي هذه الأمة - ﷺ، تم العمل كذلك بهذه الأمة. ومُنِحَتْ - لهذا - الأجر مضاعفاً.

إن البناء في الحديث السابق، والعمل في هذا الحديث، يرمزان للعقيدة السليمة الكاملة، ولدين الله كما أراد الله، وللإيمان الكامل المتكامل

(١) سورة الحج: الآيتان ٧٧ - ٧٨.

(٢) في قوله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأجملها إلا موضع لبنة...».

الذي حققته هذه الأمة عندما آمنت بالله وصفاته وكتبه ورسله – دون تفريق بين أحد منهم – وبملائكته، وباليوم الآخر وما فيه .

أما اليهود والنصارى فلم يكملوا، ولم يحافظوا على عقائدهم وكتبهم من الانحراف والتحريف، ويا ليتهم إذا انحرفوا وحرّفوا – آمنوا بمن أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليقوموا انحرفهم ويخلصوا عقيدتهم، لكنهم كفروا بمن أرسل إليهم: كفر اليهود حين كذبوا من أرسل إليهم وقتلوا بعضهم:

﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (١).

وكذلك كفر النصارى حين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل!

لم يكمل أهل الكتاب المسيرة، وشوّهوا البناء، وأخلّوا بعقد العمل، فأعطوا من الأجر على قدر عملهم حيث انتهى بهم البناء سليماً، فما كان الله ليُضيع أجرَ عاملٍ التزم بالعقد، على مقتضى شروطه. لكن العاملين بعد الانحراف وعلى غير شروط العقد، وبعد أن أرسل إليهم صاحبُ العمل من يبيّن لهم انحرفهم، ويُحذّرهم منه، ويدلّهم على الصواب فيما أخطأوا فيه، فلم يسمعوا قوله، ولم يلتفتوا إليه – هؤلاء المنحرفون المُصرون أحيطوا عملهم، واستحقوا العقاب، جزاء لهم على مخالفتهم، وعلى تشويهِهم للعمل الذي أُسند إليهم، إن عملهم حينئذ ليس لصاحب العمل، بل للهوى، الذي اتخذوه إلهاً من دون الله .

فالأجرُ المُعطى لليهود والنصارى في هذا الحديث إنما هو لمن كان

(١) سورة البقرة: الآية ٨٧.

منهم مستقيماً على دينه، لم ينحرف عنه ولم يحرفه ولم يكفر برسول جاءه من بعد.

وقد جاء في رواية للبخاري^(١) أن اليهود والنصارى لما أسند إليهم العمل عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً. ونسبة العجز هنا هي للأمة والجنس، حيث لم يكملوا المسيرة إلى نهايتها، ولم يستمروا في العمل إلى تمامه، ولم يؤمنوا بمن أرسل الله من بعد إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه. والعطاء الذي أخذوه لم يأخذوه على عجزهم، بل المقصود أن الإعطاء كان لمن آمن واستقام قبل العجز، أي قبل أن يكفر من كفر بمن أرسل إليهم. أما هؤلاء الكافرون فقد حبط عملهم؛ لأنهم ردوا العمل على صاحبه وما قبلوا شروطه:

يوضح هذا رواية البخاري عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شَرَطْتَ لنا وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا، وتركوا. واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال لهم: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا. فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما. فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

(١) روي الأول في كتاب مواقيت الصلاة، والثاني في أبواب الإجارة.

يقول ابن حجر في فتح الباري^(١): (وظاهر المثل الذي في حديث أبي موسى أن الله تعالى قال لليهود: آمنوا بي وبرسلي إلى يوم القيامة، فأمنوا بموسى إلى أن بعث عيسى فكفروا به، فقولهم: (لا حاجة لنا إلى أجرك) إشارة إلى أنهم كفروا وتولوا واستغنى الله عنهم. وهذا من إطلاق القول وإرادة لازمه؛ لأن لازمه ترك العمل المُعَبَّرُ به عن ترك الإيمان. وقولهم: «وما عملنا باطل» إشارة إلى إحباط عملهم بكفرهم بعيسى، إذ لا ينفعهم الإيمان بموسى وحده بعد بعثة عيسى. وكذلك القول في النصارى. وقوله: «واستكملوا أجر الفريقين» أي بإيمانهم بالأنبياء الثلاثة).

إن أمة محمد ﷺ هي التي أتمت العملَ وأنجزته، حتى بدت وحدته وظهرَ جماله وتكامله. وأخذ رُونُقه وبهاءه، فاستحقت الأجرَ مضاعفاً.

ولا يضيرُ هذه الأمةَ تأخُرُ زمانِها، فإن المنجزات التي تمت على يدها جعلتها تسبق غيرها ومنحتها القوامة والقيادة والتوجيه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «نحن الآخرون السابقون، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا»^(٢).

لقد كانت هذه الأمةُ مُدْخَرَةً في ضمير الغيب لتحمل رسالتها في الوقت المناسب:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾^(٣).

أي خير الأمم وأنفع الناس للناس.

(١) في أبواب الإجارة.

(٢) هذا بعض حديث رواه الشيخان والنسائي. انظر: «جمع الفوائد من جامع الأصول

ومجمع الزوائد ٥٨٣/٢ لمحمد بن محمد بن سليمان، طبع ونشر السيد عبد الله

هاشم المدني بالمدينة المنورة سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

«والتعبير بكلمة (أخرجت) المبني لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة تخرج هذه الأمة إخراجاً. وتدفعها إلى الظهور دفعاً، من ظلمات الغيب»^(١)، لتكون خير أمة أخرجت للناس.

وقد روى ابن كثير في تفسيره كثيراً من الأخبار الدالة على فضل هذه الأمة منها:

ما جاء في مسند أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومستدرک الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل».

ونقل ابن كثير عن مسند أحمد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء»، فقلنا يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم».

قال ابن كثير تفرد به أحمد من هذا الوجه. وإسناده حسن.

وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ:

«أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»^(٢).

(١) ظلال القرآن ٣٠/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠/١ وما بعدها. نشر مكتبة النهضة الحديثة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م، وانظر الروايات المختلفة للحديث الأخير في صحيح مسلم بشرح النووي ٩٥/٢ -

حيثيات الأفضلية، وتكاليف القيادة:

لم تنل الأمة الإسلامية هذه الأفضلية اعتباراً، ولم تحظ بالخيرية مصادفة، بل كان لها الأفضلية والخيرية والاصطفاء على أساس التزامها بشروط العقد ومقتضياته، وقيامها بتكاليفه وعملها على وفقه:

ولهذا سبق (الاجتباء) شروطه، في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسَجَدُوا وَعِبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ .

ولحق بالخيرية أسبابها في قوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ . [سورة البقرة: الآية ١١٠].

وقد رأى عمر بن الخطاب دعةً من الناس في حجة حجها. فقرأ هذه الآية: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» الآية، ثم قال: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها»^(١).

إن الأمة المسلمة ينبغي أن تعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت للناس لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة؛ لكونها خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاءً، ولا يُسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له. وهي بتصورها الاعتقادي ونظامها الاجتماعي أهل له، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي وبعمارتها للأرض – قياماً بحق الخلافة – أهل له كذلك. ومن هذا يتبين أن المنهاج الذي تقوم

(١) تفسير ابن كثير ٤١٣/١.

عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير، ويدفعها إلى السبق في كل مجال، لو أنها تتبعه وتلتزم به وتدرك مقتضياته وتكاليفه .

وفي أول مقتضيات هذه المكانة أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد، وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إنها خير أمة أخرجت للناس لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ، وليس من قبيل توزيع الاختصاص والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: «نحن أبناء الله وأحباؤه»، كلا، إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر وإقامتها على المعروف، مع الإيمان بالله الذي يحدد المعروف والمنكر^(١).

إن لهذه الأمة وظيفة ضخمة ودوراً قيادياً في حياة الناس :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

يقول ابن كثير: (الوسط هنا الخيار والأجود، كما يقال: قرش أوسط العرب نسباً وداراً: أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه: أي أشرفهم نسباً. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى :

﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٣).

ثم نقل عن الإمام أحمد ما رواه بسنده عن أبي سعيد قال: قال

(١) ظلال القرآن. لسيد قطب ٤/ ٣٠ - ٣٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

رسول الله ﷺ: «يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة، فيُقَالُ له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيُدْعَى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. قال: فذلك قوله: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» قال: والوسط: العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم» رواه البخاري والترمذي والنسائي^(١).

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيَم وتُبدي فيهم رأياً فيكون هو الرأي المعتمد وترن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها وتقول: هذا حق وهذا باطل، وهي شهيدة على الناس وفي مقام الحَكَم العادل بينهم. وبينما هي تشهد مع الناس فإن الرسول الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة.

إنها الأمة الوسط بكل معاني الوسط: سواء من الوسط بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط، بمعن الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

«أمة وسطاً» في التصور والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي.

أمة وسطاً في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كل ناعق وتقلد تقليد القردة المضحك، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر لكل نتاج للفكر، وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن، أني وجدها أخذها في تثبت ويقين.

(١) تفسير ابن كثير ١/١٩٦.

«أمة وسطاً»: في التنظيم والتنسيق. لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهديب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب.

«أمة وسطاً» في الارتباطات والعلاقات: لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تطلقه كذلك فرداً جشعاً لا همّ له إلا ذاته.

«أمة وسطاً» في المكان، في سرّة الأرض، وفي أوسط بقاعها، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً وتشهد على الناس جميعاً.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنها تخلّت عن منهاج الله الذي اختاره لها. واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها^(١).

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وباستقامة معتقداتها وصفاء موردها، وبعملها ودورها في الحياة الإنسانية، لقد أعطاه الله على يد محمد ﷺ شرعاً عظيماً كاملاً.

فالعمل على منهاجه وسبيله يعطى من الحسنات على قليله ما لا يعطاه غيرهم على العمل الكثير.

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «أن الله تعالى يقول: يا عيسى، إنني باعث بعدك أمة، إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم؟ قال:

(١) ظلال القرآن ١٦/٢ - ١٨ باختصار.

يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيتهم من حلمي وعلمي»^(١).
 إنه فضل الله وتوفيقه، من وضع قدمه على الطريق يثبتته الله، ومن أقبل
 على الله أقبل الله عليه أكثر منه، ومن يعمل الحسنة تضاعف له إلى عشرة
 أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إنه فضل الله، فالعبد
 لا يستحق على مولاه لخدمته أجراً، بل المولى يعطيه من فضله، وله أن
 يتفضل على من يشاء من العبيد على وجه المزيد، فإنه يفعل ما يشاء ويحكم
 ما يريد.

وأخيراً فإن الحديث يشير إلى تحالف اليهود والنصارى ضد الإسلام،
 حيث لم تعترض كل طائفة بمفردها عند تقييم عملها وأجرها، بل جمعوا
 ما عمله كل منهما ليحتجوا بمجموعه على كثرته وقلة أجره، بالنسبة إلى
 ما أخذه المسلمون في وقت أقل من وقتهم. وقد أخذوا (أي اليهود والنصارى
 معاً) قيراطين، وأخذ المسلمون قيراطين، ووقتهم أكثر ووقت المسلمين أقل.
 وكما يقول ابن العربي: فإن العملين إذا تباينا واستوى أجر الكثير والقليل،
 كان صاحب الكثير أقل أجراً.

وهذا التحالف قديم، وسيظل ما دامت السماء والأرض:

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٨/١، ورواه كذلك البراز والطبراني. ورجال أحمد رجال
 الصحيح غير الحسن بن سوار وأبي حليس يزيد بن ميسرة، وهما ثقتان كما في
 مجمع الزوائد ٦٨/١٠.
 وقد رواه الحاكم وقال: هو على شرط البخاري وأقره الذهبي (المستدرک
 ٣٤٨١١).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (١).

إن دور الأمة الإسلامية عظيم، ومكانها الصدارة، فينبغي أن نفظن لهذا وأن يملأنا ثقة واعتزازاً، وأن يدفعنا إلى العمل حتى نكون أهلاً لما أريد لنا. وصدق الله العظيم:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

من فقه الحديث:

من المجمع عليه أن أول وقت الظهر من زوال الشمس. وينتهي وقت الظهر إذا صار ظل كل شيء مثله، وحينئذ يدخل وقت العصر. هكذا ذهب الجمهور ومنهم مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو يوسف ومحمد صاحب أبي حنيفة وذهب أبو حنيفة إلى أن آخر وقت الظهر إذا صار ظل كل شيء مثليه، واستدل أبوزيد الدبوسي بالحديث الذي تناولناه؛ فإن قول اليهود والنصارى: ما بالنا أكثر عملاً وأقل أجراً يدل على أن الوقت من الظهر إلى العصر أكثر من الوقت الذي بين العصر والمغرب.

وقد ردَّ هذا الاستدلال بأن الأحاديث التي تدل على أن الوقت ينتهي بالمثل أولى بالأخذ؛ لأنه قصد بها بيان الوقت، على حين أن الحديث الذي استدل به لأبي حنيفة قصد به ضرب المثل (٢).

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٢) انظر المغني لابن قدامة مع الشرح الكبير ١/٣٨٢ - ٣٨٣.

وفي بداية المجتهد، لابن رشد (٧٢/١): أن ما قاله أبو حنيفة هنا من أن آخر وقت الظهر ينتهي إذا صار ظل كل شيء مثليه – هو إحدى الروايتين عنه. وروي عنه أن آخر وقت الظهر إذا صار ظل كل شيء مثله، وأول وقت العصر إذا صار ظل كل شيء مثليه – والوقت الذي بين المثل والمثلين ليس يصلح لصلاة الظهر قال ابن رشد: وبه قال أصحابه أبو يوسف ومحمد.

والحقيقة أن الذي قال بهذا بعض مشايخ المذهب الحنفي. أما أبو يوسف ومحمد فرأيهما مع الجمهور، كما هو مبين في الهداية وشروحها^(١).

**

(١) فتح القدير لابن الهمام، وبهامشه العناية لأكمل الدين محمد بن محمود البابرّي، وكلاهما شرح للهداية، ١٥٢/١ – ١٥٣ المطبعة الأميرية سنة ١٣١٥ هـ.

«وكلاً وعد الله الحسنى»

٩ - قال الترمذي : (حدثنا قتيبة ، حدثنا حماد بن يحيى الأبح ، عن ثابت البناني ، عن أنس ، قال :

قال رسول الله ﷺ : «مثل أمتي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره» .

قال : وفي الباب عن عمار ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عمر . وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

قال : وروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح ، وكان يقول : هو من شيوخنا^(١) .

* * *

(١) الترمذي بشرح ابن العربي ٣١٦/١٠ - ٣١٨ ، وبشرح المباركفوري ١٧٠/٨ - ١٧٢ . ورواه أحمد عن أنس أيضاً . وعن عمار . وفي مجمع الزوائد (٦٨/١٠) : ورواه عن عمار بلفظ حديث الباب : أحمد والبخاري والطبراني ، ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن بن قزعة وعبيد بن سليمان الأغر ، وهما ثقتان . وفي عبيد خلاف لا يضر . اهـ .

وقال ابن حجر في الفتح : وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة .
وحماد بن يحيى الأبح - بفتح الهمزة والباء الموحدة بعدها حاء مهملة - هو أبو بكر السلمي البصري ، صدوق يخطيء ، (تهذيب التهذيب ٢١/٣ - ٢٣) . أما قتيبة فهو ابن سعيد ، أبو رجاء . روى عنه الجماعة (تهذيب ٣٥٨/٨ - ٣٦١) ، وثابت البناني رأى النقاد فيه حسن (تهذيب ٢/٢ - ٤) .

وهذا حديث آخر يشيد بهذه الأمة، ويبين فضلها، واستمرار الخير فيها إلى يوم القيامة.

وقد سبق تشبيه الهدى الذي أرسل به نبي هذه الأمة إلى الناس جميعاً بالغيث، وفي هذا الحديث تشبيه الأمة بالمطر:

فهو يشبه الأمة في تتابعها وخيرها والإفادة منها، بالمطر في تتابعه وتدفعه وخيره والاستفادة منه.

ووجه الشبه: استمرار الإفادة واشتراك المجموع فيها، وحاجة الغير إلى الشيء.

لقد بين لنا حديثٌ سابق مكانة هذه الأمة، ودورها القيادي في حياة البشرية، وهي مكانةٌ ودورٌ ليسا مُحدَّدين بزمن، بل مُطلَقَيْن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لكنهما محددان بشروط ومواصفات وتكاليف، متى التزمتها الأمة وطبقتها تحقق لها الخيرية والأفضلية والقيادة في أي زمان. ولا تزال طوائف من هذه الأمة في كل زمن ملتزمة بمقاييس الخيرية ومواصفات الأفضلية، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»^(١).

فالحديث السابق يبين فضل هذه الأمة. وهذا الحديث يبين تلاحق هذه الأمة في الفضل وتتابعها في الخير وتلاحمها في النفع، وسيجيء تشبيهها بالبنيان وبالجسد، إن أمة الإسلام كيان واحد، يؤدي رسالته ويتجه نحو غايته، ولا يمنع هذا أن يكون بعض أعضاء هذا الكيان أفضل من بعض، فهذا أمر خارج عن سياق هذا الحديث، تكفل ببيانه أقوال أخرى للرسول ﷺ، أما سياق

(١) رواه الشيخان، وانظر: البخاري بحاشية السندي ١٨٣/٤، ١٦/١ - ١٧: أي في كتابي العلم والاعتصام.

حديثنا هذا فهو لبيان أن الخير يسري في هذه الأمة من أولها إلى آخرها. فنفي العلم بأيهما خير: الأول أو الآخر، يُرادُ به إثبات الخير والنفع في الأول وفي الآخر، وحاجة الناس إلى هذه الأمة.

وقد ظن بعض العلماء أن هذا الحديث ينفي المفاضلة بين أفراد هذه الأمة، ويُسوِّي بين الأولين والآخرين في درجات الفضل فاعترضوا عليه، لِمَا ثبت من فضل الأولين في القرآن والسنة:

قال ابن العربي في شرحه على الترمذي: اعترضوا على هذا الحديث، فردَّوه لقوله تعالى: «السابقون»، حيث وقع من كتاب الله، وبقوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِ﴾.

وقال عليه السلام لخالد بن الوليد، لما تكلم في عبد الرحمن بن عوف: «لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدُّ أحدهم ولا نصيفه» فضلاً عن أن يستوي أول هذه الأمة وآخرها.

ثم ذكر ابن العربي أن الصحابة هم الذين أسسوا الدين وأقاموا قواعده، وأنهم اقتعدوا هذه المراتب بمناقب تَسَامَوْا إليها واستولوا عليها، وتفاوتت فيها درجاتهم، فمن سابق، ولاحق، وأول وآخر. ويبعد كل البعد تساوي المبتدي مع المنتهي منهم، فما ظنك بمساواة من يأتي بعدهم لهم، هذا لا يخطر ببال أحد.

ثم حمل معنى الحديث على أن الآخرين قد يفضلون السابقين في صفة واحدة فقط هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تكثر المناكر في آخر الزمان وَيَقِلُّ الْمُغَيَّرُونَ لها، ويذهب المعروف ويعدم الداعي إليه والأمر به، فإذا قام واحد بهذا فله أضعاف ما كان للصحابة من الأجر في هذه الخصلة وحدها،

ويفضل الصحابةُ الخلقَ بسائر الصفات العظيمة التي نظامها الصحبة الكريمة وتلقى الأخلاق الطاهرة، واستدل لهذا بما روي عن أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً: «إن من ورائكم أيام الصبر، للعامل فيهن أجر خمسين منكم قالوا: بل منهم؟ قال: بل منكم. قالوا: لِمَ يا رسول الله؟ قال: لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً».

ثم قال: «ويحتمل أن يكون المعنى: أن الناظر إلى ظاهر أول هذه الأمة وآخرها تتقارب أوصافهم وتتشابه - أفعالهم - لا يحكم بالتفضيل بينهم دون النظر إلى الباطن. والأول أصح^(١)».

وهكذا نجد أن ابن العربي يفهم من هذا الحديث نفي الأفضلية للأولين على الآخرين، ولهذا اجتهد في فهم الحديث فهماً لا يتعارض مع ما هو ثابت من فضل القرون الثلاثة الأولى على غيرهم، ويؤديه الاجتهاد إلى أن أفضلية الآخرين إنما هي نسبية، حيث يفضلون الأولين في معنى واحد فقط: هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم يذكر احتمالاً آخر لمعنى الحديث لا يرتضيه، مع أن هذا الاحتمال المرفوض هو الأقرب إلى المعنى.

لكن المباركفوري في شرحه على الترمذي ينقل عن بعض العلماء فهماً للحديث يقارب الفهم الذي قررناه سابقاً:

فعن التوربشتي قال: لا يحمل هذا الحديث على التردد في فضل الأول

(١) ابن العربي على الترمذي ٣١٦/١٠ - ٣١٨. وقوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان...﴾ سورة التوبة: الآية ١٠٠.

وقوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم...﴾ سورة الحديد: الآية ١٠. وقصة خالد مع عبد الرحمن بن عوف في مسلم بشرح النووي ٩٢/١٦، وليس في الحديث «كل يوم». وحديث أبي ثعلبة الخشني رواه الترمذي، وقال: حسن غريب صحيح ورواه أبو داود من طريق ابن المبارك، وابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم، عن عتبة بن أبي حكيم (تفسير ابن كثير ١١٨/١).

على الآخر، فإن القرن الأول هم المفضلون على سائر القرون من غير شبهة. ثم الذين يلونهم، وفي الرابع اشتباه من قبل الراوي، وإنما المراد نفعهم في بث الشريعة والذب عن الحقيقة.

وقال الطيبي: وتمثيل الأمة بالمطر إنما يكون بالهدى والعلم، كما أن تمثيله ﷺ الغيث بالهدى والعلم^(١). فتختص هذه الأمة المشبهة بالمطر بالعلماء الكاملين المكملين لغيرهم. فيستدعي هذا التفسير أن يراد بالخير النفع، فلا يلزم من هذا المساواة في الأفضلية. ولو ذهب إلى الخيرية فالمراد وصف الأمة قاطبة سابقتها ولاحقتها وأولها وآخرها بالخير، وأنها ملتحمة بعضها مع بعض، مرصوفة كالبنيان، مفرغة كالحلقة التي لا يدري أين طرفاها. فالحاصل أن الأمة مرتبطت بعضها مع بعض في الخيرية، بحيث أبهم أمرها فيها، وارتفع التمييز بينها، وإن كان بعضها أفضل من بعض في نفس الأمر. وهو قريب من سوق المعلوم مساق غيره، وفي معناه أنشد مروان بن أبي حفصة: تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندري أي يوميه أفضل يومٌ بدء العمر أو يوم يأسه وما منهما إلا أغرُّمُحَجَّلُ ومن المعلوم علماً جلياً أن يوم بدء العمر أفضل من يوم يأسه، لكن البدء لما يكن يكمل ويستتب إلا باليأس، أشكل عليه الأمر، فقال ما قال. وكذا أمر الأمة والمطر^(٢).

إنه مع تساوي الأمة في الخير والنفع من حيث إنها كيان واحد، فلا شك أن للقرون الأولى مكانتهم وفضلهم وامتيازهم وسبقهم، بشهادة القرآن

(١) هكذا، وصحته: تمثيل الهدى والعلم بالغيث.

(٢) انظر: شرح المباركفوري على الترمذي ١٧٠/٨. وقول التوربشتي: (وفي الرابع اشتباه) يشير إلى حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة). انظر مسلم بشرح النووي ٨٧/١٦.

والحديث: وقد سبق ذكر قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ .

وقوله ﷺ: «يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس، فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»^(١) قاله عليه السلام لخالد بن الوليد عندما سب عبد الرحمن بن عوف. فهذه النصوص التي تفضل أهل القرون الثلاثة على غيرهم، ثم تفضل تفضيلاً داخلياً بين أهل هذه القرون تقطع بأنه لا يتساوى الأول والآخر.

وقد روى ابن خلاد في هذا المعنى حديثاً في كتابه (الأمثال) نذكره هنا ولا نطيل الوقوف أمامه، إذ بعد النظر في سنده تبين أنه مرسل ضعيف، وقد ذكر ابن القيم هذا الحديث في كتابه (إعلام الموقعين)^(٢) وإليك نصه:

(قال الحافظ أبو محمد بن خلاد الرامهرمزي: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلتي، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني سليم بن عامر: قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرتُ بالرب، وأوتيتُ جوامعَ الكلم،

(١) هذه الأحاديث من صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٨٣ - ٩٤. و (فئام) بكسر الفاء، أي جماعة.

(٢) إعلام الموقعين مع حادي الأرواح لابن القيم ١/٢٨٣.

وأوتيت الحكمة، وضُرب لي من الأمثال مثل القرآن، وإني بينا أنا نائم إذ أتاني ملكان، فقام أحدهما عند رأسي، وقام الآخر عند رجلي، فقال للذي عند رأسي: اضرب مثلاً وأنا أفسره. فقال الذي عند رأسي - وأهوى إليّ - : لَتَنَمَ عَيْنُكَ، وَلَتَسْمَعُ أذُنُكَ وَلَيَعِ قَلْبُكَ. قال: فكنث كذلك، أما الأذن فتسمع، وأما القلب فيعي، وأما العين فتنام. قال: فضرب مثلاً فقال: بركة فيها شجرة نابتة، وفي الشجرة غصن خارج. فجاء ضارب فضرب الشجرة، فوقع الغصن ووقع معه ورق كثير، كل ذلك في البركة لم يَعدْها، ثم ضرب الثانية فوقع ورق كثير - كل ذلك في البركة لم يَعدْها - ثم ضرب الثالثة، فوقع ورق كثير، لا أدري ما وقع فيها أكثر أو ما خرج منها.

قال ففسّر الذي عند رجلي، فقال: البركة هي الجنة. وأما الشجرة فهي الأمة، وأما الغصن فهو النبي ﷺ. وأما الضارب فمَلَك الموت: ضرب الضربة الأولى في القرن الأول فوقع النبي ﷺ وأهل طبقتة، وضرب الثانية في القرن الثاني فوقع كل ذلك في الجنة، ثم ضرب الثالثة في القرن الثالث فلا أدري ما وقع فيها أكثر أم ما خرج منها^(١).

فهذا الحديث يفيد أفضلية القرون الثلاثة الأولى، وقد جاء في هذا المعنى في الصحاح ما يغنينا عن الاستدلال بالضعيف، وهو حديث أقرب إلى الرؤيا وتعبيرها.

**

(١) هذا حديث مرسل؛ لأن سليم بن عامر الكلاعي، أبو يحيى الحمصي لم يدرك النبي ﷺ، لكنه روى عن بعض الصحابة وهو ثقة مات سنة ١٣٠ هـ. (تهذيب التهذيب ٤/١٦٦ - ١٦٧).

أما الراوي عنه وهو صفوان بن عمرو بن هرم السكسكي - نسبة إلى السكاسك وهي بطن من كنده فقد وثقه النقاد (تهذيب ٤/٤٢٨ - ٤٢٩).
أما يحيى بن عبد الله بن الضحاك، أبو سعيد البابلتي الحراني فأكثر النقاد يضعفونه (ميزان الاعتدال ٣/٢٩٥)، طبع الخانجي الكتبي بمصر سنة ١٣٢٥ هـ.

حتى لا تغرق السفينة

١٠ - روى البخاري^(١) بسنده عن النعمان بن بشير، قال: قال

رسول الله ﷺ:

«مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها، إذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً».

* * *

بيان التمثيل في الحديث:

يشبه الرسول ﷺ حال المجتمع في اختلاط الصالح والطالح من أفراده واشتراك المطيع والعاصي فيه، والموقف الذي ينبغي أن يتخذه الصالح إزاء المسيء، بحال سفينة اشترك ركابها في ملكيتها، فأراد بعضهم أن يتلف نصيبه فيها بما يسبب غرقها.

ووجه الشبه: هو نجاة المشتركين في حال دون حال.

(١) رواه البخاري في كتاب الشركة من صحيحه بحاشية السندي ٥٣/٢. ورواه كذلك في آخر كتاب الشهادات (٧٧/٢ بحاشية السندي) مع اختلاف في بعض الألفاظ.

من معاني الحديث :

يبين معلّم الإنسانية وغرة جبينها محمد ﷺ في هذا الحديث معنى من أعظم المعاني، ويقرب فيه إلى الأذهان قاعدة من أهم قواعد الاجتماع، وقانوناً من قوانين الحياة، وأصلاً عظيماً من أصول الدين، ذلكم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد ذكرنا آنفاً فضل هذه الأمة، وأنها ما كانت خير أمة إلا بإيمانها وقيامها بهذا الأصل العظيم، الذي به تكون الزعامة للخير، وبدونه يترك الميدان للشّر يصول فيه ويجول.

إن الحياة تزخر بالمتناقضات: فيها الليل والنهار، والمؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، واللذة فيها لا تخلو من ألم، والسعادة ممزوجة بالشقاء، واليسر مغلف بالعسر، والحياة مقترنة بالموت.

هذا الاختلاط والامتزاج والاقتران هو محلّ ابتلاء واختبار من ناحية، ومُشيرٌ أشواق إلى حياة أخرى تتمحض فيها اللذة والسعادة والسرور والخير، من ناحية أخرى.

فوجود الصالح والطالح، والمحسن والمسيء في هذه الحياة تحقيق لما تحفل به من تناقض.

والشريعة لا تتوقع أن تستأصل الشر من حياة البشر، لأن طبيعة الحياة المعدّة للابتلاء والاختبار تستلزم وجوده. فالتكليف بإزالة الشر واستئصاله من الأرض تكليف بما لا يستطاع، وهو ما تنتزه الشريعة عن أن تكلف به، لكنها تكلف بما هو في حدود الطاقة، ومما هو في حدود الطاقة أن يتغلب الخير على الشر في صراعهما؛ أن يتكلم الخير، ويخرس الشر. أن يظهر الخير ويُعلن به، ويتوارى الشر. أن يكون الخير معروفاً، والشر منكراً.

في الإمكان أن تكون السيادة للخير، وأن يُرغم أنف الشر. وهذا عين ما أرادته الشريعة، وما كلفتنا به، وهذا هو معنى المحاوراة بين الله سبحانه وتعالى وإبليس اللعين، الذي تضرَّع إلى الله أن يؤخره إلى يوم القيامة، ثم أقسم بعزة الله على أن يغوي الناس أجمعين. إلاَّ عباد الله المخلصين. وهؤلاء العباد المخلصون هم أهل الخير وحراسه الداعون إليه والمنافحون عنه إلى يوم القيامة. وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم آمنوا وكانوا يتقون. وهم حزب الله المفلحون.

من المسؤول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

يتقاسم هذه المسؤولية كل من الأمة الإسلامية - وعلى رأسها حكامها - والمجتمع الإسلامي، والفرد المسلم.

فالأمة الإسلامية وعلى رأسها حكامها - عليها أن تحقق الإسلام في داخلها أولاً، ثم عليها أن تحمله إلى هذا العالم مبشرة به، لتخرج عالم اليوم - كما أخرجت عالم الأمس - من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما عبر بهذا أحد الصحابة الكرام في مواجهة له مع قائد الفرس.

إن مسؤولية هداية هذا العالم تقع على عاتق الأمة المسلمة، التي أُعِدَّتْ - بعقائدها ومناهجها - لتكون خير أمة أخرجت للناس، وهي بِتَحَلُّفِهَا عن القيام بهذا الدور، تركت الزعامة للشر، فانكس الناس وعاشوا حياة حيوانية خالية من القيم الإنسانية التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان، والتي لا يمكن أن تتوفر له في أمثل صورها إلاَّ بدين الله؛ دين الإسلام.

والعالم الغربي اليوم في حالة فراغ عقائدي، بعد أن جرب كثيراً من المذاهب والديانات حتى الوثنية منها، وهو في حالة استعداد الآن ليقبل على

دين الله ومنهج النجاة، ولا يحتاج إلا إلى أن يحسن المسلمون عرض الإسلام على الناس، ولن يحسنوا هذا العرض حتى يطبقوه على أنفسهم التطبيق الصحيح، إذ أن هذا التطبيق هو دليل إيمانهم به وتحمسهم له، وإلا كيف يعرضون ما لا يؤمنون به ولا يطبقونه. إن فاقد الشيء لا يعطيه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِم تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٤﴾ كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: الآيتان ٢ - ٣].

أما مسؤولية المجتمع فهي في رقابته على الأفراد، وإن تكوين رأي عام صالح في المجتمع يزيد من قوة المجتمع وترابطه ويحافظ عليه من الانهيار. مثل هذا المجتمع تكون السيادة فيه للخير والمعروف فيعين الصالح على صلاحه، ولا يجد الضعيف ثغرة ينفذ منها ضعفه. وهذا الرأي العام سوط يقع على من قويت عنده نوازع الشر حتى أظهرها وأعلنها واستخف بقيم الجماعة وخرج على خطها.

إن الضعف موجود، ولكن ينبغي ألا يكون القاعدة. وإن الشر موجود، لكن ينبغي ألا تكون له السيادة. والإسلام يربي الإنسان تربية تجعله رقيقاً على نفسه، فإذا ضعف وزل، فأمامه الفرص العديدة للنهوض، والله تعالى يقول:

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (١).

وما دام ضعيفاً فالخطأ منه متوقع.

والمطلوب منه ألا يرضى عن الخطأ وأن يقلع عنه، لا أن يستمر فيه أو يستعذبه ويستمره. والمفروض فيه أن يكون كالطفل عندما يتعلم أن يقيم

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

صلبه وأن يستقل بالمشي على قدميه: إنه يقف ويقع، ويخطو الخطوة والخطوتين ويسقط. ثم يقف ويمشي ويسقط وهكذا حتى تتمكن قدمه من الأرض وتتوازن حركاته، وتنسجم أعضاؤه فيسير بخطى ثابتة.

والإنسان مأمور بالاستقامة، وموعود عليها بالأمن والسعادة:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ (١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢).

وهو عندما يقيم نفسه على أمر الله ليحقق الاستقامة المطلوبة منه، فتتحقق له السعادة المرجوة في الدنيا والآخرة - يعرض له ما يعرض للطفل عند تعلمه المشي، فيسقط. ولا يتصور حينئذ أن سقوطه خير له، فلا يرضى أحد لنفسه ولا لغيره أن يكون كسيحاً مقعداً، أو مريضاً زمناً، فعليه إذاً أن ينهض ثانية، فيتوب ويستغفر ويقلع عن الذنب، فيتوب الله عليه، ثم يخطو خطوات فيسقط ثم ينهض فيتوب الله عليه، وهكذا حتى يستقيم على الطريق:

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الدُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ (٣).

وقال ﷺ في الحديث القدسي: «أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب: اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ

(١) سورة هود: الآية ١١٢.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ١٣.

(٣) سورة الزمر: الآية ٥٣.

بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي . فقال تبارك وتعالى :
أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . فقد غفرت
لعبدي ، فليفعل ما شاء»^(١) . متفق عليه . وهذا الحديث في معنى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢) .

إن هذه النصوص تبين أن هذا المخطيء يدرك خطأه، ولا يرضى عنه،
لأنه يعلم أن له رباً يعاقب بالذنب ويعفو عن الذنب، يعاقب بالذنب لمن أتاه
فلا يدرك أنه خطأ، لا عن جهل به، بل عن عدم مبالاة وعدم إيمان بلقاء ربه،
ويعفو عن الذنب لمن اندفع إليه بضعفه، لكنه يستدرك فيستغفر ربه، ويقلع
عن خطأه، ومثل هذه النفسية تنتهي بصاحبها إلى الإقلاع عن الخطأ نهائياً .
أما المجاهر بالخطأ الذي لا يحاول تصحيح مساره، بل لعله يظن أن من حقه
أن يفعل ما يحلوه له دون قيد أو حدود، حتى ولو كان على حساب الجماعة،
فهو بإصراره وإعلانه يعطي للجماعة حقها في الدفاع عن نفسها ضد هذا
المرض الذي اتخذ - بإعلانه - شكلاً وبائياً يهدد حياتها، فلها حينئذ أن
تحاصر المرض وتقاومه بكل الوسائل بما في ذلك البتر، يقول ﷺ : «من
أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا صفحته
نقم عليه كتاب الله»^(٣) .

وقوله: «كل أمتي معاقى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل
الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستر الله عليه فيقول: يا فلان، عملت كذا

(١) رواه مسلم في كتاب التوبة من صحيحه (بشرح النووي ٧٥/١٧) وانظر: رياض
الصالحين: ص ١٨٦ .

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٥ . (٣) الموطأ (طبعة الشعب): ص ٥١٦ .

وكذا، وقد بات يستره ربه، وهو يصبح يكشف ستر الله عليه»^(١).

وغالباً ما يُبَرَّرُ المخطيء خطأه بالحرية، وكثيراً ما يرفع عقيرته صائحاً بكلمة تتردد كثيراً في أيامنا هذه وهي قوله (أنا حر). كأن الدنيا لم تُخلَقْ إلاً له، وكأن أحداً لا يشاركه في السفينة التي يركبها، وكأنه لا يدرك أن أخطائه اعتداءً على حرية الآخرين، وكأنه لا يدري أن الحرية المطلقة ليس لها مكان في هذا الكون، المحكوم بقوانين يسير على وفقها ولا يخرج عن دائرتها، وإلاً لكانت الفوضى التي تستحيل معها الحياة.

إن الكون وما فيه خَلَقَ الله :

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٢).

والإنسان من خَلَقَ الله، فهو عبد الله، فكيف تكون للعبد حرية مطلقة؟ وهي لا تكون إلاً للسيد المالك الخالق، هو وحده الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد:

﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٣).

كيف يكون لهذا الإنسان الضعيف حرية مطلقة؟ وهو لا يدري شيئاً عن ولادته، ولا يعرف متى تكون نهايته، لم يؤخذ رأيه حين جيء به إلى الحياة، ولا يُستأذن حين يميتة الله راحلاً عنها:

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٤).

(١) صحيح البخاري ٢٤/٨ ط. الشعب. باب ستر المؤمن على نفسه، من كتاب الأدب.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٤) سورة الكهف: الآية ٥١.

ليست الحرية مطلقة في الواقع حتى عند الأمم المادية. فقد يعطى الحكام شعورهم حق العبث بالأخلاق والقيم، ويتركونهم يرتعون في الرذيلة، ولكنهم لا يسمحون لهم أبداً بممارسة الحرية عندما يتعلق الأمر بالسياسة ونظام الحكم وأمن الدولة.

وليست الحرية مطلقة؛ لأن من حق الآخرين أن يعيشوا، وأن يأمنوا على أنفسهم وأعراضهم، وأموالهم وأولادهم، ومن حقهم أن يدفعوا الخطر عن أنفسهم عندما يصدر هذا الخطر ممن يزعم أنه حر يفعل ما يريد. وهذا أمر مجمع عليه عند أصحاب العقول السليمة في كل عصر.

لكن غفلة الأكثرين تكمن في أنهم لا يدركون أن دين الله هو من الضرورات التي ينبغي المحافظة عليها والدفاع عنها قبل النفس والولد والمال والعرض: لأنه الذي يخطط لهذا ولغيره، ويقيم الحياة على منهاج سليم، وتخطيط ملائم لفطرة الإنسان، وهو الذي يحدد للمجتمع المعروف والمنكر.

من أجل هذا كان للمجتمع المسلم رقابة على أفرادها، تتمثل في الرأي العام الصالح، الذي يستمد قيمةً وموازينه، ومعروفه، ومنكره من الإيمان بالله، وما جاء به رسول الله ﷺ، والعلماء في مقدمة المجتمع المسلم المسؤول، كما أن الحكام في مقدمة الأمة المسلمة المسؤولة، وقد قيل: إن العلماء هم الطائفة المرادة في قوله تعالى:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

ومسؤولية العالم تتركز في أمرين: أولهما أن يكون قدوة للناس بأن يقيم

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

نفسه على أمر الله، فيكون سلوكه مطابقاً لعلمه. وثانيهما: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وكما أن الدولة مسؤولة والمجتمع مسؤول، كذلك الفرد في المجتمع الإسلامي مسؤول عن القيام بهذا الأصل العظيم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلُّ بما يستطيع! فأصحاب النفوذ يمنعون المنكر بالقوة، والعلماء يمنعون بالوعظ والزجر والتعليم، ومن لا قوة له يكفيه أن يمتنع عن المنكر وأن يقاومه مقاومة سلبية وهو بمعنى قوله ﷺ:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

* * *

صُنِعَتِ السَّفِينَةُ أَوَّلَ مَا صُنِعَتْ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ - لِتَكُونَ وَسِيلَةَ النِّجَاةِ لِلْفِتْنَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. والمحافظةُ على هذه السفينة هي مسؤولية الفئة المؤمنة، وعليها ألا تمكّن أحداً من العبث بها وإلا غرق الجميع: العابث بعبثه، وغير العابث بسكوته وسليته، ومن أقوالهم: (السكوت علامة الرضا). ولن تغني كلمات جوفاء يرددها الإنسان، دون أن تؤيد بعمل إيجابي. وقد ردد اليهود مثل هذه الكلمات من قبل فلم تغن عنهم شيئاً، ولم تدفع عنهم اللعن والعقاب:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وينقل ابن كثير في تفسير هذه الآية ما روى عن ابن مسعود قال: قال

(١) رواه مسلم. باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، من كتاب الإيمان من صحيحه (بشرح النووي: ٢١/٢ - ٢٥).

رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، أتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قرأ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَسِيقُونَ﴾، ثم قال: «كلا والله، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً»^(١).

إذا ترك هذا الأصل عم العقاب الجميع، وسيكون الغرق نهاية المخطيء وغيره؛ لأن من قوانين الحياة أن الأغلبية ما دامت سيئة، استحق المجموع العقاب، ولا يغني في دفعه أن توجد قلةً سالحة، لقد خاطب الله سبحانه وتعالى المسلمين وهم في أوج انتصارهم بعد غزوة بدر، محذراً إياهم من الأخطاء، ومبيناً لهم أن ضررها يعم ولا يخص، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأُنْصِبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٢).

وكانه يشير إلى ما حصل بعد في غزوة أحد، حيث وقعت الهزيمة نتيجة الفشل والعصيان والتنازع، أي نتيجة خطأ البعض.

إنه قانون عام، حيث يكثر الخطأ، ويخفت صوت الناهين عن المنكر، يعم العقاب الجميع. وهو ما يؤكد ﷺ، حين سئل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرت الخبث»^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٨٩/٢، والآيات هي ٧٨ - ٨١ من سورة المائدة. والحديث في تفسيرهما رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(٣) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب الفتن من صحيحه، باب ويل للعرب من شر قد اقترب، وباب يأجوج ومأجوج. ومسلم في أول كتاب الفتن من صحيحه.

فإنه إذا كثرت الخبث انقلبت الموازين، فأصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ويتطور الأمر حتى يُقنن المنكر، وتصبح له عادات مَرَعِيَّةٌ وتقاليدٌ مُتَّبَعَةٌ، يُنظر شذراً إلى من يخرج عنها، ويُعاب عليه إن امتنع عليها، ويُقذف بسيل من ألفاظ السباب المستحدثة إن رفضها واستمسك بدينه وقيمه وتقاليده، فهو حينئذٍ متعصب، رجعي، جامد، متخلف، إلى آخر هذه الألفاظ الجوفاء، أما الملحد المتحلل المتبجح بالمعاصي فهو تقديمي عصري متطور متحضر. هكذا انقلبت الموازين. وهكذا أصبح من العيب ألا تشرب الخمر، ومن العيب ألا تسفر المرأة عن مفاتها، وألا تجاري (الموضة) المجنونة، التي تجعل ما تسفر عنه أكثر مما تحجبه، ومن العيب ألا تحضر حفلات ماجنة، فإن حضرتها فمن العيب ألا تكون راقصاً، ومن العيب أن تمتنع زوجتك عن حضور مثل هذه الحفلات، ومن العيب إن هي حضرت أن تمتنع على أجنبي يريد مراقبتها... وهكذا.

إلى أين ينتهي بالناس هذا الطريق؟ إلى الضعف حين تركوا أسباب القوة. وإلى الذل إذ تنكبوا طريق العزة، وإلى الانهيار والتفكك حيث استبدلوهما بعوامل التجمع والتماسك، وإلى الفرق إذ لم يأخذوا بحبل النجاة.

مثل هذا المجتمع الذي تنقلب فيه الموازين لا يمكن أن يكون مجتمعاً مؤمناً فليس للمقاييس المقلوبة مكان في مجتمع المؤمنين، لكن مكانها مجتمع الكافرين والمنافقين، وهي سمة من سماتهم، كما قال تعالى:

﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧].

أما مجتمع المؤمنين، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سمة من سماته، حيث يقول الله سبحانه في السورة نفسها في مقابلة المنافقين:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧١].

ويقول تعالى في وصف المجتمع المؤمن:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَرْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْوِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [سورة الحج: الآية ٤١].

على الصالحين المصلحين إذاً أن يقودوا السفينة، وأن يمنعوا عبث العابثين، وعلى كل فرد أن يؤدي دوره هذا في حدود إمكانياته، وفي إطار مسؤولياته.

وينبغي ألاّ يحتج أحد بقوله: (عليّ نفسي ولست مسؤولاً عن غيري) نعم، عليك أن تقوم بالتزاماتك، ولست مسؤولاً عن غيرك، لكن من التزاماتك ومسؤوليتك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولست مسؤولاً عن استجابة غيرك أو رفضه بعد أن أدبت واجبك، وقد قال الله عز وجل لرسوله ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (١).

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

(يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير

(١) سورة الشورى: الآية ٤٨.

بجهدهم وطاقاتهم . ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس ، سواء كان قريباً منه أو بعيداً .

ثم يقول ابن كثير: (وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً)، ثم نقل ما روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه» .

ثم نقل ابن كثير عن طريق الترمذي، عن أبي ثعلبة الخشني قريباً من هذا الحديث^(١) .

*
**

(١) تفسير ابن كثير ٢/٨٩ . وقال: رواه أبو داود والترمذي وأحمد .

الصَّفْو لِلرَّعِيَّةِ

١١- روى مسلم بسنده عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمَيْرٍ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلْبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَكَانَ وَالِيًّا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَخَالِدٍ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلْبَهُ؟ قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ فَجَرَّ بَرْدَانَهُ ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَسَمِعَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتُغْضِبَ فَقَالَ: لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمْرَائِي، إِنَّمَا مِثْلُكُمْ وَمِثْلُهُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتُرِعِيَ إِبِلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقِيهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ، وَتَرَكْتُ كَدْرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ).

وفي رواية أخرى أن هذه الحادثة وقعت في غزوة مؤتة، أي سنة ثمانٍ من الهجرة حيث روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: (خَرَجْتُ مَعَ مَنْ خَرَجَ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، وَرَافَقَنِي مَدَدِيُّ مِنَ الْيَمَنِ. وَسَاقَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: قَالَ عَوْفٌ: فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلْبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ^(١)).

* * *

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/٦٤ - ٦٥ باب استحقات القاتل سلب القتيل من كتاب الجهاد والسير.

مفردات الحديث :

قوله : (رجل من حَمِير). حَمِير قبيلة عظيمة من اليمن . وقد بينت الرواية الأخرى أن هذا الرجل من اليمن ، وأنه كان من المدد الذين جاءوا يمدون الجيش ويساعدونه في غزوة مؤتة .

– ومؤتة – بضم الميم ثم همزة ساكنة ، ويجوز ترك الهمز – قرية معروفة في طرف الشام عند الكرك .

وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : «إن قُتل زيد فجعفرُ ، وإن قُتل جعفرُ فعبدُ الله بن رواحة» . قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفرَ بنَ أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاُ وتسعين من طعنةٍ ورُميةٍ)^(١) .

وقد أخذ الراية خالد بن الوليد بعد أن استشهد الأمراء الثلاثة ، ونعاهم النبي ﷺ للناس قبل أن يأتيهم خبرهم . فقال : «أخذ الراية زيدُ فأصيب ، ثم أخذ جعفرُ فأصيب ، ثم أخذ ابنُ رواحة فأصيب – وعينه تذرِفان – حتى أخذ الراية سيفُ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»^(٢) .

– السلب ، بفتح السين واللام ، بمعنى المسلوب ، وهو ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره ، وفي رواية لأحمد لا تدخل الدابة ، وعن الشافعي يختص بأداة الحرب^(٣) .

(١) باب غزوة مؤتة من أرض الشام ، كتاب المغازي فتح الباري ٥١٠/٧ .

(٢) صحيح البخاري الباب السابق ، فتح الباري ٥١٢/٧ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في المغني لابن قدامة مع الشرح الكبير ٤٢٨/١٠ .

وقوله في رواية مسلم (فمنعه سلبه) يفيد أن خالد بن الوليد أخذ جميع السلب ولم يعطه منه شيئاً.

وفي رواية أبي داود (. . . وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب، فجعل الرومي يفري بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة، فمرَّ به الرومي فعربق فرسه فخر، وعلاه فقتله وحاز قوسه وسلاحه، فلما فتح الله عزَّ وجلَّ للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ من السلب) (١).

ففي هذه الرواية تفصيل لنوعية السلب، وأن خالداً أعطى المددي بعض السلب. وفي رواية الطحاوي تقوية لرواية أبي داود، حيث جاء فيه بعد أن قتل المددي الرومي: (فأقبل بفرسه وسيفه وسرجه ولجامه ومنطقته وسلاحه، كل ذلك مذهب بالذهب والجوهر - إلى خالد بن الوليد، فأخذ منه خالد طائفة، ونفَّله بقيته . . .) (٢).

— قوله (فمرَّ خالد بعوف فجرَّ بردائه):

خالد هو ابن الوليد بن المغيرة المخزومي، سيف الله، أبو سليمان، أمه لبابة الصغرى بنت الحارث ابن حرب الهلالية، وهي أخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب، وهما أختا ميمونة بنت الحارث، زوج النبي ﷺ. أسلم سنة سبع بعد خيبر وقيل قبلها. ومات سنة ٢١ بحمص وقيل بالمدينة (٣).

(١) كتاب الجهاد باب في الإمام يمنع القاتل السلب إن رأى. والفرس والسلاح من

السلب ٣٨٩/٧ عون المعبود شرح سنن أبي داود - المكتبة السلفية بالمدينة - .

(٢) شرح معاني الآثار ٣/٢٣١ - ٢٣٢، تحقيق محمد زهري النجار. مطبعة الأنوار المحمدية بمصر.

(٣) الإصابة ١/٤١٣ - ٤١٥.

وعوف هو ابن مالك بن أبي عوف الأشجعي، أسلم عام خيبر وشهد
الفتح، ومات سنة ٧٣ ثلاث وسبعين في خلافة عبد الملك^(١).

وقوله (فجرّ بردائه): يفيد أن عوفاً أسرع إلى خالد عندما مرّ به، مظهراً
للشماتة في خالد، لانتصاره عليه في موضوع النزاع في السلب، حيث وافقه
رسول الله ﷺ.

قوله: (فَشَرَعَتْ فِيهِ): شرعت الدواب في الماء: دخلت فيه،
وبابه قَطَعَ، فهي (شُرُوع) و (شُرْع)، وشَرَعَهَا صاحبها تشريعاً. ومَشْرَعَةٌ
الماء: مورد الشاربة.

قوله: (فشربتُ صفوه)، صَفْوَةُ الشَّيْءِ: خالصه، بفتح الصاد، وحكى
أبو عبيد ضمها وكسرهما، فإذا نزعوا الهاء قالوا (صَفُو) مالي، بفتح الصاد
لا غير.

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه حال القائد أو العامل المكلف من قبيل الإمام
أورئيس الدولة، بحال الراعي الذي استؤمن على إبل أو غنم.
ووجه الشبه: هو تَفَقُّدُ الراعي أحوال من اؤتمن على رعايتهم، وإيثاره
الرعيّة على نفسه ومساءلته دونها عند وقوع الضرر.

من معاني الحديث:

قال النووي: (معنى الحديث أن الرعية يأخذون صفو الأمور، فَتَصِلُهُمْ
أُعْطِيَاتُهُمْ بغير نكد، وتُبتلى الولاية بمقاساة الأمور وجمع الأموال على وجوهها
وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية والشفقة عليهم والدبّ عنهم وإنصاف

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٤٣/٣.

بعضهم من بعض، ثم متى وقع علقمة أو عتب في بعض ذلك توجه على
الأمراء دون الناس^(١).

والنظر في هذا الحديث وشرح النووي له ينبهنا إلى أمور هامة في
وظيفة الولاية والعلاقة بين الراعي والرعية.

أول هذه الأمور، أن وظيفة الأمراء الأساسية هي تعهد أحوال الرعية في
كافة شؤونها الاعتقادية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدولية، وسهرهم
ومعاناتهم في سبيل ذلك، لأنهم عمال الإمام ينوبون عنه.

وقد أوضح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مهمة الأمراء
حيث قال: (اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم عليهم
ليعدلوا عليهم، وليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ﷺ، ويقسموا فيهم فيئهم،
ويرفعوا إلي ما أشكل عليهم من أمرهم...)^(٢).

الثاني: أن الولاية - سواء كانت عامة أو خاصة - هي أمانة ومسؤولية
وتكاليف، فلا يختار لها من لا يصلح لها، ولا يتقدم إليها من ليس أهلاً لها.

قال أبو ذر، رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ: «ألا تستعملني؟» فضرب
رسول الله ﷺ بيده على منكب أبي ذر، وقال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها
أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه
فيها»^(٣).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٦٥/١٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٥٣/٦. كتاب المساجد، باب نهى من أكل ثوماً
أو بصلاً أو كراثاً...

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، شرح النووي على
مسلم ٢٠٩/١٢ - ٢١٠.

وقال ﷺ أيضاً لأبي ذر: «إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين ولا تولينَّ على يتيم»^(١).

وحين ينحرف الوالي عن مقتضى وظيفته، أو يخون الأمانة التي استؤمن عليها – يتعرض للمساءلة كما دل عليه الحديث الصحيح «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» [شرح النووي على مسلم ١٢/١٣].

كما يتعرض للوعيد الشديد الذي أُنذر به النبي ﷺ هؤلاء المنحرفين، حيث يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»^(٢).

وروى مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظمُ غدرًا من أمير عامَّة»^(٣).

الثالث: قرر الحديث مبدأ الشكوى من الأمراء، ورفع القضايا المختلف فيها إلى الإمام ليفصل فيها أو يحيلها إلى من يراه صالحاً للفصل فيها. فكونه أميراً لا يرفعه فوق المساءلة، ولا يخوّل له أن يكون مطلق التصرف، بل تصرفاته مقيدة بتعاليم الشرع، وحين يتعدى الحكم الشرعي، يرفع أمره إلى من يملك رد تصرفه، وتصحيح خطئه.

الرابع: توقيف الأمير واحترامه وطاعته في المعروف، من تأدية حقوقه

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، فتح الباري ١٣/١٢٧، وشرح النووي على مسلم ١٢/٢١٤ – ٢١٥ كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر.

(٣) مسلم بشرح النووي ١٢/٤٤ كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر.

التي اقتضتها مكانته القيادية ورعايته للجماعة، وليس معنى أن للأفراد حق شكواه عند خلافه للشرع أو الاختلاف حول تطبيق حكم شرعي . ليس معنى ذلك أن يسمح لهم بإهانته أو التشهير به أو الشماتة فيه، أو الافتيات عليه وعصيانه . فلكل من الأمير والرعية حقوق مرعية، والتزامات متبادلة .

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»^(١). وروى الترمذي من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أهان السلطان أهانه الله») قال الترمذي: حديث حسن . وروى البراز بسنده عن معاذ بن جبل قال: (عَهْدَ إِيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي خَمْسٍ، مِنْ فَعَلٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللَّهِ: مِنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ خَرَجَ فِي جَنَازَةٍ، أَوْ خَرَجَ غَازِيًا، أَوْ دَخَلَ عَلَى إِمَامِهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا تَوْقِيرَهُ، أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ سَلَّمَ النَّاسَ مِنْهُ وَسَلَّم) ^(٢). قال البراز: لا يروى بهذا اللفظ إلا عن معاذ.

الخامس: الصفو للرعية، لأنه مصلحة لهم والأمير متكفل بتحقيق مصالحهم، ولأنهم مشاركون في تحصيله مستعان بهم في جلبه .

وليس معنى أن الصفو للرعية أن الأمير لا يشاركهم فيه، بل يناله منه نصيب ولا شك، غير أن كدهم لما كان دون كده، ومعاناتهم دون معاناته – جعل ما حصلت عليه الرعية كأنه صفو خالص استأثروا به .

وفي مقابل ذلك، فإنه في حالة الهزيمة أو الحصار أو الشدائد – تعم

(١) زواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (شرح النووي ٢٢٣/١٢).

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/٢٥٧، وأخرجه أحمد في المسند ٥/٢٤١، وفيه ابن لهيعة .

المصيبة كُلاً من الأمير والمأمورين، ولكن لما كان حظ الأمير من ذلك يفوق حظ المأمورين، إذ هو الذي يُسأل ويُستجوب ويُنسب إليه التقصير، وتُسَطَّر الهزيمة في التاريخ مقرونةً باسمه، لما كان ذلك كذلك جعل كأن الكدر مخصوص به دونهم .

وهذه من تكاليف الإمارة عندما توضع في مكانها الصحيح .

أما عندما تختلُّ النظم، ويُنبذ الشرع وأحكامه خلف ظهور الأمراء، فلا تتعجب حينئذ من أن يكون الصفو مقصوراً على الأمراء: أما المال والرفاهية والتنعم فهو لذوي السلطان، لا ينقطع ولا يتناقص ولا يتأثر بالنكبات التي جلبوها لمن في رعايتهم ولا بالمحن التي عرضوهم لها نتيجة قصورهم أو تقصيرهم بل خيانتهم .

وأما الكدر والضنك والشقاء فهو حظ الرعية وقَدْرُها، وعليها أن تتجرعه حتى الثُمالة، وحقُّ لها أن تتجرعه، لأنها فرطت في حقوقها، وأهملت مساءلة الولاية ومحاسبتهم، وكأنهم فوق المساءلة والمحاسبة، ورضوا منهم بالكلام والخطب ورفع الشعارات، فيتوهم الوالي بإيعاز منهم أنه القائد الملهم، وأن الأمة كلها تبلورت فيه وأنه لا رادَّ لإشارته، ولا معقب لحكمه، يضاهي فرعون وغيره من الجبارين الطغاة .

لا تتعجب عندما يغيب الشرع عن حكم العلاقة بين الوالي والرعية أن يحدث هذا، بل وأكثر منه، فعندما يستحكم حب الدنيا في قلب الوالي، ينسى ربه وآخرته، فيُغَلَّب مصلحته الخاصة على مصلحة الرعية، حتى يصل إلى درجة الخيانة عندما يبيع شعبه وأُمَّته لأعدائها في مقابل عرض من الدنيا، أو يمنح ثروات الأمة لأعدائها في مقابل مصلحة خاصة به أو في مقابل أموال توضع باسمه في المصارف الأجنبية ثم يضيف إليها ما نهبه من أموال شعبه تأميناً لمستقبله، واستعداداً للفرار عندما تقع الكارثة وتتكشف الخيانة .

إن المسؤولية مشتركة بين الوالي والرعية، ولا شك أن سلوك الوالي وتصرفاته تؤثر في المحيطين به، فإن كان فيه استقامة وإخلاص وكفاءة، حمل الناس حينئذ على الاستقامة، ودنا منه أهل الإخلاص والنصيحة، وإن كان غير ذلك لم يَدُنْ منه إلا أهل النفاق والهوى. فلأمير قدوة لعماله ولرعيته:

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما: (أما بعد، فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته، وإياك أن تزيع فتزيع عمالك، فيكون مثلك مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغي السمن، وإنما حنفتها في سمنها، والسلام) (١).

وروى مالك بن أنس، أن وهب بن كيسان قال: (كتب رجل إلى عبد الله بن الزبير بموعظة: أما بعد، فإن لأهل اليقين علامات يعرفونها من أنفسهم، من صبر على البلاء، ورضا بالقضاء، وشكر للنعمة، وذلٌّ لحكم القرآن، وإنما الإمام كالسوق، ما نَفَقَ فيها حُمِلَ إليها؛ إن نَفَقَ الحق عنده حملوا إليه الحق وجاءه أهل الحق، وإن نفق الباطل عنده حملوا إليه الباطل وجاءه أهل الباطل ونفق عنده) (٢).

وكما أن سلوك الراعي يؤثر في الرعية، يؤثر وعي الرعية وتمسكها بحقوقها وبصرها بالأمر وحرصها على المصلحة يؤثر وعيها في الراعي كذلك فإن علم أن تصرفاته محدودة بحدود الشرع، وأن طاعته مرتبطة بتحقيقه للمصلحة، وأن أي تصرف فيه تجاوز لذلك مردود عليه مسؤول عنه محاسب

(١) كتاب الخراج، للقاضي أبي يوسف ص ١٦ - الطبعة الرابعة، المطبعة السلفية ١٣٩٢هـ.

(٢) مسند الموطأ، للغافقي ص ٢٢ من المخطوطة الملكية، يقوم بتحقيقها الشيخ حمد أبو بكر وقوله (ما نَفَقَ فيها) أي ما راج. من رواج الشيء وكثرة الطلب عليه.

به، لم يتصرف حينئذ إلا بما تقتضيه المصلحة، خوفاً من رقابة الأمة إن عدم خوفه من الله.

وإن فرطت الأمة في حقوقها، وتركت محاسبة ولائها على ما أخطأوا فيه، وصفقت لمن يسومها الذل والهوان ويوردها موارد الهلكة والخسران - استحققت حينئذ ما يصيبها من الذل والقهر والفقر والتخلف.

ومن القواعد الفقهية التي تضبط سلوك الراعي في رعيته، هذه القاعدة: (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة).

قال الشيخ أحمد الزرقاء في شرحها: (أي أن نفاذ تصرف الراعي على الرعية ولزومه عليهم شاءوا أو أبوا، مُعلّق ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه، دينية كانت أو دنيوية، فإن تضمن منفعة ما، وجب عليهم تنفيذه، وإلا ردّ، لأن الراعي ناظر، وتصرفه حينئذ متردد بين الضرر والعبث، وكلاهما ليس من النظر في شيء).

(والمراد بالراعي كل من ولي أمراً من أمور العامة، عامّاً كان كالسلطان الأعظم، أو خاصّاً كمنّ دونه من العمال، فإن نفاذ تصرفات كل منهم على العامة مترتب على وجود المنفعة في ضمنها، لأنه مأمور من قبل الشارع أن يحوطهم بالنصح، ومُتَوَعِّدٌ من قبله على ترك ذلك بأعظم وعيد، ولفظ الحديث أو معناه «من ولي من أمور هذه الأمة عملاً فلم يحطها بنصح لم يرح رائحة الجنة»^(١)).

(١) شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقاء، تنسيق وتصحيح عبد الستار أبوغدة ص ٢٤٧ دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

التزامات القادة والجنود:

ذكر الماوردي أن أمير الجيش يلزمه في سياسة جنده عشرة أشياء،
أوردها على سبيل الاختصار:

أحدها: حراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم.

الثاني: أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم.

الثالث: إعداد ما يحتاج الجيش إليه من زاد وعلومه.

الرابع: أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها، ويتصفح أحواله حتى
يخبرها فيسلم من مكرهه ويلتمس الغرة في الهجوم عليه.

الخامس: ترتيب الجيش في مصاف الحرب، والتعويل في كل جهة
على من يراه كفتاً لها.

السادس: أن يقوي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر ويخيل إليهم من
أسباب النصر.

السابع: أن يعد أهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله وبالجزاء والنفل من
الغنيمة.

الثامن: أن يشاور ذوى الرأي فيما أعضل، ويرجع إلى أهل الحزم فيما
أشكل، ليأمن الخطأ ويسلم من الزلل.

التاسع: أن يأخذ جيشه بما أوجبه الله من حقوقه، وأمر به من حدوده،
حتى لا يكون بينهم تجور في دين، ولا تحيف في حق، فإن من جاهد عن
الدين كأن أحق الناس بالتزام أحكامه، والفصل بين حلاله وحرامه.

العاشر: أن لا يمكن أحداً من جيشه، أن يتشاغل بتجارة أو زراعة، لأن
الاهتمام بها يصرف عن مصابرة العدو، وصدق الجهاد.

ثم ذكر الماوردي ما يلزم المجاهدين مع الأمير من حقوق الجهاد،
وقسمها إلى ضربين:

أحدهما: ما يلزمهم في حق الله تعالى، والثاني: ما يلزمهم في حق

الأمير:

فأما اللازم لهم في حق الله تعالى، فأربعة أشياء:

١ - مصابرة العدو عند اللقاء.

٢ - أن يقصد بقتاله نصره دين الله تعالى وإبطال ما خالفه من الأديان.

٣ - أن يؤدي الأمانة فيما حازه من الغنائم ولا يغلّ أحد منهم شيئاً.

٤ - أن لا يمايل من المشركين ذا قرى، ولا يحابي في نصره

دين الله ذا مودة، فإن حق الله أوجب ونصره دينه ألزم.

وأما يلزمهم في حق الأمير عليهم فأربعة أشياء:

١ - التزام طاعته.

٢ - أن يفوضوا الأمر إلى رأيه ويكلوه إلى تدبيره حتى لا تختلف

آراؤهم فتتلف كلمتهم.

٣ - أن يسارعوا إلى امثال الأمر والوقوف عند نهيه وزجره لأنهما من

لوازم طاعته.

٤ - أن لا ينازعه في الغنائم، ويرضوا منه بتعديل القسمة عليهم^(١).

من فقه الحديث: السلب للقاتل:

سبق في أول هذا الحديث معنى السلب، وما الذي يعتبر سلباً من متاع

(١) انظر الأحكام السلطانية والولايات الدينية، للماوردي من ص ٥٢ إلى ٦٠ - دار

المكتب العلمية - بيروت.

الكافر المقتول. قال ابن قدامة: (القاتل يستحق السلب في الجملة، ولا نعلم فيه خلافاً...)(^١) .

غير أن أبا حنيفة والثوري ذهبوا إلى أن القاتل لا يستحق السلب إلا أن يشترطه الإمام أو نائبه عند المعركة، فإذا لم يشترطه أي لم يقل عن المعركة (من قتل قتيلاً سلبه)، لا يستحقه القاتل حينئذ ويكون من جملة المغانم .

وإلى هذا ذهب مالك أيضاً، إلا أنه لم ير للإمام أن يقول ذلك إلا بعد انقضاء المعركة، حتى لا يكون قتالهم للدنيا، واحتج بأن رسول الله ﷺ لم يقل: «من قتل قتيلاً فله سلبه» إلا بعد أن برد القتال .

وذهب الأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وآخرون إلى أن القاتل يستحق السلب، سواء أقال ذلك الإمام قبل المعركة أم لم يقل . لأن قوله: «من قتل قتيلاً فله سلبه» من القضايا المشهورة التي عمل بها الخلفاء بعده، والحديث الذي معنا فيه إشارة إلى أن الحكم كان مشهوراً بين الصحابة، لأن عوف بن مالك احتج على خالد حين أخذ سلب المددي، فقال له عوف: أما تعلم أن رسول الله ﷺ، قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى . وإنما أمر النبي ﷺ خالداً أن لا يرد السلب على المددي عقوبة، حين أغضبه عوف بتقريعه خالداً بين يديه وقوله: «قد أنجزت لك ما ذكرت لك من أمر رسول الله»(^٢) .

ويقول الخطابي في تأويل منع إعطاء السلب إلى القاتل في قصة خالد: (وفقهه أن السلب ما كان قليلاً أو كثيراً فإنه للقاتل لا يُخمس، لأنه أمر

(١) المغني مع الشرح الكبير ٤١٨/١٠ .

(٢) المغني مع الشرح ٤١٢/١٠ و ٤٢٧ - ٤٢٨ .

خالداً برده عليه مع استكثاره إياه، وإنما كان رده إلى خالد بعد الأمر الأول بإعطائه القاتل نوعاً من النكير على عوف، وردعاً له وزجراً، لئلا يتجرأ الناس على الأئمة، ولا يتسرعون إلى الوقعة فيهم، وكان خالد مجتهداً في صنيعة ذلك، وكان قد استكثر السلب فأمضى رسول الله ﷺ اجتهاده لما رأى من المصلحة العامة، بعد أن كان خطأه في رأيه الأول، فالأمر الخاص مغمور بالعام، واليسير من الضرر محتمل لكثير من النفع والصلاح، فيشبه أن يكون النبي ﷺ قد عوض المددي من الخمس الذي هو له، وترضى خالداً بالنصح له وتسليم الحكم له في السلب^(١).

وقد استدل الأحناف بمنع النبي ﷺ إعطاء السلب للقاتل في هذا الحديث نفسه، أي حديث عوف بن مالك مع خالد، وقالوا إن فيه دليلاً على أن القاتل لا يستحق السلب إلا إن طابت به نفس إمامه، وليس إعطاء السلب للقاتل شرعاً لازماً، ولو كان شرعاً لازماً لم يمنعه من مستحقه.

وقد وصف الكمال ابن الهمام تأويل الخطابي بأنه غلط، حيث قال: (وقول الخطابي: إنما منعه أن يرد على عوف سلبه زجراً لعوف لئلا يتجرأ الناس على الأئمة، وخالد كان مجتهداً فأمضاه عليه الصلاة والسلام، واليسير من الضرر يتحمل للكثير من النفع^(٢) - غلط، وذلك لأن السلب لم يكن للذي تجرأ وهو عوف، وإنما كان للمددي، «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، وغضب رسول الله ﷺ لذلك كان أشد على عوف من منع السلب وأزجر له

(١) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار للحازمي، ص ٤٠٥، تحقيق أحمد عبد العزيز، مكتبة عاطف بجوار الأزهر.

(٢) هذه هي عبارة ابن الهمام، وقد نقل كلام الخطابي بالمعنى، مع شيء من التجوز، كما يتضح بالموازنة مع نص كلام الخطابي الذي نقلناه.

منه . فالوجه أنه عليه الصلاة والسلام أحب أولاً أن يُمضي شفاعته للمددي في التفتيل ، فلما غضب منه ردّ شفاعته ، وذلك بمنع السلب ، لا لأنه لغضبه وسياسته يزره بمنع حقّ آخر لم يقع منه جناية ، فهذا أيضاً يدل على أنه ليس شرعاً عاماً لازماً^(١) .

وما قرره ابن همام في معنى منع السلب في هذه القصة ، سبق إليه الطحاوي ، حيث يقول في تعليقه على هذا الحديث : (أفلا ترى أن رسول الله ﷺ قد كان أمر خالداً بدفع السلب إلى المددي ، فلما تكلم عوف بما تكلم به أمر رسول الله ﷺ خالداً ألا يدفعه إليه . فدل ذلك أن السلب لم يكن واجباً للمددي بقتل الذي كان ذلك السلب عليه ، لأنه لو كان واجباً له بذلك إذن لما منعه رسول الله ﷺ بكلام كان من غيره ، ولكن رسول الله ﷺ أمر خالداً بدفعه إليه وله دفعه إليه ، وأمره بعد ذلك بمنعه منه وله منعه منه)^(٢) .

ولا شك أن دفع السلب للقاتل وسيلة من وسائل التحريض على القتال المأمور به في قوله تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٍ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ .

ولعل الاختلاف السابق في السلب مبني على اختلاف الاعتبار في صدوره من النبي ﷺ : هل صدر منه باعتباره مُشرعاً ومفتياً ، فيكون حينئذ حكماً نافذاً ملزماً ، أم باعتباره إماماً فيخلفه فيه الأئمة من بعده ويفوض إلى رأيهم ، فلا يستحقه القاتل إلا برضا الإمام أو اشتراطه إياه .

(١) فتح القدير، شرح الهداية ٥/٥١٤ ، وقوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ من الآية ١٨ من سورة فاطر .

(٢) شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/٢٣٢ ، تحقيق محمد زهري النجار .

وإذا عرفنا أن عامة المجاهدين آنذاك كانوا يتحملون نفقات تجهيزهم، وأن عامتهم كانوا فقراء^(١) - رجحنا أن إعطاء السلب للقاتل كان نوعاً من التحريض، أو من المكافأة التشجيعية، وأنه أشبه بالنفل الذي يخص به الأمير بعض من أبلي في المعركة بلاء حسناً، وحيث إن النفل من صلاحيات الأمير كان السلب كذلك من صلاحياته، والله تعالى أعلم.

*
**

-
- (١) في بعض روايات أبي داود وغيره أن المددي كان فقيراً، وأنه استعان بجلد ذبيحة للجيش في صنع مِجَنٍّ له يستره من سهام الأعداء.
- (٢) النفل - بفتح النون والفاء، معناه الزيادة، ومعناه هنا الزيادة على سهم الغازي في سبيل الله.

اختر جليسك

١٢ - عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير: فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة» [متفق عليه] (١).

* * *

المفردات:

«حامل المسك»: أي بائعه، بدليل قوله بعد: «أو تبتاع منه».

والمسك: نوع من الطيب يستخرج من نوع خاص من الغزال، يسمى غزال المسك.

«ونافخ الكير»، هو الحداد الذي ينفخ على الحديد ليحمي ويلين للطرق والتشكيل. والحداد ينفخ بواسطة آلة تسمى الزق.

والكير: هو البناء الذي يركب عليه الزق، أطلق على الزق للمجاورة. وقيل هو الزق نفسه، أما البناء فاسمه الكور.

يُحذيك: يُعطيك، وزناً ومعنى.

(١) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ٣٨٦/٢. وانظر صحيح البخاري بحاشية السندي ٢٢١/٣ في كتاب الذبائح، و٨/٢ - ٩ في كتاب البيوع، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧٨/١٦.

بيان التمثيل في الحديث :

يشبه الرسول ﷺ الجلوس الصالح والجلوس السوء، بحامل المسك وناضح الكير - الحداد - .

ووجه الشبه: هو عدم الخلو من الفائدة في الأول، وعدم الخلو من الضرر في الثاني .

من معاني الحديث :

يعرض مولانا رسول الله في هذا الحديث صورتين متقابلتين :

أولاهما: ينبعث منها أريج زكي، ويفوح منها طيب عطر، وشذى فواح، ونسمات تنبسط لها النفس، وينشرح لها الصدر، إن فيها عطراً جيداً، فيه أصالة الطيب، فالعطر ينبع من ذاته، ثم يفيض على ما حوله. إن المسك هذا «هو أطيب الطيب» كما جاء في الحديث الصحيح^(١). فَأَنْعَمَ بِهِ طيباً، وَأَحْسِنُ بِتِجَارَتِهِ مهنة. وهكذا الجلوس الصالح يكون :

أما الصورة الثانية فتملأ الجو ضجيجاً، والمكان حرارة، يتصعب منها العرق، فيمتلىء المكان برائحته الكريهة المختلطة بالغازات المتفاعلة بالاحتراق.

إنه جو خانق، تضيق به النفس، وتزكّم له الأنف، ويستشعر ثقله الصدر، فضلاً عما قد يصيب البدن من لذع شرره المتطاير، أو ما قد يحرق الثوب من طائش قذائفه الملتهبة. إنها صورة تكاد قسماتها تنطق بالضرر، وملامحها تفسح عن الإضرار. وهكذا الجلوس السوء يكون .

هاتان صورتان: فإلى أي الصورتين يحب الإنسان أن يُنسب؟ وإلى أي

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٨/٥ - ٩، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

الجائنين ينحاز؟ وهل يتردد عاقل في اختيار ما فيه فائدة محققة له؟ إذاً فلن يرضى بجليس الخير بدلاً. وسيتعد عما فيه ضرر محقق، ويفر من مخالطته، نجاه لنفسه وصيانة لها.

إن المخالطة سبب العدوى، والعدوى تنتقل من النفس إلى النفس، ومن السلوك إلى السلوك، ومن الأخلاق إلى الأخلاق. كما ينتقل المرض بين الجسم والجسم:

يقول الإمام الغزالي: (الطباع مجبولة على التشبه والاقتراء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه)^(١).

ومن المعروف أن الوقاية خير من العلاج، ولهذا يُنصَح بالابتعاد عن مخالطة المريض بمرض معدٍ، وقد يُعزَل هذا المريض فلا يتصل به أحد إلاّ الأطباء ومَنْ يُحتاج إليهم في علاجه، بعد أن يكونوا مُحَصَّنِينَ ضد العدوى، حتى لا ينتقل إليهم المرض.

وما ينطبق على الماديات ينطبق على المعنويات كذلك، وكما حُمدَ هناك تَجَنُّبُ أسباب العدوى بالابتعاد عن مخالطة المرضى الحاملين لها، يُحمد هنا كذلك تجنب أسباب العدوى فيُنصَح بالابتعاد عن منحرفي الاعتقاد، أو الخلق أو السلوك، ويُنهَى عن مجالستهم ومخالطتهم.

وإذا لم يكن بُدٌّ من اختلاط الإنسان بغيره، لأنه - كما قيل - اجتماعي بالطبع، فليحرص على أن يحسن اختيار من يجالسهم، وإلاّ فالوحدة حينئذٍ خير له، كما قال أبو ذر: (الوحدة خير من جلوس السوء، والجلوس الصالح خير من الوحدة)^(٢).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ١٥٠/٢.

(٢) نفس المرجع السابق.

لقد قرأنا ونحن صغار قصة التفاحة المعطوبة التي أعطبت ما خالطته من تفاح سليم حين وضعت معه في سلة واحدة، وهي قصة رمزية عظيمة تبين الضرر العظيم الذي ينتج عن مخالطة الإنسان السيئ، وترشد إلى مخالطة السليم، لمن شاء أن يحتفظ بسلامته فمن هو الجليس الصالح الذي ينبغي أن يحرص على صحبته؟.

مَنْ هو الجليس الصالح؟

إنه مَنْ يُستفاد من مجالسته. والفائدة الحقيقية هي ما تضيف إلى رصيدك من الخيرات في الدنيا والآخرة. وهذا يعني أن الجليس الصالح هو المؤمن، وقد جاء هذا صريحاً في قوله عليه الصلاة والسلام: لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقياً^(١) كما جاء في الخبر: «إن جالسته نفعك، وإن شاورته نفعك» وسيأتي مزيدٌ لهذا في أحاديث وصف المؤمن. وهذا يعني أيضاً ألا يتخذ المسلم من الكافر جليساً، ولا يجعل منه صديقاً، فإن مجالسة الكافر أو صداقته تحمل على غض الطرف عن تصرفاته، وعدم الإنكار على ما ينبغي أن ينتقد من آرائه، مجاملة لحق المجالسة، أو رعاية لمقتضى الصداقة، بل قد يتساهل المسلم في دينه، فيهمل شعائره أو بعضها، ولا يزال به أمر هذه المخالطة والصحبة حتى ينحاز بكليته إلى حزب الشيطان. وكل

(١) رواه ابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً. انظر: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٥٠٢ و ٦٢٣ - ٦٢٥، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٨٣/١. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧.

وروى الطبراني في الكبير عن ابن عمر مرفوعاً: «مثل المؤمن كمثل العطار: إن جالسته نفعك، وإن ماشيته نفعك. وإن شاركته نفعك». قال في مجمع الزوائد ٨٣/١ فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

هذا أمر مشاهد واقع في زماننا هذا، فأين نحن من سلفنا الصالح الذي كان من دعائهم: (اللهم لا تجعل لكافر عليّ منّة). فإن النعمة يسديها إليك الكافر تفتح قلبك له فتجامله، وأعني بالمجاملة هنا المجاملة على حساب دينك ورأيك واعتقادك، ولا يصح لمسلم أن يجامل شخصاً على حساب دينه، أياً كان هذا الشخص ولو كان أباه أو أمه، بل لا يجتمع في قلب مؤمن الإيمان وهذه المجاملة فهما نقيضان:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾ (١).

إن الكافر لن يعطيك من مجالسته إلا سلوكاً لا يتفق مع سلوكك، أو آراء لا تقرها عقيدتك، وهو بعد حريص على أن يجذبك إليه، وقد لا يتم له ذلك مرة واحدة. ولكن الجلسة تلو الجلسة تجعلك تألف ما كنت تنكره، وقد يسهل على المجالس تناوله. وهذا هو سر حرص الإسلام على أن يجنبك هذه المجالس، حتى لو كان الأمر أكثر من صداقة، حتى لو كانت الصلة صلة دم وقربة قريبة، فما بالك بمن لا تربطك به صلة إلا مجرد تعارف في مجلس ما؟!!

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله عليه السلام بمجالسة المؤمنين الصالحين ونهاه عن مجالسة الكافرين، ليقترني به المؤمنون، فقال سبحانه:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ (٢).

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٨.

وللنهي عن مجالسة الكافر سببان رئيسيان، لا يمارى فيهما عاقل:

أولاهما: حقد دفين من الكفار على الإسلام وأهله، لا يتأتى معه نصح صادق، بل على العكس تُحاك المؤامرات وتُجند القوى لمحو المسلمين أو إضعافهم أو حملهم على أن يرتدوا عن دينهم:

يقول الله تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ . . . ﴾.

إلى قوله تعالى:

﴿إِن يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (١).

ويقول تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

والآيات الكريمات في هذا المعنى كثيرة.

ثانيهما: تناول الإسلام في مجالسهم بالنقد والتجريح، والاستهزاء بقيمه وشعائره، والمسلم في هذه المجالس إما أن يغضب لدينه ويدفع عنه وينحاز إليه، أو يقوم من هذا المجلس احتجاجاً عليه وإعلاناً لعدم رضاه. أما

(١) سورة الممتحنة: الآيتان ١ - ٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

أن يرضى بالطعن على دينه ويسكت ولا ينصرف فهذا تصرف يباعده من الإسلام إذ لا يرضى بمجالستهم - والحالة هذه - إلا من رضى سلوكهم ولا يرضى سلوكهم إلا من زاغ عن طريق الحق، وانحرف عن الصراط، وأصبح مثلهم، وهو ما نص عليه القرآن في قوله عز وجل:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ (١).

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه قد نزل قبلها في القرآن آية أخرى في الموضوع نفسه تنهى المؤمنين عن حضور مجالس السخرية والاستهزاء بالإسلام وشعائره وعقائده.

وهذه الآية المشار إليها هي قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ۚ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْدُبْ بَعْدَ الذِّكْرِ ۚ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴾ (٢).

فقد تضطرننا الحاجة إلى مجالسة غير المؤمنين، للاستفادة من خبرتهم الدنيوية، أولدعوتهم إلى طريق الحق، أو لغير ذلك من المصالح، فينبغي حينئذ أن تقتصر المجالسة على قدر الحاجة، ودون أن تنتج المجالسة مودة، ودون أن يسمح باتخاذ الدين في أية ناحية من نواحيه مادة للسخرية، بل يجب على المسلم حينذاك أن يدفع عن دينه، ثم ينسحب فوراً من هذا المجلس.

إن الإسلام شرط جوهرى للجلوس الصالح، فلن يكون جليساً صالحاً

(١) سورة النساء: الآية ١٤٠.

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٦٨ - ٦٩.

من يكون على غير دينك، ولن يكون لك خلاً وفاقاً من يخالفك في الاعتقاد. وكل صداقة تُبني على غير الإسلام فإن ضررها متيقنٌ منه، قل أو أكثر. وستنقلب هذه الصداقة إلى عداوة يوم تُبينُ الحقائق، وتزول الغشاوة عن العيون والبصائر:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وسيكون الندم يوم لا ينفع الندم:

﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) ﴿يَوَلِّتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٢).

وهذه الآية وإن كان نزولها في عُقبة بن أبي مُعَيْط أو غيره، فإنها عامة في كل ظالم، كما يقول ابن كثير: وقوله تعالى: «فلاناً» بهذا التجهيل، ليشمل كل داعٍ إلى الضلالة، وكل صاحب سوء يصد عن سبيل الله ويضل عن ذكره (٣).

ثم بعد الإسلام – كشرط جوهرى للجلوس الصالح – تأتي شروط أخرى ينبغي أن تتوفر فيمن تختاره للمجالسة والصحبة، وقد ذكر الغزالي أن هذه الشروط تختلف بحسب الفائدة المطلوبة من الصحبة، وهذه الفائدة إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة، وليس ذلك من

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٢) سورة الفرقان: الآيات ٢٧ – ٢٩.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٣٢، وظلال القرآن ١٩/٣٠.

أغراضنا. وإما دينية، وقد اشترط لها خمسة شروط يجب أن تتوفر في صاحب وهي:

١ - أن يكون عاقلاً. ٢ - حسن الخلق. ٣ - غير فاسق. ٤ - ولا مبتدع. ٥ - ولا حريص على الدنيا.

١ - أما العقل فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، فالإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طال. قال علي رضي الله عنه:

فلا تصحب أبا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أرى حليماً حين آخاه
يُقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه

ثم يقول الغزالي: ونعني بالعاقل من يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه وإما إذا فهم.

٢ - أما حسن الخلق فلا بد منه، إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه. ومثل هذا لا خير في صحبته.

٣ - وأما الفاسق المُصِرُّ على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض. قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

وقال تعالى:

﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

وقال سبحانه:

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ .

٤ - وأما المبتدع ففيه خطر سَرَايَةِ البدعة وتَعَدِّي شؤمها إليه . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (عليك بإخوان الصدق تَعِشْ في أكنافهم ، فإنهم زينة في الرخاء ، وعُدَّةٌ في البلاء . . فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على شرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى) .

٥ - وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل^(١) . وسيأتي الحديث عن الدنيا في موضعه إن شاء الله .

على المسلم إذاً أن يتخير جلسه ، فيجالس من تذكّره الله رؤيته ، أو يفيدته علماً مجلسه ، أو يعين على عمل صالح قدوته .

ولهذا احتفى الإسلام بمجالس العلم ومجالس الذكر ، ورفع من شأنها ، وحضّ عليها . فهذه مجالس تغشاها الرحمة وتحفها الملائكة ، ويسعد بها الجماعة .

فأين هذا من مجالس القمار ومعاقرة الخمر وتعاطي المخدرات وسفح الأعراض إنها مجالس تحمل ميكروبات الخراب والدمار الخلقي والبدني والمالي ، للفرد والأسرة والمجتمع ، ولهذا كانت من الكبائر .

لا بأس أن يرفه الناس عن أنفسهم بجلسات بريئة يسمرون فيها ويتحدثون عن مشاكلهم ، ويتفكّهون فيها بشيء من المزاح والدعابة . شريطة أن يحتفظ للمجلس بحقه ، بأن يخلو من الغيبة والنميمة وما يغضب الله

(١) إحياء علوم الدين ٢/١٥٠ - ١٥١ .

سبحانه وتعالى . وهذا - إن تحقق في المجالس الخاصة - فيبعد أن يراعى في المجالس المنتشرة على قارة الطريق مما يعرف بالمقاهي ، فضلاً عن أن الجلوس فيها وقت ضائع وحياة لا فائدة منها فإنها لم تعط الطريق حقها ، كما جاء في الحديث : «إياكم والجلوس في الطرقات» .

*
**

الوحدة العضوية في المجتمع المسلم

١٣ - روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم شبك بين أصابعه .

١٤ - وروى الشيخان عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

وفي رواية لمسلم:

«المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»^(١).

* * *

بيان التمثيل:

في هذه الأحاديث تشبيه المجتمع الإسلامي الذي يتكون من أفراد مؤمنين بالبنيان المرصوص أو تشبيه هذا المجتمع بالجسد - الذي عبر عنه في

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب ١٤/٨ ط. الشعب، و ١٢/٨ ولفظ البخاري في الحديث الثاني: «ترى المؤمنين... إلخ. ومسلم بشرح النووي ١٦/١٣٩ - ١٤٠.

بعض الروايات بالرجل – الذي يتألف من أعضاء .
ووجه الشبه على كل حال: هو الوحدة والتماسك والانسجام،
والإحساس المشترك في كل .

من معاني الحديث :

يعرض الرسول ﷺ في هذه الأحاديث صورة المجتمع المسلم، ويقدم
نموذجاً لما ينبغي أن يكون بين أفراده من علاقات .

تقرر هذه الأحاديث أن المجتمع المسلم كيان واحد، وأن الفرد المسلم
لبنة في بناء هذا الكيان، تسدُّ ثغرةً منه وتشدُّ أزره، وتوضح أن الفرد المسلم
عضو في جسد يؤدي دوره في تلبية احتياجات هذا الجسد، ويدفع عنه ما قد
يتعرض له من ضرر: يصحَّ العضو بصحة الجسد، ويضعف العضو إن مرض
الجسد، وبالعكس: يمرض الجسد لمرض العضو، ويتألم للألمه، ويسعى
لإزالة هذا الألم عنه .

إنه نوع عجيب من تبادل التأثير والتأثر، من الفعل وردَّ الفعل، من
الامتزاج الكامل والانسجام التام . إنه الوحدة التي تنتظم فريقاً ربطت بين
أفراد وحدة الهدف، ووحدة الشعار، ووحدة الشعور . . إنها الأخوة في الله
الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو، تلك الأخوة التي رفع من شأنها القرآن
وسجلها في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

وهي أخوة أشرف من أخوة الدم وأعلى وأبقى ، وبدونها لا تتحقق حلاوة
الإيمان في قلب المسلم .

هذه الأخوة تمنح حقوقاً وتفرض التزامات، وإذا لم تراعى هذه الحقوق

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠ .

وتلك الواجبات لم تتحقق الأخوة ولم يصح الجسد. أما إذا روعيت وطبقت وأقيم السلوك على وفقها تحققت الأخوة وصح الجسد واستقام البنيان.

وقد أَرشدنا المثل الذي نحن بصدده إلى بعض الأخلاق والقيم التي ينبغي أن تسود المجتمع المسلم، وتكفل القرآن وأحاديث أخرى ببيان قيم وأخلاق تضاف إلى ما نحن بصدده.

والأدب الذي أدب الله ورسوله به أفراد المسلمين ومجتمعهم - باب واسع، لا يتسع المقام لاستيفائه هنا، وتكفينا الإشارة الموجزة إلى بعض أسسه، فمن القيم التي ينبغي أن تسود المجتمع المسلم.

- الرحمة:

وهي من صفات الله سبحانه وتعالى، وطالب عباده أن يتخلقوا بها، وأن يكون لها الصدارة في سلوكهم، وامتدح بها نبيه ﷺ في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

والرحمة من أهم صفات المجتمع المسلم، ومن أبرز ملامح الأخوة الإسلامية، تشيع الرحمة بينهم كعطر نديٍّ يُلطَّف جوَّ العلاقات، ويُطامنُ حِدَّةَ الغرائز، فيُعين المسلم على أن يغفر لأخيه زَلَّتْهُ. ويُمسك يَدَهُ عن الاعتداء، وتدفع القويَّ إلى مساعدة الضعيف، والغني إلى مساعدة الفقير.

إن المسلم مع أخيه المسلم متواضع، سمح، منكسر كأنه ذليل، وما به ذلة، إنها ذل الرحمة لا ذل القهر، إنها انكسار المحب لحبيبه، وتواضع الأخ لأخيه. والتواضع لا يصغر كبيراً ولا يضع عزيزاً. لكن الأمر يختلف عندما يقف أمام عدو الله، إنه حينئذٍ شامخ عزيز.

هكذا سجل القرآن سمة المجتمع الأول، الذي شرف بصحبة سيدنا

رسول الله ﷺ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ (١).

وهي صفة كل مجتمع مسلم من بعد، إن سار على درب الرسول
واهتدى بهديه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢).

هكذا شأن المؤمن في مجتمع المؤمنين: رحمة متبادلة وتواضع
وتطامن. وشأنه حين يواجه الكافرين عزة وشدة وقوة.

أما حين نجد بعض المنتسبين إلى الإسلام يقسو على المسلمين،
ويتعالى عليهم وَيُنْكَلُ بهم، على حين تجده لينا مع أعداء الإسلام. موالياً
لهم، ذليلاً أمامهم - فسندرك أن هؤلاء أبعد ما يكونون عن الإسلام وأدبه
وقيمه.

وقد نقرأ في تاريخ المسلمين سير حكام كانوا قساةً على المسلمين،
لكنهم كانوا أشد قسوة على الكفار، وكانوا أمامهم أمنع وأعز. لكن الجديد
الخطير في عصرنا الذي نعيشه هو وجود فئة تنتسب إلى المسلمين تستأسد
عليهم وتذل لعدوهم، وتنفذ مخططاته بعد أن استحوذ عليهم الشيطان.

ويكفيننا في الرحمة هذا القانون العام الذي قرره رسول الله ﷺ حين
قال: «من لا يُرحم لا يُرحم» (٣).

(١) آخر سورة محمد.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٣) كتاب الأدب من صحيح البخاري ٩/٨ ط. الشعب.

إن الرحمة شعار الإسلام، ومن أجلها جاء رسول الإسلام:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

ومن القانون السابق تدرك عموم الرحمة، فليست مقصورة على الإنسان، ولكنها مطلوبة لكل ذات كبد رطبة وفيها الثوب كما جاء في الحديث^(٢)، وقد دخلت امرأة النار لعدم رحمتها بقطة^(٣).

٢ - التوادُّ والصلة:

وهو سلوك يُعمِّق المحبة بين أفراد المجتمع، ويُشعر بالأخوة التي تنتظمهم.

ويبدأ هذا السلوك بصلة الوالدين وبرهما والإحسان إليهما، ثم يتسع ليشمل ذوي القربى؛ لأن الأسرة هي الأساس. ولا يُتصوَّر أن تسود القيم العظيمة في مجتمع والأسرة تفتقدُها، ثم تتسع الدائرة لتشمل الجار ثم كل مسلم.

ومن مظاهر هذا السلوك تبادل الزيارات وبخاصة في المناسبات، والسؤال عن أخيك المسلم إذا غاب، وعيادته إذا مرض، وتلبية دعوته إن دعاك. والبشاشة في وجهه إن التقيت به، ومبادرته بالسلام إن لقيته، والدعاء له إن عطس - وهو ما يعرف بتشميت العاطس:

يقول الرسول ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام وعبادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»^(٤).

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري ١١/٨ ط. الشعب في قصة الرجل الذي سقى كلباً عطشان.

(٣) صحيح البخاري ٣/١٩٠.

(٤) صحيح البخاري ٢/٩٠ ط. الشعب.

ومن مظاهر هذا السلوك تبادل التحية. وتحية الإسلام هي السلام، تحيي بها من عرفت ومن لم تعرف، وهي سنة غفل المسلمون عنها في أيامنا هذه وأهملوها مع حرص الإسلام عليها ووضعها القواعد لها، من تسليم القليل على الكثير، والصغير على الكبير، والراكب على المشي، والمشى على القاعد^(١)، ومع أمره ﷺ بإفشاء السلام: فقد روى عبد الله بن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٢).

ويقول عليه السلام تسمك في وجه أخيك لك صدقة^(٣)، فلا تتجهم في الناس وعاملهم برفق وحب.

كثير من التوجيهات الاجتماعية أتت بها السنة، وتخلق بها المسلمون الأوائل، ولا زالت جذورها في نفوس المسلمين إلى اليوم، ولا تحتاج الآن إلا إلى سقيها وتعهدها لتزهو في مجتمعنا وتفيض عليه بالمحبة والسلام.

٣ - التعاون:

وكما تتعاون اللبّات لتنتج بناءً متكاملًا قويًا، وكما تتعاون الأعضاء في خدمة الجسد الذي يتألف منها ويعطيها بدوره - يتعاون المسلم مع المسلم بنفسه، بماله، وبوجهته ومركزه الاجتماعي.

لا حياة بدون تعاون، لكن التعاون ينبغي أن يكون في خدمة الخير لا في خدمة الشر. يقول الله تبارك وتعالى:

-
- (١) انظر كتاب الاستئذان من صحيح البخاري وصحيح مسلم.
 - (٢) نفس المرجع السابق.
 - (٣) رواه الترمذي عن أبي ذر، وأحمد والترمذي عن أبي الدرداء.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (١).

وقد بين النبي ﷺ أن من الصدقة أن تعين ذا الحاجة الملهوف (٢).
ومن التعاون أن تسعى للناس في قضاء حاجاتهم، وأن تستخدم
وجاهتك ومكانتك في تحصيل حقوقهم.

وقد كان النبي ﷺ إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال: «اشفعوا
فلتؤجروا، وليقضي الله على لسان رسوله ما شاء»:

وفي هذا حض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة
إلى الكبير، في كشف كربة الضعيف ومعونته، إذ ليس كل أحد يقدر على
الوصول إلى الرئيس ولا يتمكن منه ليلج عليه أو يوضح له مراده ليعرف حاله
على وجهه. ولا يُستثنى من الوجوه التي تستحب فيها الشفاعة إلا الحدود،
وما لا حدَّ فيه تجوز فيه الشفاعة ولا سيما ممن وقعت منه الهفوة، أو كان من
أهل الستر والعفاف. وأما المصرون على فسادهم، المشتهرون في باطلهم فلا
يشفع فيهم ليزجروا عن ذلك.

والأجر على الشفاعة مخصوص بما تجوز فيه الشفاعة، وهي الشفاعة
الحسنة، وضابطها: ما أذن فيه الشرع. أما ما لم يأذن فيه الشرع فهي الشفاعة
السيئة، وعلى صاحبها الوزر، كما صرحت بذلك الآية الكريمة:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ
كَفْلٌ مِنْهَا﴾ (٣).

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

(٢) انظر كتاب الأدب من البخاري: ١٣/٨ ط. الشعب.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٥.

ولتكون للقيم الإسلامية فاعليتها في المجتمع نهى الإسلام عما من شأنه أن يضعف هذه القيم أوسيء إلى علاقات الأخوة التي تربطهم .

يقول تعالى :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ ءَعَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ ءَعَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا نَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (١) .

فالآيتان تنهيان عما يسيء إلى العلاقة بين الإخوة والأخوات، من السخرية بهم، والتهكم عليهم وشتمهم، وكذلك الظن السيء بهم والتجسس عليهم وكشف عوراتهم، وتنهى عن غيبتهم، والغيبة هي أن تذكر أخاك بما يكره، كما جاء في الحديث (٢) .

ويلاحظ أن هذه الآية جاءت عقب قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

لتأمر المسلمين باجتناب ما يتنافى مع هذه الأخوة أو يضعف من شأنها .

ويشرح رسول الله ﷺ هذه الآية يتفصيل حيث يقول: «إياكم والظن؛

فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا. وكونوا عباد الله إخواناً» (٣) .

(١) سورة الحجرات: الآيتان ١١ - ١٢ .

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

(٣) صحيح البخاري ٢٣/٨ .

وقال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»^(١).

و(لا) هذه تتكرر في نصوص كثيرة لتحمي مجتمع المسلمين؛ لتنهاتهم عن الوقوع فيما يصدع بنيانهم، ويفرق وحدتهم، ويجعل بأسهم بينهم.

إن هذا الدين العظيم لم يترك سبباً للقوة إلاّ أرشدنا إليه، ولم يدع ثغرة ينفذ منها الضعف والمرض إلاّ حذرنا منها، فلماذا لا نستمسك به ونعتصم ونعض عليه بالنواجذ؟

هل نحن جادون في إصلاح مجتمعنا وتقويته؟ إن كنا جادين فلماذا نعدل عن الأخذ بأسباب القوة والصلاح، ونستبدل بهما عوامل الضعف والانهايار؟

لماذا نصر على أن نأخذ بنظم تغرس العداوة، وتجنّي الحقد والدماء، وتحيل الناس إلى وحوش في غابة لا إلى إخوة في مجتمع؟

ألا تكفيننا التجربة المريرة التي تعرضنا لها عندما ابتعدنا عن دين الفطرة؟

فلنرجع إلى صراط الله ومنهاجه لنسعد بالحياتين، ونفوز بالدارين:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٢).

(١) صحيح البخاري ٢٥/٨ - ٢٦ ط الشعب.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾

[آية ٢ من سورة النفاثن]

من صفات المؤمن

١٥ — روى البخاري ومسلم، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء لا يسقط ورقها ولا يتحات. فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا. فأردت أن أقول هي النخلة فاستحييت فقال: هي النخلة^(١)».

١٦ — وروى أحمد بسند صحيح، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«والذي نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن لكمثل القطعة من الذهب نفخ عليها صاحبها فلم تغير ولم تنقص. والذي نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن لكمثل النحلة، أكلت طيباً ووضعت طيباً، ووقعت فلم تكسر ولم تُفسد»^(٢).

* * *

(١) رواه البخاري في عشرة مواضع من صحيحه، منها ثلاثة على الأقل في كتاب العلم؛ واللفظ هنا لروايته هذا الحديث في كتاب الأدب ٣٦/٨ مطابع الشعب.

(٢) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام ابن حنبل الشيباني ١١٢/١ حديث رقم ٩٥. نقل في تخريجه عن المناوي قال: إسناد أحمد جيد.

ورواه البزار بسنده عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش، وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، ويخون الأمين. قيل: يا رسول الله، فكيف المؤمن يومئذ؟ قال: كالنحلة وقعت فلم تكسر، وأكلت فلم تفسد ووضعت طيباً، وكقطعة الذهب أدخلت النار فأخرجت فلم تزد إلا جودة».

بيان التمثيل :

يشبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة، في عدم نقصانها، وثباتها، وشموخها، وكثرة فوائدها. ويشبهه بالذهب، في أصالته ونقاء جوهره وعموم الانتفاع به. ويشبهه بالنخلة، في لطف أخذها، وعدم إفسادها، ونفاسة عطائها.

* * *

أما بالنسبة للحديث الأول فقد جاء في بعض الروايات ما يفيد أن وجه الشبه بين النخلة والمؤمن أو المسلم هو عدم النقصان، كالرواية التي معنا، ويفسرهما رواية أخرى عن ابن عمر ولفظه: (كنا عند رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «إن مثل المؤمن كمثل شجرة لا تسقط لها أنملة، أتدرون ما هي؟ قالوا: لا، قال: هي النخلة لا تسقط لها أنملة، ولا تسقط لمؤمن دعوة»).

وروى البخاري هذا الحديث في (كتاب الأطعمة) وفيه أن وجه الشبه هو البركة في كلِّ، ولفظه «بيننا نحن عند النبي ﷺ إذ أتني بجُمَّار، فقال: إن من الشجر لَمَا بَرَكَتَهُ كبركة المسلم».

قال ابن حجر: وهذا أعم من الذي قبله، وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيسر تؤكل أنواعاً، ثم بعد ذلك يُنتفع بجميع جزائها، حتى النوى في علف الدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال، ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته.

وأما من زعم أن موقع التشبيه بين المسلم والنخلة من جهة كون النخلة إذا قطع رأسها ماتت؛ أو لأنها لا تحمل حتى تلقح؛ أو لأنها تموت إذا غرقت؛ أو لأن لطلعها رائحة مَنِيّ الأدمي؛ أو لأنها تعشق؛ أو لأنها تشرب من أعلاها -

فكلها أوجه ضعيفة؛ لأن جميع ذلك من المشابهات مشترك في الآدميين، لا يختص بالمسلم. وأضعف من ذلك قول من زعم أن ذلك لكونها خلقت من فضله طين آدم، فإن الحديث في ذلك لم يثبت^(١).

من معاني الحديث:

إن النبي ﷺ - وهو المعلم القدير، والمربي اللماح - لا يدع فرصة أو مناسبة إلا ويستفيد منها في توجيه أصحابه وثقيفهم وتنشيط قدراتهم وفتح عيونهم على حقائق الكون ومكنوناته.

لقد جاءه ﷺ جُمَار^(٢) في طبق ليأكله، فسأل أصحابه أن يخبروه عن شجرة مباركة يشبه بها المؤمن، فذهبت أفكار الأصحاب إلى أشجار البادية وجعل كل منهم يفسرها على هذا الأساس، ولم يفتنوا إلى أنها النخلة، غير أن ابن عمر رضي الله عنهما - فطن إلى هذا، بدلالة الارتباط بين الجمار والسؤال الذي جاء عقبيه، غير أنه لصغر سنة استحي أن يتكلم - وقد سكت أبو بكر وعمر - ثم صدق بعد ذلك حدسه، وأخبر أباه بما وقع فقال له: «لأن تكون قُلَّتْهَا أَحَبُّ إلى من أن يكون لي كذا وكذا»^(٣) تأسفاً على كونه لم يقل ذلك؛ فإن الأب يسعده ذكاء ابنه وبخاصة إذا ظهر في مثل هذا المجلس الكريم، وكان في إمكان ابن عمر - وقد منعه الحياء من القول إجلالاً لمن هو

(١) فتح الباري ١/١٤٥ - ١٤٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، وانظر بعض هذه

الأقوال الضعيفة في تفسير القرطبي ٩/٣٦٠ ط. دار الكتب.

(٢) الجمار جمع جمارة، وهو قلب النخلة وشحمها. وذكر ابن العربي على الترمذي (٣١٠/١٠) أنه يؤكل بالعسل، ويقال له الجامور أيضاً.

(٣) انظر البخاري باب الفهم في العلم، وباب الحياء في العلم، وباب طرح المسألة على أصحابه. كل هذا من كتاب العلم.

أكبر منه أن يذكر ذلك لغيره سراً، ليخبر عنه، فيكون جمع بين المصلحتين، ولهذا أتبع البخاري باب الحياء في العلم الذي روى فيه حديث ابن عمر (باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال).

وقد كرر البخاري حديث ابن عمر هذا مستوفى في تفسير قول الله تبارك وتعالى:

﴿الْمَ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبِّهَا﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ - ٢٥].

إشارة منه إلى أن المراد بالشجرة النخلة.

وقد ورد هذا صريحاً فيما رواه البزار، عن ابن عمر قال: قرأ رسول الله ﷺ، فذكر هذه الآية، فقال: «أتدرون ما هي؟ قال ابن عمر: لم يخفَ على أنها النخلة، فمنعني أن أتكلم مكان سني. فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة».

وعند ابن حبان عن ابن عمر ما يؤيد هذا حيث روى عنه أن النبي ﷺ قال: «من يخبرني عن شجرة مثلها مثل المؤمن، أصلها ثابت وفرعها في السماء».

وروى مثل هذا عن أنس بن مالك مرفوعاً، وإن كان الأصح وقفه على أنس^(١).

(١) فتح الباري ١/١٤٦ - ١٤٧ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والقرطبي ٩/٣٥٩، وموارد الظمان ٤٣٢ - ٤٣٣.

وهذا يفيد أن المؤمن يشبه النخلة في ثباتها وشموخها، زيادة على ما تقدم من شبهه بها في عموم بركتها والانتفاع بها وعدم نقصانها.

لقد فسرنا فيما مضى - الجليس الصالح بالمؤمن، وأن الخير والنفع والمصلحة الدنيوية والأخروية لازمة لمجالسته. وجاء في بعض الأخبار ما يصرح بنفع المؤمن وفائدته وبذله لغيره في جميع الأحوال، منها: «مثل المؤمن كالنخلة: إن صاحبه نفعك، وإن جالسته نفعك، وإن شاورته نفعك، كالنخلة كل شيء منها ينتفع به»^(١).

إن الإيمان يمنح الإنسان أشياء كثيرة، ويمده بطاقات لا حصر لها، ويفيض عليه من الخيرات والبركات ما يجعله نموذجاً ممتازاً بين بني جنسه. وقد جاء في الخبر: «لا نعلم شيئاً خيراً من مائة مثله إلا الرجل المؤمن»^(٢).

والإنسان بدون الإيمان حيوان في المرتبة الدنيا:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْآنَعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ﴾^(٣).

بل أضل من الحيوان؛ لأنه لم يستعمل الأدوات التي فضل بها على الحيوان فيما ينبغي له:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤).

لكنه بالإيمان يرتفع إلى آفاق عالية. لم يكن ليَسْمُوَ إليها بدونه، إنه في

(١) تفسير القرطبي ٣٦٠/٩.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الأوسط عن ابن عمر مرفوعاً. وقال في مجمع الزوائد ٦٤/١: مداره على أسامة بين زيد بن أسلم، وهو ضعيف.

(٣) سورة محمد: الآية ١٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

الأرض موصول بالسماء، كلمة الإيمان ثابتة في قلبه تمتد جذورها في أعماق نفسه، لا تؤثر فيها أعاصير الفتن، وعمله وروحه مرتفعان إلى السماء مشدودان إلى الملاء الأعلى، إنه يحكي النخلة في ثباتها وارتفاعها وشموخها وعزتها وخيرها وبركتها ونفعها.

إن المؤمن هو الإنسان الذي كرمه الله، وهو المستثنى من الخسران في سورة العصر ومن الترددي إلى أسفل سافلين في سورة التين، وهو الجدير بأن يطلق عليه أحسن الأسماء، ويوصف بخير الصفات، ولهذا استنكر رسول الله ﷺ أن يطلق على العنب (الكرم) وقال: «إنما الكرم قلب المؤمن»^(١).

وشأن المؤمن كله خير؛ لأن صلته واستمداده بالخير المطلق وهو الله سبحانه وتعالى، وهو يحب الناس جميعاً ويحب لهم الخير؛ لأنه ذاق لذة المحبة الخالصة، واتصل بمصدرها الأول، فأثر لذة هذا الاتصال على كل لذة وانعكس هذا على سلوكه وعلاقاته وآماله. والعمل الصالح ملازم للإيمان وقرينه، وهو لذلك ملازم للمؤمن، فالمؤمن صالح مصلح.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٨].

ومعدن المؤمن معدن نقي نفيس، يلمع حتى في التراب، ولا تزيده الاختبارات إلا صفاءً ولمعاناً ونفاسةً، فهو لا يذوب في غيره، ولا يتحول عن أصله، ولا يتزحزح عن إيمانه ولا يغفل عن ربه في السراء أو في الضراء، ولا ينسى رسالته في المنشط أو في المكروه. والمؤمن لا يعرى من لباس

(١) كتاب الأدب من صحيح البخاري ٥٢/٨.

التقوى كما لا تعرى النخلة عن الورق، والتقوى خير زاد، وخير لباس^(١).
وكما يقي اللباسُ الظاهرُ البدنَ من غوائل المرض وتقلبات الجو، كذلك التقوى تقي
النفس والقلب: فلباس النفس الورع، وهو ترك ما فيه شبهة، وهو السترة بينها
وبين الحرام. وقد قالوا: لباس العابدين ترك الحرام، ولباس العارفين مجانبة
الآثام، ولباس المحبين نبذ الآثام^(٢).

والمؤمن كالنخلة، دائب العمل، دائب النفع، يتخير من الطيبات،
ولا يصدر عنه إلا الطيب، سواء في القول أو في العمل:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٣).

وهو يتناول من طيبات ما خلق الله له، ويدع الخبيث كما أمر:
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤).

وهو لا ينفق إلا طيباً:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(٥).

وهكذا شأنه كله: يستمع إلى أحسن القول فيتبعه، ويعرض عن اللغو،
كما أخبر سبحانه عن ذلك في بيان صفة المؤمنين في أول سورة (المؤمنون):

(١) قال تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، سورة البقرة: الآية ١٩٧، وقال

تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾، سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٢) ابن العربي على الترمذي ٣١٠/١٠ - ٣١٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ

مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ .

فلا يقول إلا المفيد النافع، ولا يفعل إلا المفيد النافع، لا يضر أحداً ولا يخشاه صاحب حق، ولا يأخذ إلا بقدر حاجته، ثم يعطي أحسن ما يكون العطاء من نفسه وماله، ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، لا يفسد في الأرض ولا يطغى على الخلق، كالنحلة تهبط برفق ورشاقة على الزهرة، ترشف منها، ثم تغادرها دون أن تفسدها أو تشوه جمالها، أو تكسر الغصن الذي يحملها. هكذا طبعها الذي جُبلت عليه، وسلوكها الذي لا تحيد عنه، لا تعرف الإفساد ولا تقلد غيرها، حتى لو حطمت الفيلة الغابة من حولها، أو كسرت القرود أغصان النبات على مرأى منها، ذلك لأن الله تعالى يقول:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي

الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٥٦﴾ . [الأعراف: ٥٥ - ٥٦].

ويقول تعالى على لسان شعيب:

﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٨٥﴾ .

[الأعراف: ٨٥].

وقد جعل الله سبحانه الذين آمنوا في مقابلة المفسدين في الأرض،

فقال:

﴿ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ [سورة ص: الآية ٢٨].

وهكذا المؤمن في كل حين، حتى في الأوقات التي يسيطر فيها

الفساد. وقد روى عن ابن عمرو بن العاص مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى

يظهر الفحش وقطيعة الرحم وسوء الجوار، ويخون الأمين. قيل:

يا رسول الله، فكيف المؤمن يومئذ؟ قال: كالنحلة، وقعت فلم تفسد، وأكلت فلم تكسر ووضعت طيباً»^(١).

وليس الإيمان بالتمني، وإلاً تشبهنا بأهل الكتاب حين قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾. وقد رد الله عليهم قولهم هذا بقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، [البقرة ١١١] فإن الغايات المطلوبة والأهداف السامية لا يحققها مجرد الأمان بل لا غنى في تحقيقها عن العمل الجاد المثمر، والجنة من أسمى الغايات فالحصول عليها يحتاج إلى كثير من العمل، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ، وَلَا يَحِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٢٣] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾. [النساء: ١٢٣-١٢٤].

ولكنه اعتقاد واقتناع يترجم إلى سلوك وأعمال: فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، يكون له أثره في السلوك والطاعة لله ورسوله، وفي القرآن آيات كثيرة تقدم النموذج الأمثل للمؤمن وتذكر صفاته، كأول سورة (المؤمنون) وغيرها، كما تنفي السنة الإيمان عن يرتكب الموبقات حين يرتكبها، وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وعمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه وهكذا.

ولما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً، وكان يدعي الإيمان ويزعم الإخلاص بلسانه - أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر حقيقة هذا الادعاء ومدى صدقه، فابتلاه بالخير والشر، وامتحنه بألوان من البلاء لتتحدد مكانته. وهو موضوع الأحاديث التالية.

**

(١) رواه البزار، وإسناده لين، فيه عبد الرحمن بن مغراء، وثقه أبو زرعة وجماعة، وضعفه ابن المديني، وبقية رجاله رجال الصحيح، وكذا في مجمع الزوائد ٣١٧/٧، وانظر جمع الفوائد ٧١٥/٢.

سنبله في مهب الرياح

١٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، من حيث أتتها الرياح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر كالأرزة، صماء معتدلة، حتى يقصمها الله إذا شاء»^(١).

* * *

ألفاظ الحديث:

الخامة من الزرع: هي الغضة الرطبة اللينة ذات القصة الواحدة أو هي أول ما ينبت على ساق واحدة.

كفأتها: أمالتها.

فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء: فإذا اعتدلت الخامة مالت مرة أخرى بالريح، وهكذا شأن المؤمن يتكفأ بالبلاء:

ويجوز أن يكون الضمير في (اعتدلت) للريح ويكون هناك حذف

(١) هذه رواية البخاري في باب ما جاء في كفارة المرض، ١٤٩/٧، وانظر مسلم بشرح النووي ١٥١/١٧ - ١٥٢، والترمذي بشرح ابن العربي ٣٠٩/١٠ - ٣١٠، وجامع الأصول ١٨١/١ - ١٨٣. وفي فتح الباري ١٠٦/١٠ من النسخة المحققة أنه وقع عند أحمد في حديث جابر: «مثل المؤمن مثل السنبله، تستقيم مرة وتخر أخرى». وانظر الفتح الرباني ١١٢/١ - ١١٣ وفيه هذا الحديث بسنده برقم ٩٦، وقال في إسناده ابن لهيعة، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير.

تقديره: فإذا اعتدلت الريح استقامت الخامة، وهكذا شأن المؤمن. ويؤيد هذا التأويل رواية البخاري هذا الحديث في (باب المشيئة والإرادة) من كتاب التوحيد، وفيه: «فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء».

وعند الترمذي: «مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء...»، وقوله: «تفيئه» أي تميله عن حاله ثم ترده مرة أخرى.

الفاجر: في رواية للبخاري ومسلم والترمذي «المنافق»، وفي روايات لمسلم «ومثل الكافر» وكلها متقاربة.

الأرزة: بفتح الهمزة والراء، شجرة الأرز: وهو شجر معروف معتدل صلب لا تحركه الرياح. وبسكون الراء شجرة الصنوبر، وهو يعمر طويلاً، ويكثر وجوده في جبال لبنان.

الصماء: المكتنزة الممتلئة التي لا تخلخل فيها، أي ساقها ليست مجوفة.

يَقْصِمُهَا: يكسرهما. وجاء في بعض الروايات: (حتى يكون انجعافها مرة واحدة) والانجعاف هو الانقطاع والافتلاع.

معنى التمثيل:

في الحديث تشبيه المؤمن في تعرضه للبلاء، بالغض اللين من النبات في تعرضه للرياح. ووجه الشبه هو التعرض للمؤثرات، والاستجابة لها، والصبر عليها.

وفيه كذلك تشبيه الكافر في عدم استجابته للبلاء، بالشجرة الصلبة في عدم تأثرها بالرياح حتى تقتلعها أعاصير الموت.

من معاني الحديث :

تهب رياح المقادير على الكون، فتنظم الخلق جميعاً بما فيهم أهل الأرض مسلمهم وكافرهم، وهذه المقادير مرتبطة بأسباب متشابكة يعجز الخلق عن إدراكها. والمخلوقات جميعاً - عدا الإنسان - يقرّون لله سبحانه بالربوبية، ويسجدون له اعترافاً بعبوديتهم. أما الإنسان الذي ابتلاه الله بالعقل فينقسم إلى فريقين: (فريق في الجنة وفريق في السعير)، فريق في الجنة؛ لأنه نجح في الابتلاء واهتدى إلى الطريق، وفريق في النار؛ لأنه رسب في الامتحان، وانحرف عن الطريق على علم، وآثر العاجلة على الباقية.

وقد سجل الله سبحانه وتعالى هذا المعنى الذي يبيّن إذعان المخلوقات كلها لله إلاّ الناس فمنهم المذعن ومنهم المتمرد - سجل هذا في قوله عز وجل :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَجَدُوا لِلَّهِ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفِي آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ أُولَئِكَ نَجْزِيهِمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١).

فالمخلوقات كلها تسجد لله إلاّ الناس فبعضهم هو الذي يسجد.

ووسيلة التعرف على الفريقين الذين سجدوا لله، والذين حق عليهم العذاب - هو الامتحان. والدنيا بما تحتويه امتحان يُحدّد أقدار الناس في الآخرة:

﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّاكُمْ﴾ (٢).

ومع كونها امتحاناً، ففيها بعض الجزاء، ربطاً للأسباب بمسبباتها.

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

ومن هنا كان الإنسان عرضة للبلاء، ورياح المقادير تهب على الناس مؤمنهم وكافرهم، لكن المؤمن يتعرّف على ربه ويزداد إليه قرباً بها، أما الكافر فهو غافل عن ربه، ولا يتأثر بها.

والبلاء يصيب الكافر والمؤمن: فيكون للكافر عقوبة وإنذاراً، فلا ينتفع، ولا يراجع نفسه، ولا يدرك خطأه، ولا يفطن إلى عاقبته، ولا يستدرك ما فاتته.

ويكون للمؤمن عقوبة فيستدرك خطأه ويرجع إلى ربه ويستغفره، فتكون سبباً لتكفير خطاياهم وزيادة ثوابه.

أو قد تكون سبباً لتمحيص المؤمن وتخليصه وتمييزه عن الأعداء والمرائين.

وقد سبق ذكر الآية التي تبين أن البلاء يكون بالخير وبالشر، لكن الاستعمال خصه بالمصائب كالأمرض والشدائد، وكل ما يثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذل وأذية الخلق. وهذا المعنى هو المقصود في الحديث الذي نتناوله بالشرح.

وقد قسم بعض العارفين ما يصيب الناس من هذه المصائب إلى ثلاثة أقسام باعتبار الحكمة فيها:

١ - قسم عقوبة وطرده.

٢ - قسم تأديب وتنبية.

٣ - قسم زيادة وترقُّ.

١ - أما الذي هو عقوبة وطرده، فهو بالنسبة لمن يسيء الأدب، فيعاقبه الحق تعالى، فيجهل ويسخط ويقنط وينكر، فيزداد من الله طرداً وبعداً.

٢ - وأما القسم الذي هو تأديب، فهو الذي يسيء الأدب، فيؤدبه

الحق تعالى، فيعرفه فيها، وينتبه لسوء أدبه، وينهض من غفلته. فهي في حقه
نعمة في مظهر النعمة.

٣ - وأما الذي هي في حقه زيادة وترق، فهو الذي تنزل به هذه
التعرفات الجلالية - المصائب - من غير سبب، فيعرف فيها ويتأدب معها،
ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين^(١).

فالفرق بين القسمين الأول والثاني: أن الأول لم يدرك الإنذار، وكبر
عليه أن يعترف بخطأه، فَلَجَّ فِي غِيِّهِ، فكانت عاقبة أمره خُسرًا في الدنيا
والآخرة. أما القسم الثاني فأدرك وتنبه وعرف ورجع وأصلح من شأنه، فربح
الدنيا والآخرة.

ومن القسم الأول ما قصه الله عز وجل من خبر فرعون بعد أن كذب بما
جاء به موسى، ولم تزد الآيات إلا عُتُوًّا وَبَغْيًا، فنزلت عليه المصائب تأديباً
وإنذاراً لعله يرجع إلى صوابه:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾^(٣).

أرسل عليهم هذه المصائب ليتذكروا ويذعنوا ويؤمنوا. لكنهم
استكبروا، فكان المَحْقُ والاستئصال والطرْد من رحمة الله سبحانه.

(١) يفاظ الهمم في شرح الحكم، لأحمد بن محمد بن عجيبة الحسني ص ٢٨ - ٢٩،
ط. مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الثانية.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٣٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٣.

وما حدث لآل فرعون حدث لغيرهم من قبلهم ومن بعدهم، إذ هو قانون من قوانين الكون، فما أن ينحرف قوم عن طريق الله حتى تصب عليهم المصائب، إنذاراً بالانحراف، وتذكيراً بالعودة إلى الله، فمن أراد الله به الخير انتفع ورجع، ومن تبدد حسه وتغلبت عليه شهواته فإلى النار وبئس القرار. يقول تعالى بياناً لهذا القانون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْضَرُّونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (١).

وهذا قانون عظيم ينبغي التنبيه إليه والأخذ به، فعندما تحل المصائب بالناس، يجب عليهم أن يعيدوا النظر في أعمالهم، وأن يصلحوا من شأنهم، وألا يلوموا إلا أنفسهم. ففي ذلك أخذ بأسباب النجاة. أما إذا نسوا ما ذكروا به واستمروا في غيهم، فأمامهم العقاب الذي لا أمل في رده، ولا قدرة على دفعه، وهو أخوف ما أخافه على أمم الإسلام في هذه الأيام، التي نبذت دينها، ورضيت بمنهاج عدوها، فانهالت عليها المصائب تنبيهاً وتذكيراً وإنذاراً، وهي مستمرة في غفلتها، سادرة في ضلالها، لا تنتفع بإنذار، ولا تتذكر بتنبيه.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَثَرُوا إِلَيْهِمْ وَمَا يَنْضَرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة المؤمنون].

ومن القسم الثاني ما أصاب الله به المؤمنين يوم أحد وحين تأديباً وتمحيصاً فأصابتهم الهزيمة وشاهدوا الأهوال يوم أحد بذنوبهم:

(١) سورة الأنعام: الآيات ٤٢ - ٤٥.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أُرِيكُمْ
مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ ﴾ (١)

وكان ما أصابهم يوم أحد تمحيصاً لهم كذلك ورفعاً لدرجات المؤمنين:
﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ۗ ﴾ (٢)

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَىٰ الْجَمْعَانَ فِإِذِٰنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ
نَافَقُوْا ۗ ﴾ (٣)

وهذا قانون آخر من قوانين الكون: لا يكفي في الإيمان كلمة تقال
باللسان أو شعائر تؤدي في حالة الأمن والاطمئنان، بل لا بد من اختبار يميز
بين الصادق وغيره، بين المقتنع بإيمانه، المتشبث به، المضحي لأجله،
والكاذب المرائي الذي يعبد الله على حرف:

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ ۗ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ۗ ﴾ (٤)

ولا بد من تربية المؤمنين بإدخالهم فرن المحن ليخرجوا منه أصفى
جوهرًا وأنقى عنصراً، فيستأهلون دخول الجنة حينئذ:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤١ .

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤) سورة العنكبوت: الآيتان ٢ ، ٣ .

الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١﴾ .

ومن هذا القبيل ما يصيب الفرد المؤمن من أنواع البلاء، فيدرك نعمة الله فيها، فتكفر عنه خطاياها، وتسقط عنه أوزاره، كما تسقط الأوراق عن الشجرة في الخريف، ثم يشبهه الله بقدر معرفته وشكره:

إن البلاء اختبار من الله تبارك وتعالى ومعيار للناس، وبه تعرف الفضة والذهب من النحاس، فكثير من المُدَّعِين يُظْهِرُونَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمُ الْمَعْرِفَةَ وَالْيَقِينَ، فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار. وقد قالوا: إذا أراد الله أن يطوي مسافة البعد بينه وبين عبده، سلط عليه البلاء. وما زال العارفون يفرحون بهذه النوازل^(٢).

ويقول مولانا رسول الله ﷺ في بيان النعمة في هذه النعمة: «من يرد الله به خيراً يصب منه»^(٣)، أي يوجه إليه المصائب ويبتليه بها، ليكفر من خطاياها، وليثيبه عليها.

ويقول ﷺ في بيان فائدة النوازل التي تنزل بالمؤمن: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٤).

ولأن البلاء نعمة – وإن كان فيه ما يؤلم – كان أمر المؤمن كله خيراً؛

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤ .

(٢) انظر: إيقاظ الهمم، لابن عجيبة ص ٢٨ .

(٣) صحيح البخاري ١٤٨/٧ و ١٤٩، ط. الشعب.

(٤) نفس المرجع السابق.

لأن أحواله دائرة بين الصبر والشكر، كما جاء في الحديث: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء فشكر الله فله أجر، وإن أصابته ضراء فصبر فله أجر، إن أمره كله خير»^(١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما ابتليتُ ببلاء إلا كان لله تعالى عَلِيٌّ فيه أربعُ نَعَمٍ: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه»^(٢).

وهذا شأن الخواص الْمُصْطَفَيْنَ من الناس، وهم أصحاب القسم الثالث، الذين يريد الله أن يُعَلِّيَ من شأنهم ويرفع من أقدارهم فيكون الامتحان مناسباً لدرجتهم.

إن الدرجات العلمية في حياتنا مختلفة المراتب، تترقى من الأدنى إلى الأعلى ولا يعقل أن يتساوى الامتحان بين أعلى الدرجات وأدناها ثم أعلى الدرجات قد يكون على مستوى الدولة أو على مستوى عدد من الدول، وهذا يضاعف من صعوبة الامتحان وشروط المتقدم إلى هذه الدرجة.

ومن هنا جاء القانون الذي عبر عنه المصطفى ﷺ بقوله وقد سئل: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه»^(٣).

وهذا البلاء إعداد لهم وتربية تتناسب مع رسالتهم، ثم يواجهون بألوان من البلاء على يد خصومهم وهم في كل ذلك المثل الأعلى والقُدوة الكاملة، فيكون لهم الأثر الخالد والذكر الحميد، والتأثير المطلوب في حياة الناس.

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٢٢٨٤، ط. الشعب.

(٣) رواه الدارمي ٢/٢٢٨ كتاب الرقاق من سننه، وابن ماجه باب الصبر على البلاء من كتاب الفتن ٢/١٣٣٤، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم.

وليس البلاء الذي يصيب أصحاب هذه الدرجات مقصوراً على ما يُلقونهُ من مِحْنٍ في دعوتهم إلى الله - بل ما يصيبهم في خاصة أنفسهم من أمراض وفقد أعزّة، يكون أكثر من غيرهم، ولهذا أصيب ﷺ في أولاده وفي خاصة أهله، وكان يصاب بالحمى فتثقل عليه، ودخل عليه عبد الله بن مسعود وهو يُوعك - يرتعد من الحمى - فقال: يا رسول الله، إنك توعدك وعكاً شديداً، قال: «أجل كما يوعدك رجلان منكم»^(١).

إن المؤمن يرفع الله من درجته ويكفر من خطاياہ. فيعجل من عقوبته، ولذا يصيبه البلاء بعد البلاء، حتى لا يطمئن إلى الدنيا ولا يركن إليها، فيزداد شوقه إلى دار النعيم ويعمل لها. أما الكافر فقد رضي بالدنيا واطمأن إليها، وغفل عن لقاء الله سبحانه وتعالى، فالله يملي له ويمهله ثم يهلكه بغتة، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ آتٍ كِيدِي مَتِينٌ ﴿٢﴾﴾

ويقول تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٣﴾﴾

فينبغي على المؤمن أن يعلم نعمة الله عليه في الضراء، كما عرفها في السراء، فإنه لم يبتله إلا ليدكره إن نسي، أو ليكفر عنه ذنباً، وابن آدم كله أخطاء، ولأن تدركه العقوبة في الدنيا فتطهره خير من أن تدخر له في الآخرة،

(١) صحيح البخاري ١٥٠/٧، ط. الشعب.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٨٢، ١٨٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

أوليرفع من درجته . فإذا أدرك الإنسان حقيقة البلاء انقلبت المحنة في حقه منحة ، واستحالت البلية عطية ، (فإن الله على العبد عبودية في الضراء ، كما له عبودية في السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يجب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون . والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ، ففيه تتفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى)^(١) .

*
**

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم ص ٣ .

الإيمان قيْدُ المؤمن

١٨ — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مثل المؤمن كمثل الفرس على آخِيَّتِهِ، يجول ثم يرجع على آخِيَّتِهِ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان»^(١).

* * *

المفردات:

آخِيَّتِهِ: بفتح الهمزة ممدودة، وكسر الخاء المعجمة، وفتح الياء المثناة مشددة: هو عبارة عن جبل صغير أو عود يعرض في الحائط، ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة، وتشدُّ فيه الدابة: وجمعه: الأواخي، مشدداً، والأخايا على غير قياس^(٢).

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه المؤمن في بعده عن ربه بالذنوب مع ثبات أصل الإيمان في قلبه — بالدابة المربوطة في عروة، تبعد عنها، ثم تعود إليها.

(١) رواه أحمد، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وحسنه السيوطي، وقال في (الفتح الرباني وبلوغ الأمان ١/١١٣):

الحديث سنده جيد. وسند أحمد هو كما جاء في المسند: (حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا أبو عبد الرحمن، قال: ثنا سعيد بن أبي أيوب، ثنا عبد الله بن الوليد، عن أبي سليمان الليثي، عن أبي سعيد الخدري).

(٢) وقد شرحها ابن حجر في (فتح الباري ٤/٣١٠) ط السلفية، في باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا.

ووجه الشبه: هو الارتباط بمركز ثابت في كلِّ.

من معاني الحديث:

أثنى الله سبحانه على المتقين في القرآن، وذكر من صفاتهم، أنهم إذا بعدوا عن الله بالمعصية فاءوا إليه بالطاعة، وإذا نسوا الله بالذنب ذكروه بالاستغفار، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ وَكَلَّمَ يُصِرُّوْا عَلٰى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

ذلك أن المؤمن إنسان، والإنسان - إلا من عصم ربك - خطأ، والشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنًا محكمًا، كما يقول الغزالي (٢)، والفرق بين المؤمن وغيره أن المؤمن يدرك خطأه ويمنعه إيمانه عن الاسترسال في هذا الخطأ، ويدفعه إلى الاعتذار عنه والتوبة منه فالإيمان قيد المؤمن، يحول بينه وبين الاسترسال في الذنوب، ويجذبه إليه إن سَوَّلَتْ له نفسه أن يُمَعِنَ في البعد، حتى لا يضل في تيه الشهوات، حيث تدفعه غرائزه إلى حماقات قد يكون فيها هلاكه، كالفراشة التي يجذبها الضوء فتحرق نفسها في ناره.

والحديث يفيد أن المؤمن يجاهد نفسه، ويصارع شهواته المحرمة، فيغلبها وتغلبه ويصرعها وتصرعه، إذ الغرائز كالفرس، كثيرة الحركة، قوية الاندفاع لكن الإيمان يُرَوِّضُهَا، ويمنع اندفاعها، ويحدد حركتها. وقد ينسى المؤمن في لحظة من لحظات الضعف مقتضى إيمانه، فيقع في الذنوب عن جهل، أي عن غلبة غرائزه وتمكن الشهوات من نفسه، لكنه يعود فيتذكر،

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

(٢) إحياء علوم الدين ص ٢٠٧١، ط. الشعب.

ويخجل من فعله، ويسأل ربه المغفرة: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم».

فالمؤمن – كما قال بعض العارفين – إن عصي قال: يا رب استر عليّ فإذا فرغ من المعصية، قال: يا رب تب عليّ، فإذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال: يا رب تقبل مني.

ومن أجل هذا فتح الله باب التوبة والاستغفار، وأمر المؤمن أن يطرق هذا الباب:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوْبُوْا إِلَىٰ اللّٰهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا﴾ (١).

وهذه التوبة هي رجوع وعودة إلى مقتضى الإيمان. لكنه إن سَوَّفَ فيها حتى يأتيه الموت لم تنفعه، وكان كالفرس الذي انقطع قيده فاندفع في الصحراء، ولما أوشك على الموت عطشاً وجوعاً أراد الرجوع إلى قيده حيث الأمان والسلامة، فلم تسعفه قوته وهلك في الصحراء:

ومن رحمة الله بالمؤمن بعد أن فتح له باب التوبة والاستغفار، أن جعل العمل الصالح ما حيا لما اقترفه من سيئات. فقال تعالى:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (٢).

وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت. واتبع السيئة الحسنة تمحها». وجعل الصلوات الخمس كفارة لما بينهن من الصغائر، وجعل ما يبتلئ به الإنسان في نفسه وماله كفارة لخطاياها كما سبق.

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

(٢) سورة هود: الآية ١١٤.

فهنيئاً لك أيها المؤمن بإيمانك، إنه حصنك فاحتم به، وإنه درعك
فاحرص عليه، وإنه طوق النجاة فتشبث به.

* * *

وتكفينا هذه العجالة عن المؤمن وصفاته، لنشير إلى المنافق وصفاته.
وبضدها تميز الأشياء.

*
**

المنافق

١٩ — روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين: تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة». وفي رواية: «تكرّر في هذه مرة وفي هذه مرة»^(١).

* * *

المفردات:

النفاق، وما تصرف منه اسماً وفعلاً: اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه. وإن كان أصله في اللغة معروفاً، وهو مأخوذ من النافقاء أحد جحور اليربوع، إذا طلب من واحد هرب من الآخر، أو من النفق. وهو السرب الذي يستتر فيه. سمي به المنافق لستره كفره. وهذا هو نفاق الكفر. وقد يستعمل في نفاق العمل. كالرياء؛ لأن فيه إظهار غير ما في الباطن.

والنفاق: بفتح النون المشددة بمعنى الرواج ضد الكساد. يقال: نفقت السلعة فهي نافقة. أي راجت. ونفقتها — بتشديد الفاء — أي روجتها. ويقال: نفقت الدابة: إذا ماتت.

الشاة العائرة: المترددة بين قطيعين: لا تدري أيهما تتبع. من عار

(١) مسلم بشرح النووي ١٧/١٢٨. المطبعة المصرية ومكبتها.

الفرس يعير. إذا انفلت من زمامه وانطلق على وجهه فلا يعرف له صاحب^(١).

بيان التمثيل :

في الحديث تشبيه المنافق في إظهاره الإسلام وإضماره الكفر، وتردده بين المؤمنين والكافرين - بالشاة التي لا تعرف قطيعها، فهي تلحق بقطيع ثم تتركه لتنتسب إلى غيره، ثم تعيد الكرة وهكذا. ووجه الشبه هو التذبذب والحيرة وعدم الانتماء.

من معاني الحديث :

هذا الحديث بيان لقوله تعالى في صفة المنافقين :

﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾^(٢).

وقبل هذه الآية جاء في وصفهم :

﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقد فضحهم الله تعالى في أوائل سورة البقرة، وذكر كثيراً من صفاتهم، وأنهم قالوا بألستهم آمناً ولم تؤمن قلوبهم وأنهم يظهرون الإيمان أمام المؤمنين والكفر أمام الكافرين.

وقد عنى القرآن بشأن هؤلاء المرضى الذين :

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾^(٣).

(١) النهاية، لابن الأثير، مادة (نفق، ع ي ر).

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٠.

في أكثر من موضع، وذكر كثيراً من صفاتهم وملامحهم في سورة (التوبة) وسورة (المنافقون) وسورة (الحشر) وغيرها.

وأهم صفات المنافق أنه حائر متردد محروم من الانتماء: فلا هو مسلم ولا هو كافر، وهو خطر على المؤمنين، وفائدته غير مرجوة للكافرين، كما حكى القرآن عن موقفهم مع اليهود في عهد رسول الله ﷺ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١).

ومن أجل هذا الموقف المذبذب سماه الرسول ﷺ ذا الوجهين، حين قال: (وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) (٢).

وطائفة المنافقين هذه عانى منها المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وعانى منها المسلمون من بعد، ولم يخل منهم عصر، تجدهم يحسنون القول، ويضمرون الكيد للإسلام وأهله، إنهم الطابور الخامس، بلغة العسكريين.

ومن سماتهم الغدر والخيانة، والكذب، وتجاوز الحد في المخاصمة، كما جاء في الحديث.

(١) سورة الحشر: الآيتان ١١، ١٢.

(٢) متفق عليه. انظر صحيح البخاري في المناقب ٤/٢١٧، وكتاب الأدب ٨/٢١، ط. الشعب، ومسلم بشرح النووي ١٨/٧٨ - ٧٩.

(أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)^(١).

وفي هذا الحديث تحذير المسلمين من هذه الرذائل التي لا تليق بالمؤمن، والتي يؤدي التخلُّق بها أو بأحدها إلى أن يصير منافقاً أو أشبه بالمنافق.

وقد كان السلف الصالح حريصاً على أن يتعد عن النفاق في عمله وسلوكه خائفاً من أن يكون في تصرفاته ما يقاربه إلى صفات المنافقين، ومن أهم ذلك الرياء وهو الشرك الخفي وقد ترجم البخاري لهذا فقال: (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال: إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً، وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا آمنه إلا منافق).

وقول الحسن: (ما خافه... آمنه) الضمير فيه يعود إلى النفاق، كما أوضحه ابن حجر^(٢).

وقد كان عمر بن الخطاب يسأل حذيفة عن نفسه، وهل ذكر - أي عمر - في المنافقين^(٣).

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري ١١١/١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) إحياء علوم الدين ص ٢١٨، ط. دار الشعب.

والنفاق الذي كان يخشاه هؤلاء السلف، ليس بطبيعة الحال نفاق الكفر، لكنه ما يتعارض مع الإخلاص ومع حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفائه، لا مع أصله.

فالنفاق نفاقان:

أحدهما: يخرج من الدين ويلحق بالكافرين.

والثاني: ينقص من الدرجات ويضعف من الإيمان. نعوذ بالله منهما كليهما.

إن النفاق صفة قبيحة تدل على مرض النفس التي تصاب به وخبثها، وقد صور الحديث صاحبها في صورة منفرة عندما شبهه بالشاة المتحيرة، وقد جاء حديث آخر يصوره وقد ترك أحسن القول فلم يتبعه. والمعروف أن المؤمنين:

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(١).

أما المنافقون فيستمعون القول فيتبعون أسوأه. وقد جاء هذا في الحديث الآخر يبرز هذا السلوك فيهم فيقول: «مثل الذي يجلس يسمع الحكمة ولا يحدث عن صاحبه إلا بشر ما يسمع، كمثل رجل أتى راعياً، فقال: يا راعي، أجزرني شاة من غنمك. فقال: اذهب فخذ بأذن خيرها شاة. فذهب فأخذ بإذن كلب الغنم»^(٢)، فقد طلب من الراعي شاة تصلح

(١) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٢) سنن ابن ماجه، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٦/٢ - ١٣٩٧. وفي الهامش نقلاً عن مجمع الزوائد: هذا إسناده ضعيف، لأن مدار الإسناد فيه على (علي بن زيد بن جدعان) وهو ضعيف، وانظر: الفتح الكبير ١٢٩/٣.

للذبح وهو معنى (أجزرنى) فمنحه الراعي أفضل ما عنده، ولكنه اختار أسوأ ما عنده مما لا يصلح لغرضه ألبتة، فكانوا كما قال الله فيهم:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَحْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَاهِ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

**

قُرَّأتْ عِبَادَةَ وَفِكْر

تلاوة القرآن وتعهده

٢٠ - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة: ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ريحها مر وطعمها مر» وفي رواية للبخاري (طعمها مر ولا ريح لها)، (ومثل الفاجر) بدل من (ومثل المنافق).

٢١ - وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنما مثل صاحب القرآن، كمثل صاحب الإبل المعقلة. إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهب» متفق عليهما^(١).

* * *

(١) وانظر البخاري في باب فضل القرآن - على سائر الكلام - ٢٣٤/٦ - ٢٣٥، ٢٤٤ ط. الشعب. ولفظ الحديث الأول للترمذي بشرح ابن العربي في أبواب الأمثال ٣٠٨/١٠ - ٣٠٩، وفي الحديث الثاني جامع الأصول ٦/٣ وقال: أخرجه الجماعة إلا الترمذي وأبا داود، وانظر باب استذكار القرآن وتعاوده في البخاري ٢٣٧/٦ - ٢٣٨، ومسلم بشرح النووي ٧٥/٦ باب فضائل القرآن وما يتعلق به، و٨٣/٦ - ٨٤ باب فضيلة حافظ القرآن، من كتاب الصلاة.

المفردات :

الأترجة: بضم الهمزة والراء، وبينهما تاء ساكنة وتشديد الجيم المفتوحة وقد تخفف ويزاد قبلها نون ساكنة، فيقال: أترجة^(١).

المعقلة: بضم الميم وفتح العين والقاف المشددة: أي الإبل المشدودة بالعقال، والعقال - بكسر العين - هو الحبل الذي تشد به ركبة البعير.

بيان التمثيل :

في الحديث الأول تشبيه المؤمن قارئ القرآن بفاكهة تجمع بين طيب الرائحة وحلاوة الطعم، في طيب الباطن والظاهر. والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن بثمرة طيبة الباطن لا ریح لها، في طيب الباطن وانتفاء الرائحة الطيبة، والمنافق الذي يقرأ القرآن بنبات تنتشر رائحته الطيبة لكن مذاقه مر، ووجه الشبه خبث الباطن وطيب الظاهر. والمنافق الذي لا يقرأ القرآن بنبات مر الطعم لا ریح له، في خبث الباطن وانتفاء طيب الرائحة.

وفي الحديث الثاني تشبيه حال المؤمن مع القرآن، بحال صاحب الإبل مع إبله. ووجه الشبه: الحفظ في حالة الاهتمام والرعاية والتفقد، والضياع في حالة الإهمال وعدم الاهتمام.

من معاني الحديثين :

كانت ليلة عظيمة القدر حين نزل القرآن على محمد ﷺ، نوراً يضيء ليل البشرية، بعد أن تخبطت طويلاً في حالك ظلامه. فأخرجها من الظلمات إلى النور، وهداها إلى الطريق المستقيم، ورفع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها، ونقلها من الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن

(١) انظر بعض خواصها في فتح الباري ٦٦/٩ - ٧٧ بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي،

وزاد المعاد لابن قيم الجوزية ٢٨٣/٤ - ٢٨٥ تحقيق شعيب الأرنؤوط.

الظلم إلى العدل، ومن الذل إلى العز، ومن الفوضى إلى النظام. بل لم تلبث الجن حين سمعته أن قالت:

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ (١).
﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢).

ذلك القرآن تربية وعبادة، وتوجيه وأخلاق، ونظام وقانون. فيه لخير البشرية ما يفوق قدرات البشر، وفيه من وجوه الإعجاز ما ينطق بأنه من خالق القُوى والقُدَر، وقد تحدى البشر بأن يأتوا ولو بآية مثله منذ أربعة عشر قرناً، فعجزوا ولا يزال التحدي قائماً، وسيظل عجز البشرية مستمراً؛ لأنه لا تتساوى قدرة الخالق وقدرة المخلوق أبداً، وسيظل القرآن معجزة خالدة باقية ما بقيت الدنيا، بعد أن تعهد من أنزله سبحانه وتعالى، بحفظه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ (٣).

كما تعهد سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، بأن يحفظه إياه، وينقشه في صدره فقال:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ لَهُ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ﴾
﴿ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانُهُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٤).

وقال سبحانه:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَآءَاءَ اللَّهِ ﴿٥﴾ ﴾.

وقد بلغه رسول الله ﷺ إلى الناس كما أمره ربه، ورتَّله كما أمره ربه:

(١) أول سورة الجن.

(٢) أول سورة البقرة.

(٣) سورة الحجر: الآية ٩.

(٤) سورة القيامة: الآيات ١٦ - ١٩.

(٥) سورة الأعلى: الآيتان ٦ - ٧.

﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (١).

وقام به الليل كما أمره ربه:

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ (٢).

وحكم به بين الناس كما أمره ربه:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ ﴾ (٣).

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٤).

وهكذا كان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض، بعد أن أقام حياته على منهاج القرآن، حتى قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها وقد سئلت عن خلقه: (كان خلقه القرآن).

وهكذا كان أصحابه رضوان الله عليهم: يتعلمون العشر من الآيات لا يتجاوزونها حتى يعملوا بما فيها فيتعلمون العلم والعمل جميعاً، وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً بكاءً عند قراءة القرآن، وكان عمر وقافاً عند كتاب الله، وكان ابن مسعود أحد الحافظين المتقين: قال له النبي ﷺ مرة: «اقرأ عليّ القرآن». قال: فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية:

(١) سورة المزمل: الآية ٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٨.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (١).

قال: «حسبك الآن»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان) متفق عليه.

واستمع عليه الصلاة والسلام لأبي موسى الأشعري وهو يقرأ القرآن،

فقال له: «لقد أوتيت مزاراً من مزامير آل داود» متفق عليه.

وأخبار السلف الصالح في هذا أكثر من أن تستوفيها هذه العجالة التي

نتقيد فيها بموضوع الحديثين:

وقد جاءت زيادة في رواية أخرى للبخاري في الحديث الأول، وفيه:

(المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به) وهي زيادة مفسرة، والعمل ملحوظ في

(المؤمن) حتى بدون هذه الزيادة، إذ العمل من مقتضى الإيمان والاهتمام

الأول لهذا الحديث هو بيان فضل التلاوة، وإن كان المقصد الأساسي للقرآن

ونزوله هو العمل به، وقد كان السلف – كما يقول الحسن البصري – يعتبرونه

رسائل من ربهم، يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار (٢). لكن العمل به مفهوم

من الوصف بالإيمان ومن آيات وأحاديث أخرى.

والحديث هنا ينبه إلى أن تلاوة القرآن في ذاتها فضيلة ينتشر أريجها

ويفوح عطرها. فإن اجتمع معها الإيمان – بكل ما للكلمة من معنى – فهو

طيب الباطن والظاهر، وإن وجدت بدونها فهي عطر ظاهري يتعطر به من

لم يعتن بنظافته الداخلية، ليوهم الناس أنه نظيف وليس كذلك، وليتغلب

العطر الظاهري على نتنه وعفونته.

والدعوة عامة للمسلمين إلى قراءة القرآن، كلُّ على حسب استطاعته

(١) سورة النساء: الآية ٤١.

(٢) إحياء علوم الدين ص ٥٠٦ ط. دار الشعب.

ومقدار ثقافته، وكلُّ ماجور بحسب قراءته، فالذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتعنت فيه (وهو عليه شاق له أجران) متفق عليه.

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وروى مسلم في فضيلة الاجتماع على قراءة القرآن ودراسته قول رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت الذي تقرأ البقرة فيه لا يدخله الشيطان»^(٢)، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(٣).

وللتلاوة آداب: منها الطهارة، والترتيل والتدبر وغيرها من الآداب الظاهرة والباطنة، استوفها الإمام الغزالي في الإحياء^(٤).

(١) هذه الأحاديث من رياض الصالحين - ص ٣١٩ وما بعدها، ط. الشعب.

(٢) الترمذي بشرح المباركفوري ١٨٠/٨ - ١٨١. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال المباركفوري: أخرجه أحمد ومسلم والنسائي.

(٣) مسلم بشرح النووي ٦٨/٦ باب استحباب الصلاة النافلة في بيته، الترمذي وقال:

حسن صحيح. وقال المباركفوري: أخرجه أحمد والدارمي والحاكم ٢٣١/٨.

(٤) ص ٤٩٩ وما بعدها.

وكل ما تقدم من الأخبار يفيد أن تلاوة القرآن للمؤمن خير وبركة، وكلما أدمن تلاوته كلما لَانَ على لسانه، ورُزِق حفظه، وأشرقت عليه معانيه .

وقد دعا النبي ﷺ إلى تعلم القرآن وتعليمه، فقال: «خيركم من تعلم القرآن»^(١)، وقال: «عليكم بهذا القرآن، فإنه مأدبة الله، فمن استطاع منكم أن يأخذ مأدبة الله فليفعل، فإنما العلم بالتعلم»^(٢).

وجعل حفظه نعمة عظيمة تدعو إلى غبطة صاحبها والتنافس في تحصيلها، فقال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»^(٣).

ولا تدوم هذه النعمة على صاحبها إلا بتعهدا ورعايتها وتجديد العهد بها، وذلك يكون بملازمة تلاوته وحفظه، والتزامه بورد يومى يقرؤه، والتهجد به .

أما إذا أهمل التلاوة، انفلت منه القرآن، كما انفلت البعير من صاحبه بعد أن أطلق عقاله، وخص الإبل في الحديث بالذكر، لأنها أشد الحيوان الإنسى نفوراً، وفي تحصيلها وإرجاعها بعد نفارها صعوبة شديدة .

وقد جاء في حديث صحيح ما يؤيد هذا المعنى، وهو قوله ﷺ: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»

(١) صحيح البخاري ٢٣٦/٦ ط. الشعب.

(٢) رواه البراز، ورجاله موثوقون، كما في مجمع الزوائد ٨٨/١، وجمع الفوائد ٢٩/١.

(٣) صحيح البخاري ٢٣٨/٦ ط. الشعب.

متفق عليه . والتَّفَصِّي هو التفلت ومحاولة الانطلاق والفرار .

ومن الناس من يحفظ القرآن أو يتلوه رياء وسمعة، ومنهم من يفعل ذلك وهو يبطن الكيد للقرآن وأهله . وهؤلاء قال فيهم أنس بن مالك رضي الله عنه : «رُبَّ تَالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه»، وهؤلاء إما منافقون وإما مرءون مرتزقة، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم . يرتزقون بتلاوته دون أن يقفوا عند حدوده . وإنما شأن المؤمن الحافظ للقرآن غير ذلك، يبينه ابن مسعود بقوله : (ينبغي لحامل القرآن أن يُعرفَ بِلَيْلِهِ إذ الناس ينامون . وبنهاره إذ الناس يُفَرِّطون، وُبُحْزَنِهِ إذ الناس يفرحون، وِبِيبْكَائِهِ إذ الناس يضحكون، وِبِصَمْتِهِ إذ الناس يخوضون، وِبِخُشُوعِهِ إذ الناس يختالون، وِبِئْبْغِيهِ لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً، ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا مमारياً ولا صياحاً، ولا صخَّاباً ولا حديداً)^(١) .

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن، وأن يوفقنا إلى العمل به، وأن يجعله ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، وحنة لنا لا علينا، وشفيعاً لنا يوم لا ظل إلا ظله، إنه تعالى نعم المجيب .

*
**

(١) إحياء علوم الدين ص ٤٩٨ ط . الشعب .

الظُّلَّةُ وَالشَّفِيعُ

٢٢ - (عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ. اقْرَأُوا الزَّهْرَاوِينَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّائَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ.»
قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة).

قال ابن كثير في تفسيره: ومعنى لا تستطيعها البطلة: أي لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها.

(وعن النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدِمُهُ سُورَةُ الْبَقْرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ». وَضُرِبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيْتَهُنَّ بَعْدَ: قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظَلَتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا جِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تَحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهَا»^(١)).

(١) الحديثان رواهما مسلم في باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، من كتاب صلاة المسافرين، (شرح النووي على مسلم ٦/٩٠).
وقوله: (قال معاوية... معاوية هذا هو ابن سلام الدمشقي أحد رواة هذا الحديث، كان يسكن حمص، توفي في حدود سنة ١٧٠هـ. انظر التقريب لابن حجر.

أبو أمامة الباهلي : اسمه صُدَيّ – بالتصغير – ابن عجلان بن الحارث، مشهور بكنيته، صحابي جليل، توفي سنة ٨٦هـ (١).
أما النواس بن سمعان، فقد سبق التعريف به (٢).

* * *

المفردات :

(زهراوان) : مثني زهراء، والأزهر والزهراء : النّير المشرق الأبيض، وُسْمِيَتَا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما.

(غمامتان أو غيايتان) : قال النووي في شرح مسلم : قال أهل اللغة : الغمامة والغياية كل شيء أظّل الإنسان فوق رأسه، من سحابة وُغْبِرَةٍ وغيرهما، وقال القرطبي في تفسيره (٣/٤) :

(الغمام : السحاب الملتف، وهو الغياية إذا كانت قريباً من الرأس، وهي الظّلة أيضاً).

(فرقان، حزقان) : بكسر أولهما وسكون ثانيهما، بمعنى واحد، أي قطيعان وجماعتان.

(صواف) : جمع صافّة، والطيور الصافات، أي الباسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران، فإنهن إذا بَسَطْنَها صففن قوادمها صفا، والصواف : المصطفة المتضامة.

(شَرَق) : بفتح الراء وإسكانها، أي ضياء ونور. قال النووي : والأشهر في الرواية واللغة الإسكان.

(١) الإصابة، لابن حجر ١٨٧/٢.

(٢) انظر ما سبق في ص ١٣٨، وذكره ابن حجر في الإصابة ٥٧٦/٣.

(شفيعاً): الشفيع من الشَّفْع، ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة بعد أن كان فرداً انضم إليه آخر يُعِينه، فصارا شفيعاً.

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه سورتي البقرة وآل عمران بمظلة وافرة مبسطة فوق من تظله، تقيه وتدفع عنه وتنير له الطريق.

ووجه الشبه: هو الحفظ والحماية ودفع الأذى مع الإضاءة التي تبين معالم الطريق.

من معاني الحديث:

في الحديث السابق قرأنا طرفاً من النصوص التي بينت فضل قراءة القرآن، والتي أوضحت الفرق بين من يقرؤه ومن لا يقرؤه، وبين من يقرؤه بلسانه فيصدقه بعمله، ومن يقرؤه بلسانه وعمله بعيداً عن هديه.

والحديث الذي نتناوله الآن فيه دعوة إلى قراءة القرآن، مع بيان ثمره قراءته في الآخرة، وبخاصة قراءة سورة البقرة وسورة آل عمران، حيث يأتي القرآن يوم القيامة شفيعاً يشفع لقراءه، وتأتي سورتا البقرة وآل عمران تظللان صاحبهما من حرّ هذا اليوم وتحميانه من أهواله، وتنيران طريقه، وتحاججان عنه، أي كأنهما تتجاذبان الحجة مع ما يقتضيه هذا اليوم من تعميم للهول والتضييق والمعاناة، فتدفع السورتان عن قارئهما هذا التعميم وتجعلانه في مأمن من الأهوال.

وقد قيدت رواية النواس بن سمعان أهل القرآن بأنهم (الذين كانوا يعملون به)، فتحمل الرواية المطلقة في حديث أبي أمامة على هذه الرواية المقيدة، ويستفاد من مجموع الروایتين حينئذ أن البشارة في الحديثين ليست للذين يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وليست للذين يتوسدون القرآن،

وليس للذين يتكسبون به، وإنما هي للعاملين به، الذين يعطرون بتلاوته ألسنتهم، ويُحْيُونَ به ليلهم، وَيَضْبِطُونَ به أخلاقهم وسلوكهم، ويحكمون به حياتهم ويحتكمون إليه عند اختلافهم.

وشفاعةُ القرآن لصاحبه حينئذ وحجَّاهُ عنه هي من قبيل شفاعة العمل الصالح لصاحبه، والعمل هو الشيء الوحيد في هذه الحياة الذي يلازم الإنسان ويصحبه في رحلته إلى الدار الآخرة، كما في الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه، مرفوعاً: «يتبع الميت ثلاثٌ: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»^(١). متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة...»^(٢) الحديث.

ففي هذا الحديث أن الصيام له شفاعة كشفاعة القرآن، مما يؤكد أن المقصود هو الانتفاع بثمرة العمل الصالح يوم القيامة.

وقد اختلف العلماء في فهم النصوص التي ورد فيها مجيء بعض المعاني في الآخرة في صورة الماديات المحسوسة، كمجيء الموت في صورة كبش فيذبح، ومجيء سورتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان: فذهب بعضهم إلى أن ذلك على سبيل التشبيه والتمثيل لتوضيح المعنى وتقريره، وقال بعضهم: يخلق الله من ثواب الأعمال أشخاصاً. وقال بعضهم: لا مانع أن

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد من صحيحه (شرح النووي ٩٥/١٨). والبخاري في الرقاق، باب سكرات الموت (فتح الباري ٣٦٢/١١).

(٢) المستدرک، للحاكم ٥٥٤/١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد (١٠/١٢٨، رقم ٦٦٢٦).

ينشئ الله سبحانه من الأعراض أجساداً يجعلها مادة لها^(١).

ومما لا شك فيه أن الآخرة مختلفة عن الدنيا، فينبغي أن لا تقاس عليها، وأن الأسلم إمرار النصوص على ما جاءت عليه كما صنع السلف.

وسواء كانت الأعمال والمعاني تتمثل أشخاصاً يوم القيامة، أو أن ثوابها هو الذي يتمثل، أو أن المراد بيان ثواب الأعمال وعظم أثرها بتمثيلها في صورة المحسوس توضيحاً للمعنى – أقول سواء كان هذا أو غيره فإن القدر المشترك المتفق عليه هو أن في هذا النص تحريضاً على العمل الصالح، وأن هذا العمل الصالح ينتفع به صاحبه في الدنيا والآخرة. كما قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ^ط وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا^ط﴾ (٢).

وقال:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ^ع﴾ (٣).

وقال:

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً^ط وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^ط﴾ (٤).

وفي الحديث إشارة إلى أن القرآن نور، يضيء الطريق ويهدي السالك. فقد جاء فيه وصف السورتين بغمامتين سوداوين، فلما وصف الغمامتين بالسواد لبيان كثافتهما وقوة ظلهما، أراد أن يدفع توهم أن هذا السواد حجب النور عن المستظل، فأوضح أنه مع حجبهما الأذى لم يحجبا

(١) انظر فتح الباري ١١/٤٢١، وتفسير القرطبي ٣/٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) سورة هود: الآية ١١٤.

(٤) سورة النحل: الآية ٩٧.

الضوء فقال: «بينهما شرق»، حتى يسير السالك على بصيرة، وتبين له المعالم فلا ينحرف إلى ما يبعده عن هدفه. وقد قال تعالى في بيان أن القرآن نور:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُمْ مِنْ بُرْهَانٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

وفي الحديث بيان لفضل القرآن بصفة عامة، وفضل سورتي البقرة وآل عمران بصفة خاصة، وهذا التخصيص بالفضل مستفاد من ضرب المثل لهما، ومن قوله: «تقدمة سورة البقرة وآل عمران».

وقد روى أئمة الحديث في فضائل سورة البقرة أحاديث كثيرة وآثاراً عن الصحابة، ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي، وما هو خاص بخواتم هذه السورة، وما هو في فضلها وفضل آل عمران، وما هو في فضل السبع الطوال (٣).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه لا فضل لبعض القرآن على بعض، لأن

(١) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ١٥ - ١٦.

(٣) انظر هذه الأحاديث والآثار في أول تفسير سورة البقرة، عند ابن كثير والشوكاني.

الكل كلام الله ، وروى هذا عن مالك ، واحتجوا بأن الأفضل يشعر بنقص المفضول ، وكلام الله حقيقة واحدة لا نقص فيه .

وقال بعض العلماء بالترتيب استناداً إلى ظواهر الأحاديث ، غير أن فريقاً منهم ذهب إلى أن الفضل راجع إلى عظم الأجر ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها . وذهب فريق منهم إلى أن الفضل يرجع إلى ذات اللفظ ، وأن ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ أَجَدُّ لِلَّهِ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْإِلَهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وما تضمنه آية الكرسي وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانية الله وصفاته ، ليس موجوداً مثلاً في سورة : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وما يماثلها ، فالترتيب إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها لا من حيث الصفة .

وتوسط بعض العلماء فقال : كلام الله في الله أفضل من كلام الله في غيره ، ف ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أفضل من ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (١) .

نبذة عن موضوعات سورتي البقرة وآل عمران :

ولسائل أن يسأل : لماذا تقدمت سورتا البقرة وآل عمران على سائر القرآن ؟ ولماذا خُصتا بهذا المثل الذي سبق له الحديث ؟

أما أنهما متقدمتان على سائر السور من حيث الترتيب بعد فاتحة الكتاب ، فهذا أمر واضح معلوم ، وهذه الأولوية في الترتيب لعلها مشعرة بأهميتهما ومكانتهما ، وإن احتمل أن يكون للترتيب اعتبارات أخرى ، لذا فإن توضيح هذه المكانة يقتضي أن نلقي نظرة سريعة على موضوعات كل من السورتين ومقاصدهما .

(١) البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين الزركشي ، بتصرف ، ٤٣٨/١ - ٤٣٩ ،

وتفسير القرطبي ١٠٩/١ - ١١١ .

أما سورة البقرة فإنها تضم موضوعات عدة، (ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور مزدوج، يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً . . . فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة الإسلامية على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى . . . وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام. صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم . . . وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطئه الرئيسين)^(١).

أما مقاصد السورة فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

- ١ - بيان أصول العقيدة وذكر أدلة التوحيد ومبدأ خلق الإنسان .
- ٢ - بيان أصناف الناس أمام هداية القرآن ما بين مؤمن وكافر ومنافق .
- ٣ - بيان موقف اليهود من دعوة الحق، وذكر طرف من نعم الله عليهم وعلى أسلافهم وذكر انحرافاتهم . واستغرق هذا البيان معظم الجزء الأول من السورة، بسبب مجاورة المسلمين لليهود في المدينة .
- ٤ - بيان التشريعات التي اقتضاها تمييز الجماعة الإسلامية وتكون

(١) ظلال القرآن، للشهيد سيد قطب ٢٨/١ دار الشروق ط. السابعة.

مجتمعهم . وقد ذكرت السورة من ذلك : القصاص في القتل العمد، والصيام والاعتكاف، والوصية، وأحكام الحج والعمرة، وبعض أحكام القتال في سبيل وأسبابه وأهدافه وحكم مصاهرة المشركين، كما ذكرت حكم الحيض عند النساء وأحكام الطلاق والعدة والخلع والإيلاء والرضاع، وحثت على الإنفاق في سبيل الله وبينت بعض أحكام المعاملات وطرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والإشهاد^(١).

وإذا كانت سورة البقرة قد نزلت في بداية تكوّن المجتمع المسلم في المدينة عقب هجرتهم إليها - وإن لم يمنع هذا من إلحاق آيات بها طوال العهد المدني، حتى إن بعض العلماء اعتبر بعض آياتها من آخر ما نزل من القرآن - فإن سورة آل عمران نزلت بعد فترة من مقام المسلمين بالمدينة، تداولتهم فيها الأيام بين لذة النصر ومرارة الهزيمة.

وإذا كانت سورة البقرة قد استغرق فيها الحديث عن بني إسرائيل مساحة واسعة، فإن سورة آل عمران قد عنيت بمناقشة فرقة أخرى من أهل الكتاب انحرفت في تصورها للإله الحق، وهم النصارى.

ولذلك فإن أهم موضوعات هذه السورة الكريمة يدور حول أمرين:

أولهما: بيان وحدانية الله سبحانه وصفاته ورد دعوى النصارى في المسيح عليه السلام. وقد ذكر القرطبي أن صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، ثم أقاموا بها أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى، وهو يرد عليهم بالبراهين الساطعة، ونزل فيهم صدر

(١) انظر: أهداف كل سورة ومقاصدها، للدكتور عبد الله محمود شحاتة،

هذه السورة إلى نيف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة^(١).

ثانيهما: التربية للجماعة المسلمة باستخلاص العبر والدروس في حالتها النصر والهزيمة بعد أن انتصر المسلمون في غزوة بدر، ثم انهزموا في غزوة أحد^(٢).

فائدتان:

الأولى: ذهب بعض العلماء إلى كراهة أن يقال سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة العنكبوت، وكذلك باقي سور القرآن، ورأوا أن هذا لا يليق بحرمة القرآن، وأن الأولى أن يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، والسورة التي يذكر فيها العنكبوت، وهكذا، وممن التزم بهذا في تفسيره أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ). وقد استدل لهذا الرأي بحديث ضعيف.

أما جماهير أهل العلم فقد أجازوا أن يقال سورة كذا، وقد استدلوا بأحاديث صحيحة، منها هذا الحديث موضوع هذا المثل، ومنها ما رواه البخاري في (باب من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا) حيث

(١) القرطبي (٤/٤) وآية المباهلة هي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [الآية ٦١]. والمباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا. وانظر في تفصيل قصة وفد نجران سيرة ابن هشام (الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشام) للسهيلى ٣/٣ - ٨، طبع دار المعرفة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م توزيع دار الباز بمكة.

(٢) انظر تفصيل ذلك في ظلال القرآن، وفي أهداف كل سورة ومقاصدها للدكتور عبد الله شحاتة ص ٢٠ - ٤٤.

روى عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال النبي ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كَفَتَاهُ»، وروى في الباب حديثين آخرين^(١).

الثانية: نبه العلماء إلى أن في فضائل القرآن أحاديث ضعيفة وأحاديث لا أصل لها، منها الحديث الطويل الذي يروى عن كعب، عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة سورة، وقد أخطأ الواحدي المفسر وغيره ممن ذكره في تفاسيرهم.

وفيما صح من الحديث في فضائل القرآن وبعض سورته ما فيه كفاية ومقنع.

وأسأل الله أن يرزقنا تلاوة القرآن وتدبره والعمل به، فإن آية منه خير من حُمْر النَّعَمِ، فعن عقبة بن عامر قال: (خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة فقال: «أَيْكُمْ يَحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟» فقلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرَ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثَ خَيْرَ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ، وَأَرْبَعَ خَيْرَ لَهُ مِنْ أَرْبَعِ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلْفَاتٍ سَمَانَ؟» قلنا: نعم. قال: «ثَلَاثَ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهَا أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرَ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلْفَاتٍ عِظَامِ سَمَانَ»^(٢).

*
**

(١) انظر كتاب فضائل القرآن من صحيح البخاري (فتح الباري ٨٧/٩ - ٨٨).
(٢) رواهما الإمام مسلم في (باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه) من كتاب الصلاة (شرح النووي على مسلم ٨٩/٦). والناقة الكوماء هي عظمة السنام. والخلفات جمع خَلْفَةٍ، وهي الناقة الحامل.

﴿إن الحسنات يُذهبن السيئات﴾

٢٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟»

قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»^(١).

* * *

المفردات:

الدرن: بفتح الدال والراء: الوسخ، وقد يطلق على الجيوب الصغيرة التي تصيب بعض الأجساد - أي البثور التي هي من الأمراض الجلدية، والمعنى الأول هو الأولى.

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه الصلوات الخمس في تطهيرها النفوس من الذنوب، بالماء الجاري في تنظيفه الأبدان من الأوساخ. ووجه الشبه كما هو واضح: التنظيف وإزالة الأقدار والأذى.

(١) متفق عليه، ورواه الترمذي في أبواب الأمثال، وانظر صحيح البخاري ١٤١/١ ط. الشعب، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧٠/٥.

من معاني الحديث :

الماء كثير، والنهر فياض به، وفي الماء خاصية التنظيف وإزالة الأقدار، والإنسان في حاجة إلى الماء، وهو في متناول يده لن يتعب في تحصيله وعليه أن يستعمله إن أراد الحياة أو النظافة. وإذا لم يستعمله في نظافته تراكمت عليه الأقدار والأوساخ، وتعفت رائحته، وأفلقت الهوام والحشرات، وهددت حياته الأمراض. ولا يلومَنَّ إلا نفسه إن هلك نتيجة لتقصيره وإهماله.

وما ينطبق على الماديات ينطبق على المعنويات كذلك، وكما تمرض الأبدان تمرض النفوس، وكما تعالج الأبدان تعالج النفوس، وكما يزيل الماء أقدار الأبدان ويمنحها نظافة ونضارة، تزيل الصلاة أقدار النفوس وتعيد إليها نقاءها وصفاءها.

ولم يهتم الإسلام بشعيرة اهتمامه بالصلاة واحتفائه بها، وهي أول ركن يلي كلمة التوحيد وهي أفضل شعائر الإسلام، وكما جاء في حديث ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله» [متفق عليه].

وهي أظهر معالم الإيمان، وليس لسائر الأوامر والعبادات والفرائض والواجبات من التأكيد ما لها. وذلك لأن من الفرائض ما أوجبه الله تعالى على الأغنياء دون الفقراء، ومنها ما ينوب عنه غيره، ومنها ما ينوب عن كله بعضه، ومن العبادات ما يختص بالفعل أو بالذكر. أما الصلاة فقد جمعت أفعالاً وأذكارة من القيام والعود والركوع والسجود والقراءة والتسبيح، والثناء على الله سبحانه، والصلاة على رسول الله ﷺ والاستغفار للمؤمنين. كما أنها واجبة في اليوم والليلة خمس مرات على كل بالغ عاقل قادر عليها، لا يؤديها عنه غيره.

ولا يسقطها عنه فقره ولا يتولاها وليه^(١).

والصلاة صلة بين العبد وربّه، بها يظهر استسلامه وخضوعه لله، وبها تثبت محافظته على العهد وتجديده البيعة، وفيها يناجي ربه ويدعوه ويسأله من فضله، ومن شأن من يداوم عليها في أوقاتها، ويحافظ على أركانها وواجباتها - أن يكون على غيرها من العبادات أحرص، وأن يكون للأوامر والنواهي أطوع، وعن الكبائر أبعد:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٢).

ومكافأة لمن هذا شأنه تفضل الله عليه بأن تجاوز عن هفواته، ووعده بتكفير ما يقترفه من الصغائر، التي قلماً يخلو إنسان من التلوث بها، فيسقطها عنه كما يسقط ورق الشجر إذا انسل من أغصانه، وانحسر عن أفنانه، ويزيلها عنه كما يزيل الماء الدرّن.

جاء في الحديث (أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنْ أَحْسَنْتَ يُدْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ﴾.

فقال الرجل: أليّ هذا؟ قال: لجميع أمّتي كلهم^(٣) [متفق عليه].

والصلاة المكفرة للذنوب إنما تكون إذا أقبل المصلي فيها على ربه، وأفرغ قلبه من هموم الدنيا وشواغل الحياة، ليمتلىء بهيبة من هو واقف بين يديه، حتى لو نازعه الشيطان وذكره بما كان غافلاً عنه، جاهده وحصر ذهنه

(١) انظر المجازات النبوية، للشريف الرضي ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٣) رياض الصالحين ص ٣٣٠، الآية من سورة هود ١١٤.

وقلبه في مناجاة ربه وتدبر حاله معه .

أما إذا كانت صلاة العبد تتم على وجه العادة، فيؤديها حركات خالية من الشعور والإحساس، لغفلة قلبه وانشغاله بغير الله - خرج المصلي من صلاته كما دخل فيها، ولم تخفف عنه الصلاة أثقاله وذنوبه وخطاياها، لأنه لم يقبل على الله فلم يقبل الله عليه .

فالصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطاً وراحة وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قررة عينيه، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها، كما قال ﷺ: «يا بلال أرحنا بالصلاة» ولم يقل: أرحنا منها؛ وقال: «جعلت قررة عيني في الصلاة»^(١).

**

(١) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية ص ١٩ - ٢٠ .

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾

٢٤ — عن أبي عبد الله الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يتم ركوعه وينقر في سجوده وهو يصلي، فقال: «لومات على حاله هذه مات على غير ملة محمد ﷺ» ثم قال رسول الله ﷺ:

«مثل الذي لا يتم ركوعه وينقر في سجوده مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين، لا تغنيان عنه شيئاً».

قال أبو صالح: قلت لأبي عبد الله: من حدث بهذا عن رسول الله ﷺ؟ قال أمراء الأجناد: عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، سمعوه من رسول الله ﷺ.

رواه الطبراني في الكبير، وأبو يعلى وإسناده حسن^(١).

وفي الجزء الثاني من كتاب البيان والتعريف أن هذا الحديث أخرجه البخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن خزيمة، وابن منده، والطبراني في الكبير، وابن عساكر، عن أبي عبد الله الأشعري، عن خالد بن الوليد.

٢٥ — وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «نهاني رسول الله ﷺ أن أقرأ وأنا راكع»، وقال: «يا علي مثل الذي لا يقيم صلبه في صلاته كمثل حبلٍ فلما دنا نفاسها سقطت، فلا هي ذات حمل

(١) مجمع الزوائد ١٢١/٢، وأمراء الأجناد، أي أمراء مدن الشام الخمس: فلسطين، والأردن، وحمص، وقنسرين، ودمشق؛ وفي البخاري (٢٠٠/١) أن حذيفة رأى رجلاً لا يتم الركوع والسجود فقال: ما صليت ولو متَّ متَّ على غير الفطرة التي فطر الله محمداً.

ولا هي ذات ولد»^(١).

* * *

بيان التمثيل :

في الحديث الأول تشبيه المصلي الذي يصلي صلاة ناقصة، بالجائع الذي يأكل ما لا يدفع جوعه أو يقيم صلبه. ووجه الشبه: عدم الوفاء بالحاجة الضرورية في كل.

وفي الحديث الثاني تشبيه المصلي الذي لا يستوفي أركان صلاته، بالمرأة التي حملت وتجشمت مشاق الحمل ثم أسقطت قبيل موعد ولادتها، فنزل جنينها ميتاً.

ووجه الشبه: خلو العمل من ثمرته وفائدته بعد تحمل العناء في سبيله.

من معاني الحديث :

قال تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ .

(١) مجمع الزوائد ١٢٢/٢. وفيه: رواه أبو يعلى، قلت: - أي الهيثمي - وفي الصحيح منه النهي عن القراءة في الركوع، وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.

وقد ذكره ابن القيم في أعلام الموقعين ٢٨٧/٢ بأسفل حادي الأرواح، وذكر سنده (موسى بن عبيدة، عن ماعز بن سويد العرجي عن علي بن أبي طالب مرفوعاً، مع اختلاف قليل في اللفظ، لكنه ألحق به في السياق نفسه مثلاً آخر هو: (ومثل المصلي كمثل التاجر، لا يخلص له الريح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك المصلي لا يقبل الله له نافلة حتى يؤدي الفريضة)، وهذا المثل عزاه الغزالي في الأحياء (ص ٢٦٣ في فضيلة المكتوبة) إلى بعض العلماء.

فسبب النهي هو أن السكران لا يعي ما يقوله في صلاته، وكم من مصلٍّ لم يشرب خمراً، وهو لا يعلم ما يقوله في صلاته، لانشغال قلبه بهموم الدنيا وتمكنها منه.

ومن الناس من يضم إلى هذه المنقصة منقصة أخرى، هي سرعة أداء الصلاة وعدم الاطمئنان في أركانها فيؤديها نقرأ كنقر الديكة في حركات سريعة متتابعة، حتى ينتهي منها في أسرع وقت، ليتفرغ لدنيائه، مع أنه في صلاته كان مشغولاً بدنيائه لم يتركها لحظة.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أنس بن مالك: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(١).

إذا أدركنا أن نحقق المعنى الذي شرعت الصلاة لأجله، وهو إظهار العبودية – فينبغي أن نعطيها حقها من الاطمئنان والخشوع، إذ ليس المقصود من العبادات أداء طقوس لا روح فيها، بل الروح هي الجوهر، والقلب هو الأساس، والله سبحانه وتعالى تعبدنا بهذه الصلاة لئتم فيها الازدواج بين عمل البدن وعمل الروح في توجُّههما إلى الله. والصلاة لا تتم بالاختصار على أحدهما:

فعمل القلب بتفكره وتوجهه إلى الله، عبادة وذكر. لكن الصلاة لا تتأدى به وحده، والاختصار على عمل الجوارح في حركات الصلاة دون حضور القلب لا تتم به الصلاة وإن كان مؤدياً لصورتها.

وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى أن الاطمئنان في الصلاة ركن من أركانها أو شرط في صحتها، ودليلهم ما جاء في حديث المسيء صلاته، وهو أن

(١) رواه مسلم في باب استحباب التكبير بالعصر، شرح النووي ١٢٣/٥.

النبي ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلّي، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد النبي عليه السلام، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل، فصلّي ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل، ثلاثاً. فقال: والذي بعثك بالحق فما أحسن غيره، فعلمني قال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن - ثم اركع حتى تطمئن راکعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»^(١).

وفي الحديث: (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها)^(٢).

وإذا كان فقد الاطمئنان والخشوع في الصلاة يسلبها القبول المرجوة لها، دَفَعْنَا هَذَا إِلَى أَنْ نَنْشُدَ الْقَبُولَ وَالرِّضَا مِنْ اللَّهِ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ خَاشِعِينَ مُنَاجِينَ مُتَضَرِّعِينَ، مَدِيمِينَ لِلصَّلَاةِ، مُحَافِظِينَ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَأَرْكَانِهَا وَسُنَنِهَا وَأَدَابِهَا. وقد وصف الله المؤمنين فقال:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ثم قال:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

(١) صحيح البخاري ١/٢٠٠ - ٢٠١ ط. الشعب، وانظر المغني، لابن قدامة ١/٥٠٠، ٥٢٢ - ط. المنار.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن أبي قتادة، وقال الترمذي: إسناده صحيح، وأخرجه الطيالسي وأحمد وأبو يعلى عن أبي سعيد الخدري. وقال الهيثمي في رواية أبي سعيد. فيه علي بن زيد، مختلف في الاحتجاج به، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال الذهبي إسناده صالح (البيان والتعريف ١/٩٨)، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣/١٨٢. بترتيب كمال الحوت.

كما وصفهم في سورة المعارج بأنهم على صلاتهم دائمون، وأنهم على صلاتهم يحافظون [الآيتان: ٣٣ - ٣٤].

ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن نجد كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام في أيامنا هذه لا يصلون، بل إن كثيراً منهم لا يعرف كيف يصلي.

وهؤلاء بين جاحد لها، مستخفّ بها، مستهزئ لمن يؤديها مستكبر عن السجود لله، وهؤلاء كفار لا شك في ذلك. وبين مهمل لها، ناسب نفسه إلى التقصير في أدائها، مُسوّف في إصلاح نفسه. وهؤلاء متلبّسون بجريمة كبيرة طوال فترة إهمالهم، فإن ترك الصلاة بلا عذر جريمة وكبيرة من الكبائر.

إن هاتين الطائفتين ثمرة جهود المستعمرين والمستشرقين وحركات التبشير والمبادئ الهدامة، التي أغارت على العالم الإسلامي، وسلبته مع أرضه وثرواته - بل قبل أرضه وثرواته - سلبته إيمانه بربه، واعتزازه بدينه وتمسكه بشعائره وأفسدت عليه قيمه ومقدساته، وأسفر هذا عن تفككه وهوانه وضياع أمجاده والتجكم في مقدراته. ولن يسترد العالم الإسلامي ما سلب منه ويسترد معها مكانته اللائقة به إلا بالعودة إلى دينه، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، والمحافظة على الصلوات من شعائر الإسلام وأمارات العودة إلى الله. وعلامة خضراء على الطريق الصحيح.

**

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾

٢٦ — عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من تُديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلاَّ سَبَغَتْ أو وَفَرَتْ على جلده حتى تخفي بَنَانَهُ وتَعْفُو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلاَّ لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع»^(١). وفي رواية «جبتان» بدل من «جبتان».

* * *

المفردات:

جبتان: مثنى جبة، وهو ثوب مخصوص.

جنتان: مثنى جُنَّة، وهي في الأصل الحصن، سميت بها الدرع لأنها تحصن صاحبها وتستره عند الحرب، ورواية (الجنة) هي الراجحة، لقوله بعد: «من حديد»، وقوله: «لزقت كل حلقة موضعها»، وهذه الصفات خاصة

(١) متفق عليه. وقد رواه البخاري في كتاب الزكاة بلفظه هنا، ورواه كذلك في كتاب الجهاد والسير باب ما قيل في درع النبي والقميص في الحرب، وفي كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، وفي كتاب اللباس باب جيب القميص عند الصدر وغيره، بألفاظ مختلفة وإضافات. وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة في المنفق والبخيل. وانظر زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ٣٧٧/٢ — ٣٨١ ط. الحلبي وشركاه.

بالدروع، ولا مانع من إطلاق (الجبة) على الدرع، لأن كلاً منهما يلبس ويستتر لابساً ويحميه.

ثديهما: بضم الثاء وكسر الدال المهملة وتشديد الياء، جمع (ثدي) بفتح وسكون. وروى (ثديهما) بفتح الثاء والياء الأولى، مثى (ثدي).

ترقيقهما: جمع (تَرْقُوة)، وهما العظمان المشرفان في أعلى الصدر من رأس المنكبين إلى طرف ثُغرة النحر.

سبغت: امتدت وغطت، (وفرت) من الوفور، أي كملت واتسعت و (أو) شك من الراوي.

بنانه: أي أصابعه، أو أطرافها التي هي الأنامل، الواحدة، (بنانه) وفي رواية: (حتى تُجَنَّ بنانه) أي تستر وتختفي.

تعفو: أثره (عفا) جاء متعدياً ولزماً، تقول: عفت الدار إذا درست وانمحت، وعفاها الريح: إذا طمسها، وهي في الحديث متعدية، أي تغطي أثر المشي لطولها ووصولها إلى الأرض.

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه المنفق والبخيل، برجلين أراد كل منهما أن يلبس درعاً يحميه، فأدخل كل منهما درعه من جهة رأسه وعالجه لينزلق على جسمه: فأما أحدهما فلبسه بسهولة وغطى الدرع جميع بدنه، وأما الآخر فبعد أن أدخله من رأسه وأدخل يده فيه لينزله على جسمه - ضاق عليه الدرع وضمر وتقلص وحبسه في هذا الوضع مغلوله يده إلى عنقه.

ووجه الشبه في الأول: السهولة والاتساع والحماية، وفي الثاني الصعوبة والضيق وعدم الوفاء بالغرض.

من معاني الحديث :

الإنسان يسعى إلى حماية نفسه وماله : وحماية النفس من الناس لا تكون بإثارة غيظهم وحسدكم وحقدكم، بل تكون بخدمتهم ومعاونتهم ومشاركتهم حتى تُجْتَلَبَ محبتهم.

وحماية المال لا تكون بكنزه وحبسه عن قضاء المصالح، بل تكون ببذله وإنفاقه واستثماره.

وحب المال والرغبة في امتلاكه أمر مغرور في طباع الناس، وهو لهذا أحد أنواع البلاء الذي يتعرض له الإنسان :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (١).

فإن جمعه من وجوهه المشروعة، وأعطى منه حقه، فقد نجح في الامتحان واستفاد خير الدنيا والآخرة. وإن جمعه بغير حقه، رسب في الامتحان وتعرض للعناء والضيق في الدنيا وللعقاب في الآخرة. والحديث هنا يصور الجانب النفسي والمادي لكل من المنفق والبخيل؛ فإن المتصدق ينشرح صدره للصدقة، ويهش لها ويفرح بها، أما البخيل فإنه يضيق بها وينقبض صدره لها، ويمسك يده عنها، فكأنه مقيد بغل يجمع يده إلى رقبته.

ومن الجانب المادي يتسع مال المتصدق ويربو وبارك له فيه، أما البخيل فيمحق ماله أو يُصاب بالكوارث فيه، أو يكون سبباً لعنائه وشقائه.

يقول تعالى :

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٢).

(١) سورة التباين : الآية ١٥.

(٢) سورة سبأ : الآية ٣٩.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(١).

من هو البخيل ومن هو الجواد؟ :

ذكر الغزالي تعريفات للبخيل والسخي، ووجد أنها غير مانعة ولا جامعة ثم قال:

المال خلق لحكمة ومقصود، وهو صلاحه لحاجات الخلق. ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل.

فالإمساك حيث يجب البذل بخل والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط وهو المحمود، وهو السخاء، قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٢).

وقال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣).

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض.

(١) متفق عليه، انظر زاد المسلم ٢/٢٤٥ - ٢٤٧، والبخاري بحاشية السندي ١٨١/١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

والمال الذي يجب بذله قسمان :

١ - واجب بالشرع .

٢ - وواجب بالمروءة والعادة .

والسخي الجواد هو الذي لا يمنع أحدهما، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة، أو يمنع أهله وعياله النفقة، أو يعطي الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه. فهذا كله بخل، والذي يعطي الواجب لكنه يشق عليه بخيل بالطبع، وإنما يتسخر بالتكلف.

وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، وهو يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص: فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح مع الجار ما لا يستقبح مع البعيد، ويستقبح في الضيافة ما لا يستقبح في المعاملة.

فإذا اتسعت نفس صاحب المال لبذله حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير، ودرجات ذلك لا تحصر، وبعض الناس أجود من بعض. فاصطناع المعروف وراء ما توجه العادة والعرف والمروءة هو الجود، لكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء، فإن من طمع في الشكر والثناء فهو يباع وليس بجواد.

والجود في الحقيقة هو بذل الشيء من غير عوض، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى، وأما الأدمي فإطلاق الجود عليه مجاز، إذ لا بد من عوض،

لكن إن كان غرضه ثواب الآخرة فهو جواد، وإلا فلا^(١).

إن المال مال الله، وهو يوتي من فضله من يشاء، فعلى المسلم أن يتقي الله فيما استخلفه الله عليه، فيعطي منه حقه، وينفع به عباد الله، ولا يبخل به في واجب ولا مروءة، فإنه لن يأخذ شيئاً منه إلى قبره، ولن يصحبه إلا عمله، ولن يعود عليه البخل إلا بالشر في الدنيا والآخرة:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُخَالِفُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَمَا لَوْ تَفَقَّهْتُمْ لَأَخَذْتُم مِّنْ ذَلِكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنفُسُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا بِالَّذِينَ لَهَا غُحُوقٌ سَائِلٌ مِّنْ أَعْيُنِنَا ۗ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ ﴾^(٢).

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾^(٣).

وفي هذا الوعيد الشديد إنذار وتحذير ونفع لمن يرجو الله والدار الآخرة، فلا يبخل بماله في مواضع البذل، وليعلم أن ما ينفقه هو ماله على الحقيقة، إذ هو الذي يُدخر له، أما ما يحبسه فهو مال وارثه إذ لن يصحب شيئاً منه إلى قبره:

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(٤).

(١) إحياء علوم الدين ص ١٨٠٠ - ١٨٠٣ ط. الشعب.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٠.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ٣٤ - ٣٥.

(٤) سورة النحل: الآية ٩٦.

أما البخل فهو يجمع لصاحبه سوء الذكر وسقوط الهممة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقد جمع الجاحظ أخباراً للبخلاء في كتابه المسمى بهم، وذكر الغزالي (١) أن أحد البخلاء كان لا يأكل اللحم حتى يشتد شوقه إليه، فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى رأساً فأكله، فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرأس صيفاً وشتاء، فلم تختار ذلك؟ فأجاب: لأنني أعرف سعره فأمن من خيانة الغلام فلا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه: إن مس عيناً أو أذنأ أو خدأً وقفت على ذلك، وأكل منه ألواناً: العين، والأذن، واللسان والدماغ، وأكفَى مؤونة طبخه، فقد اجتمعت لي فيه مرَاق.

وأقبل أعرابي يريد رجلاً فصادفه وبين يديه تين، فغطى التين بكسائه، فجلس الأعرابي، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، فقرأ:

﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ .

فقال: وأين «التين»؟ قال: هو تحت كسائك.

وكان للأعمش جار يلح عليه أن يدخل منزله كلما رآه ويقول: لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً، فيأبى الأعمش، فعرض هذا عليه ذات يوم وتصادف أن كان الأعمش جائعاً، فوافق، ودخل منزله، وإذا به يقدم إليه كسرة وملحاً!! فجاء سائل فرده رب المنزل ثلاثاً، ولما ألح عليه قال له: اذهب وإلا والله خرجت إليك بالعصا، فنادى الأعمش السائل وقال له: اذهب ويحك، فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه، هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فلا والله ما زادني عليهما.

(١) في إحياء علوم الدين ص ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ط. الشعب.

إن البخل في حقيقته من أمراض النفس المهلكة، وفيه منع للحقوق وعزلة عن المجتمع، وهو أنانية مفرطة، وعبادة للمال: يستفرغ جهده في جمعه ويفني عمره في حفظه، وهو تعطيل للمال ومنع له من الاستثمار والنماء وقضاء المصالح، ولا يزال البخل بالبخل حتى يبخل على نفسه فيحرم نفسه القوت والحاجات الضرورية، ثم يموت ولم يستفد منه إلا الوزر، ولهذا يقول ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»^(١) وقال: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»^(٢).

والبخل يحب المال إما لذاته، أو لأنه يتوصل به إلى شهواته، والمال في ذاته لا يحب، فإنه سبب لتحصيل المصالح ووسيلة لقضاء الحاجات، فالذي يحبه لذاته مريض يحرم نفسه الطيبات ويحرم غيره حباً في المال ومحافضة عليه، مع أن هذا المال سيصير إلى ورثته وسيفارقه حتماً، أما تحصيل الشهوات والمصالح فالنافع منها هو المشروع إذا أخذه باعتدال، والإسراف فيها يورث السقم والعلل، هذا وتوقع الموت في كل لحظة هو خير علاج لهذا المرض، مع رجاء ثواب الله وابتغاء الصالحات الباقيات في بذله. ونختم هذا الموضوع بصورتين من القرآن قريبتين الشبه بما صوره الحديث الذي نتناوله وهو قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ ﴾^(٣).

وصدق الله ورسوله.

**

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود من حديث جابر بسند جيد.

(٣) سورة الليل: الآيات ٥ - ١٠.

المبادرة إلى الصدقات

٢٧ - قال الترمذي : (حدثنا بندار، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي حبيبة الطائي، قال : أوصى إليّ أخي بطائفة من ماله، فلقيت أبا الدرداء فقلت : إن أخي أوصى إليّ بطائفة من ماله، فأين ترى لي وضعه : في الفقراء، أو المساكين، أو المجاهدين في سبيل الله؟ قال : أمّا أنا فلو كنت لم أعدل بالمجاهدين، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«مثل الذي يُعتق عند الموت كمثل الذي يُهدي إذا شبع».

هذا حديث حسن صحيح^(١).

ورواه النسائي من طريق شعبة، قال : سمعت أبا إسحاق، سمع أبا حبيبة الطائي قال : أوصى رجل بدنانير في سبيل الله، فسُئل أبو الدرداء، فحدث عن النبي ﷺ قال : «مثل الذي يعتق أو يتصدق عند موته مثل الذي يُهدي بعدما يشبع»^(٢).

هذا الحديث يدور على رواية أبي إسحاق، عن أبي حبيبة.

(١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٣١٦/٦، كتاب الوصايا - باب ما جاء في الرجل يتصدق أو يعتق عند الموت.

(٢) سنن النسائي، كتاب الوصايا - باب الكراهية في تأخير الوصية ٢٣٨/٦. والحديث رواه كذلك أبو داود (عون المعبود ٦٨/٨ حديث رقم ٢٨٤٩) باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية من كتاب الوصايا، ورواه الدارمي في كتاب الوصايا، باب من أحب الوصية ومن كرهه ٢٩٧/٢ حديث رقم ٣٢٢٩، بنحو رواية النسائي.

وأبو إسحاق، هو عمرو بن عبد الله السبيعي، ثقة وقد صرح بالسماع في رواية النسائي، وأبو حبيبة الطائي: قال عنه ابن حجر في تهذيب التهذيب: روى عن أبي الدرداء حديث «مثل الذي يهدى ويعتق عند الموت»، وعنه أبو إسحاق السبيعي، ولا يعرف له غيره. وذكره ابن حبان في الثقات وقال في التقريب: مقبول من الثالثة.

وأبو الدرداء، صحابي أنصاري خزرجي اسمه عويمر أو عامر أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأبلى فيها، اختلف في تاريخ وفاته، والأصح عند أهل الحديث أنه مات في خلافة عثمان رضي الله عنه^(١).

* * *

المفردات:

قوله: «بطائفة من ماله». الطائفة من الشيء: القطعة منه.

قوله: «لم أعدِل بالمجاهدين»، أي لم ألحق غيرهم بهم في فضل النفقة، ولم أجعل النفقة على الفقراء أو المساكين مساوية للنفقة على المجاهدين في سبيل الله، فإن النفقة على المجاهدين أفضل، يقال: عدلت فلاناً بفلان: إذا سويت بينهما، من باب ضرب.

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه المتصدق في آخر حياته، أو الموصى بالصدقة عند دُؤنٍ أجله والذي يستأثر بطعامه فيأكل منه حتى يشبع، فإن بقيت من طعامه فضلةً بعد شبعه أهداها.

ووجه الشبه: تقديم حظ النفس وشهوتها المباحة، وانتفاء المشاركة والإيثار في كل منهما.

(١) الإصابة ٤٥/٣ - ٤٦ ترجمة رقم ٦١١٧.

من معاني الحديث :

الوصية: تبرع مضاف إلى ما بعد الموت. وهي من الحقوق المتعلقة بالتركة، المقدمة على حق الورثة، سواء أكان الموصى رجلاً أم امرأة، كما هو منصوص عليه في آيتي المواريث (١١ و ١٢) من سورة النساء.

وقد رغب الشرع في الوصية، وأمر بها أصحاب الأموال، وعبرت عنها الآية (١٨٠) من سورة البقرة بما يفيد أنها فرض، فقال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ .

فقوله: ﴿كتب عليكم﴾ أي فرض، كما قال تعالى بعد آيات الوصية:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ .

والجمهور على أن فرض الوصية قد نسخ بآيات المواريث، وبقي الأمر فيها على النذب لغير الورثة.

ومن العلماء من يرى أن الوصية قد بقي فرضها للأقارب غير الوارثين، أما الوصية للأقارب الوارثين فقد نسخ^(١).

الوصية إذا مطلوبة، إما على جهة الفرض وإما على جهة النذب، فما الذي يومیء إليه هذا الحديث؟ وما الذي قصده أبو الدرداء رضي الله عنه بروايته هذا الحديث عندما سمع أن رجلاً أوصى بجزء من ماله عند موته؟ إن هذا الحديث يشير إلى تفاوت الدرجات في فعل الخيرات، ويُنَبِّه

(١) انظر في أحكام الوصية: المغني لابن قدامة مع الشرح الكبير ٤١٤/٦ وما بعدها. والمجموع ٣٩٧/١٥ وما بعدها، وتفسير القرطبي ٢٥٧/٢ وما بعدها.

إلى المبادرة إلى الطاعات ويومئ إلى الحذر والأخذ بالحيطة .

لا بأس بمن يوصي بالصدقة عند احتضاره، غير أن الحديث يعتبر عليه عدم مبادرته إلى الإنفاق في فسحة الحياة وامتساع العمر، وهو ما فهمه النسائي من الحديث، حيث ترجم له بقوله: (باب الكراهية في تأخير الوصية)، أو يعتبر عليه أنه لم يتصدق إلا بعد أن تحقق أن المال سيزول عنه إلى غيره، فالوصية حينئذ فيها إضرار بالوارث، وهو ما فهمه أبو داود، حيث ترجم للحديث بقوله: (باب ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية).

لا بأس بمن يؤخر الوصية إلى الموت، غير أن الموت قد يأتي فجأة فيذهله عن كل شيء، وقد يأتيه وهو منفرد بعيد عن الناس فلا يتمكن من الوصية، يدل لذلك ما رواه مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها (أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أُمِّي افْتُلِّتْ نَفْسُهَا وَلَمْ تَوْصِ، وَأَظْنَهَا لَو تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» (١).

لذا، فإن من الحيطة أن يكون المسلم مستعداً في كل وقت، وهو ما يرشد إليه الحديث الصحيح: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» (٢).

قال ابن عمر - وهو راوي هذا الحديث - : (ما مررت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي) (٣).

(١) مسلم بشرح النووي ٧/٨٩ - ٩٠ كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه. وقوله: (افتلتت) بالفاء، أي ماتت فجأة، وروى بالقاف، وانظر: شرح السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي (٦/٢٤٩).

(٢) هذا لفظ البخاري في كتاب الوصايا (فتح الباري ٥/٣٥٧).

(٣) رواه مسلم ١١/٧٥ بشرح النووي، والنسائي ٦/٢٣٩.

وتشبيه المتصدق عند الموت بالذي يُهدى بعد ما يشبع، يفيد كراهة ما دلَّ عليه المشبَّه به، وهو الإهداء بعد الشبع، وأنه تصرفٌ مستبَّحٌ مُجافٍ للمروءة حتى جعل أصلاً يشبَّه به غيره.

قال السندي تعليقاً على هذا التشبيه: (أي يُعطي بعدما قضى حاجته، وهو قليل الجدوى ولا يعتاده إلاً دنىء الهمة. وإنما مثلٌ بذلك لأن الثاني أشهر، وإلاً فالعكس أولى، فإن الذي شبع ربما يتوقع حاجته إلى ذلك الشيء، بخلاف الذي يُعتق أو يتصدق عند موته)^(١).

إن الانفراد بالطعام قد يكون دليلاً على الأثرة والشح، وهناك فرق بين مَنْ يدعو غيره إلى مشاركته في طعامه أو يهدي منه إلى جيرانه أو غيرهم، فيكون بذلك مشاركاً في طعامه غير مستأثر به، ومَنْ ينفرد بطعامه فيأكل حتى إذا شبع أعطى فضلة طعامه إلى غيره.

لا شك أن الأول أكرم وأكثر مروءة وأقرب إلى مراعاة الأدب الإسلامي، وبخاصة أن النبي ﷺ قال: «طعام الواحد يكفي الاثنين».

ولقائل أن يقول: إن الذي يهدي ما تبقى من طعامه بعدما شبع هو أفضل ممن يرميه أو يدخره ولا يكون لغيره منه نصيب.

وهذا حق، غير أن الحديث يتعرض لمقامات من الفضل، يتنافس أولو البصيرة في الصعود في درجاتها حتى يصلوا إلى مرتبة الإيثار، تلك المرتبة التي أثنى الله تبارك وتعالى على أصحابها بقوله:

﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢).

(١) حاشية السندي على سنن النسائي ٦/٢٣٨.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

فإن للخير مقامات، ولفضائل الأخلاق درجات، وبالمقابل فإن للشر مراتب ودركات، كما قالوا: بعض الشر أهون من بعض.

إن الإسلام يربي المسلم على مكارم الأخلاق، وعلى أن ينتفع بديناه لآخرته، ويروض العقول على أن تفكر في العواقب، وألا تكون حبيسة اللحظة التي تعيشها، فلا يكتفي المسلم بالنظر إلى مواضع أقدامه، ولا تستغرقه لذة فانية أو منفعة عاجلة، بل يمتد نظره لِيَسْتَوْعِبَ آفاقاً في المكان، وأماداً تمتد في عمق الزمان، فلا تبطره النعمة، ولا يغره المال، لأنه يعلم أنه ابتلاء، وسوف يسأل عنه: من أين اكتسبه وفيما أنفق، إنه يُعد نفسه ليوم الحساب، ويجتهد في إعداد الوثائق والشهود التي تدعّمه في ذلك اليوم، يفعل ذلك حتى وهو في مقتبل حياته وعنفوان شبابه وإقبال الدنيا عليه، لا يطنى إن أغناه الله، ولا يظلم إن ابتلي بولاية أو رئاسة، بل ينفق في وجوه البر ويعدل ولو على الأقربين، ويعين إخوانه بنفسه وماله وهو في غير حاجة إليهم لا يريد منهم جزاء ولا شكوراً.

هذا السلوك من المسلم يدل بوضوح على أنه يتصرف بوعي، وقيم نفسه على منهج، ويعمل لتحقيق هدف يسمو على الماديات ويحلّق في أجواء تتجاوز الحياة الفانية إلى ما وراءها من حياة النعيم الخالد في الآخرة.

وقد نبّه سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذا السلوك عندما سئل: (أي الصدقة أعظم أجراً)؟ فأجاب قائلاً: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(١).

قال العلماء: لما كان الشح غالباً في الصحة، فالسماح فيه بالصدقة

(١) هذا لفظ البخاري في (باب فضل صدقة الشحيح الصحيح) من كتاب الزكاة.

أصدق في النية وأعظم للأجر، بخلاف من يئس من الحياة، ورأى مصير المال لغيره^(١).

وقال بعض السلف عن بعض أهل الترف: يعصون الله في أموالهم مرتين: ييخلون بها وهي في أيديهم، يعني الحياة، ويسرفون فيها إذا خرجت عن أيديهم يعني بعد الموت^(٢).

وصدق الله العظيم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا ءَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١﴾ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنٰكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذْ جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾

**

(١) فتح الباري ٣/٢٨٥.

(٢) بذل المجهود في حل أبي داود ١٣/١٢٢ نقلاً عن الحافظ.

(٣) المنافقون ٩ - ١١.

الصوم جُنَّة

٢٨ - روى مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الصيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فَلْيَقُلْ إني صائم إني صائم»^(١).

* * *

مفردات الحديث ورواياته :

الجنة - بضم الجيم وتشديد النون المفتوحة - السُّترة والوقاية، وما يُسْتَرُّ به من سلاح، ومنه المِجَنُّ، وهو الترس.

وفي رواية النسائي من حديث عثمان بن أبي العاص: «الصيام جُنَّة كجُنَّة أحدكم من القتال»^(٢).

يَرْفُثُ - بضم الفاء وكسرهما - من الرَّفَثِ، والمراد به هنا الفاحش من القول، ويطلق على الجماع وعلى مقدماته وعلى ذكره مع النساء أو مع عدم وجودهن.

لا يَجْهَلُ: أي لا يفعل أفعال أهل الجهل كالصياح والسَّفَه، يفسر ذلك ما جاء في رواية صحيحة بلفظ (ولا يصخب). وذكر النووي أن الجهل خلاف الحكمة وخلاف الصواب من القول والفعل.

(١) الموطأ، كتاب الصوم، باب جامع الصيام.

(٢) سنن النسائي ٤/١٦٧، باب فضل الصيام من كتاب الصيام.

وقوله: (فإن امرؤ قاتله) أي تهيأ للعراك معه فليقل إني صائم، وإن شتمه فلا يرد عليه ولا يعامله بمثل عمله، بل يقل إني صائم. والظاهر أنه يقولها بلسانه مخاطباً بها من يكلمه. وذهب بعض العلماء إلى أنه يقولها في نفسه، وجمع بعض العلماء بين الرأيين بأنه إن كان في رمضان قالها بلسانه وإن كان في غيره قالها في نفسه.

وقد روى البخاري هذا الحديث في باب فضل الصيام من طريق القَعْنَبِيِّ عن مالك به، لكنه أدمج معه حديثاً آخر رواه مالك في الموطأ من هذا الطريق مفرداً عقب حديث الصيام جنة، وهو (والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك... الحديث).

قال ابن حجر: (قد أخرج البخاري هذا الحديث بعد أبواب من طريق أبي صالح عن أبي هريرة، وبين في أوله أنه من قول الله)^(١).

وكلام ابن حجر هذا يوهم أن قوله: (الصيام جنة)، إلى قوله: (فليقل إني صائم) من الأحاديث القدسية. والصواب أنه ليس كذلك، لأن نص الرواية التي أشار إليها ابن حجر أخرجها البخاري في (باب هل يقول إني صائم إذا شُتم) بسنده عن أبي صالح الزيات عن أبي هريرة (قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحدٌ أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه).

فالرواية عن الله تبارك وتعالى مقصورة علي قوله: (كل عمل ابن آدم له

(١) فتح الباري ٤/١٠٣.

إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به)، دون باقي الحديث .

ومن الواضح أن قوله: (والذي نفس محمد بيده . .) لا ينسب إلى الله، لأن صيغة هذا القسم مما كثرت روايته عن رسول الله ﷺ، ولقوله في الحديث: (أطيب عند الله) ولو كان قدسياً لقال: (أطيب عندي) وأرجح عدم الالتفات فيه، ولأن قوله: (والذي نفس محمد بيده . .)، رواه مالك في الموطأ عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: (والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، إنما يذر شهوته وطعامه من أجلي فالصيام لي وأنا أجزي به . .).

قال السيوطي^(١) عند قوله: (إنما يذر شهوته وطعامه من أجلي): (لأحمد من طريق إسحاق بن الطباع عن مالك قبله: (يقول الله عز وجل).

أي أن بداية الحديث القدسي من هذا الموضع دون ما قبله .

وأما قوله: (والصيام جنة)، فقد رواه مسلم من طريق أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ حديثاً مفرداً مستقلاً غير مرفوع إلى الله عز وجل .

وروى مسلم كذلك حديث: (إذا كان يوم صوم أحدكم) من طريق سفيان بن عيينة عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رواية قال: (إذا أصبح أحدكم يوماً صائماً فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم).

ومما يؤيد أن المرفوع إلى الله عز وجل هو الجملة الأولى فقط، ما رواه مسلم من طريق الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه،

(١) تنوير الحوالك ٢٨٩/١ .

قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يُضَاعَفُ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»^(١).

بيان التشبيه في الحديث:

يشبه سيدنا رسول الله ﷺ الصيام الذي يُتَقَرَّبُ به إلى الله عز وجل في كَفِّهِ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى وَحِمَايَتِهِ الصَّائِمَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالشَّرُورِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ - بِالسَّاتِرِ الَّذِي يَحْمِي مَنْ تَرَسَّ بِهِ مِنْ سِهَامِ أَعْدَائِهِ وَقَذَائِفِهِمْ .

ووجه الشبه في كل: أنه وسيلة لتأمين المُسْتَهْدَفِ بِحِمَايَتِهِ مِنَ الْأَخْطَارِ الْوَاقِعَةِ وَالْمُتَوَقَّعَةِ .

من معاني الحديث:

بين الهجوم والدفاع تسابق وتنافس، فكلما تعددت أساليب الهجوم وتنوعت أسلحته استُحْدِثَ مِنَ الدِّفَاعِ مَا يَنْسَبُ تِلْكَ الْأَسَالِيبِ وَهَذَا التَّنَوُّعُ، لِيُبْطِلَ أَثْرَهُ أَوْ يُضَعِّفَ تَأْثِيرَهُ .

والمِجَنُّ أَوْ التَّرْسُ يَحْمِي الْإِنْسَانَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالسَّهَامِ الَّتِي يُرْمَى بِهَا، وَلَكِنَّهُ لَا يَحْمِيهِ مِنْ قَذِيفَةِ الْمَدْفَعِ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى سَاتِرٍ يُصَمَّمُ بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ تَنْسَابُ مَعَ قُوَّةِ الْقَذِيفَةِ، وَهَكَذَا .

ثم إن المِجَنُّ أَوْ التَّرْسُ لَا يُؤَدِّي وَظِيفَتَهُ فِي تَأْمِينِ مَنْ يَسْتَتِرُ بِهِ مِنَ السَّهَامِ إِلَّا إِذَا أُعِدَّ بِعَنَاءٍ، فَيَسْتَعْمَلُ فِي صَنْعِهِ مَا فِيهِ شِدَّةٌ وَمَتَانَةٌ مِنَ الْجُلُودِ، وَيَكْسِي بِهَا طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ حَتَّى لَا تَخْتَرِقَهُ السَّهَامُ .

(١) شرح النووي على مسلم ٣٠/٨ - ٣١ باب فضل الصوم.

وقد جاء في الحديث الصحيح في وصف قوم (وجوههم كالمجان المطرقة)^(١).

فإذا اعتنيت هذه العناية بما يحمي البدن حتى لا يصيبه ما يُوجّه إليه من قذائف عدوّه، كانت هذه العناية لازمة كذلك بما يحمي الروح. وإذا كان تأمين الحياة المادية قد اقتضى العناية بما يقيها كان تأمين الحياة الروحية أشدّ حاجة لهذه العناية.

والشيطان عدوّ الإنسان:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(٢).

وهو عدو خطير، لا يدخر وسعاً في إغواء الناس بكل ما يستطيع، عدو خطير يرانا من حيث لا نراه: ﴿إِنَّهُ يُرِيدُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. هذه العداوة السافرة والحرب المعلنة تقتضي من المؤمن - وقد أُعلن

(١) البخاري كتاب الجهاد والسير، باب قتال الترك، ومسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة.

والمجان بفتح الميم جمع مجن بكسرهما. والمطرقة قال النووي في شرحه على مسلم ٣٦/١٨ (بضم الميم وإسكان الطاء وفتح الراء. هذا هو الفصيح المشهور. وحكى فتح الطاء وتشديد الراء والمعروف الأول: قال العلماء: هي التي أُلْبِسَتْ الْعَقَبَ وَأُطْرِقَتْ به طاقة فوق طاقة).

ومن طرح الثريب ٢٢٣/٧ أن العقب - بفتح العين والقاف - الْعَصَبُ الَّذِي تَعْمَلُ مِنْهُ الْأوتار.

وقال ابن حجر في الفتح ١٠٤/٦ (والمطرقة التي أُلْبِسَتْ الْأُطْرِقَةَ مِنَ الْجُلُودِ وَهِيَ الْأَغْشِيَّةُ تَقُولُ: طَارَقَتْ بَيْنَ النَّعْلَيْنِ، أَي جَعَلَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى).

(٢) سورة فاطر: الآية ٦.

بها ونُبِّه إليها - أن لا يغفل عنها، وأن يشحذ لها همته، ويعد لعدوه ما استطاع من قوة، ويرد كيده بما هُيِّئ له من دروع وحصون، عليه أن يتفقدتها وأن يعتني بها. وإذا أخذ المؤمن نفسه بهذا عجز الشيطان عن استثارته أو تحويله عن وجهته، وهو معنى الاستثناء في قوله تعالى:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١).

وقد نصَّ الحديث على أن الصوم أحد وسائل الدفاع، فعلى المسلم أن يعتني بهذه الوسيلة حتى تصمد أمام قذائف الشيطان، وذلك بصيانتها عما يفسدها أو يضعفها، إذ ليس مجرد الإمساك عن الطعام والشراب مُحَقَّقاً للهدف منه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل...».

إنه بصومه في عبادة، ولا يليق بالمتلبس بالعبادة أن يصدر منه ما ينافيها، من كذب أو غيبة أو نميمة أو فاحش من القول أو غضب يحمله على شتم أو عراق أو مرأء.

إن هذا السلوك لا يرضاه الإسلام للمسلم صائماً كان أو غير صائم، لكن تجنبه أكد للصائم، لأنه بصدد عبادة يتحصن بها، وهذا يستلزم الإعداد الجيد للحصن لا خرقه أو هدمه. وقد جاء في الحديث الصحيح: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (٢).

وروى النسائي وغيره من حديث أبي عبيدة بن الجراح «الصيام جنة

(١) سورة ص: الآيتان ٨٢، ٨٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم فتح الباري ١١٦/٤.

ما لم يخرقها»^(١)، وفسر الدارمي بعض ما يخرق هذه الجنة، حيث قال بعد روايته: (ما لم يخرقها)، قال أبو محمد: يعني بالغيبة^(٢).

كل العبادات يشترط لها الإخلاص، لكن من ثمرات الصوم أنه ترويض وتدريب على الصبر، بالإمساك عما يُشْتَهَى من المباحات، وليس من المستساع أن يمسك المرء عن المباحات ثم يخوض في المحرمات بفعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به، بل الأشبه بالمؤمن الكيس القطن أن يكون في حال صيامه أحرص على الطاعة وأبعد عن المخالفة، وأن يكون صومه حاملاً له على الحلم والدفء بالتي هي أحسن، حتى لو استثير أو استغضب فعليه أن يذكر نفسه بأنه صائم، ولا بأس بأن يذكر غيره أيضاً بذلك عند الحاجة.

إن شهراً كاملاً أمر الله بصيامه، مع ما ندب إليه رسول الله ﷺ من صيام أيام غيره - كفيل أن يرتقي بالروح ويمدها بطاقة نورانية، وأن يهذب النفس ويروضها حتى لا تتبع هواها، بل يسهل عليها أن تقف عند حدود الله، وتتفطن لما يحيط بها ويحاك لها من كيد لصرفها عن ربها.

وبهذا يتضح أن الاعتذار بالصوم لتبرير ما يصدر من بعض الصائمين من سرعة الغضب وسوء المعاملة - هو اعتذارٌ من جهل حقيقة الصوم ووظيفته وأهدافه. هو اعتذارٌ من يغفل عن معنى العبادة في الصوم، فالعبادة تنبئ عن الخشوع والإذعان والرقى الروحي والسلوكي، كما تنبئ عن المراقبة لله والإخلاص له والعمل بما يرضيه والبعد عما يغضبه.

(١) سنن النسائي ١٦٧/٤ باب فضل الصيام، وانظر: فتح الباري ١٠٤/٤.

(٢) سنن الدارمي ٣٤٧/١ حديث رقم ١٧٣٩ باب الصائم يغتاب فيخرق صومه.

وقد بين الله سبحانه - وهو خالقنا وأعلم بما ينفعنا - أن الصوم خير لنا، فقال:

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فثمرة هذه العبادة تعود إلى الإنسان وهو المنتفع بها كغيرها من العبادات: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَدِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾.

وقد ذيلت آيات الصيام بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. ذلك لأن الصوم جنة يتقي بها الصائم غضب الله ونار جهنم بامثال الأوامر واجتناب النواهي. كما أنه مما يُعَرَّفُ بنعم الله على الإنسان التي تقتضي شكر المنعم باللسان وبالأفعال، وهو مما يحقق الامثال والعبودية والاستقامة على منهج الله، فيؤدي به ذلك إلى الرشاد والصلاح وإصابة الحق والاهتداء إلى ما يصلح حياته وآخرته.

وقد قال ﷺ فيما رواه النسائي: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له»^(١).

*

**

(١) سنن النسائي ٤/١٦٥ باب فضل الصيام.

الصَّوْمُ وَجَاء

٢٩ - عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت مع علقمة والأسود على عبد الله، فقال عبد الله: كنا مع النبي ﷺ شباباً لا نجد شيئاً، فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

وأخرج الإمام مسلم ما يوضح المناسبة التي من أجلها روى ابن مسعود هذا الحديث، فروى (عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت أنا وعمي علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود - قال: وأنا شاب يومئذٍ - فذكر حديثاً رُئيتُ أنه حَدَّثَ به من أجلي) فذكر الحديث السابق، ثم قال: (فلم ألبث حتى تزوجت)^(٢).

وقد روى ابن مسعود هذا الحديث في مناسبة أخرى يوضحها ما رواه الشيخان عن علقمة قال: (كنت مع عبد الله، فَلَقِيَهُ عثمانُ بمنى، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن لي إليك حاجة، فَخَلِيَا، فقال عثمان: هل لك يا

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم، فتح الباري ١١٢/٩، ورواه مسلم في باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه من كتاب النكاح، مسلم بشرح النووي ١٧٥/٩. والأسود بن يزيد أخو عبد الرحمن بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعي هو عمهما، وعبد الله هو ابن مسعود.

(٢) صحيح مسلم في الموضع السابق.

أبا عبد الرحمن في أن نَزَّوَجَكَ بَكَرًا تُذَكِّرُكَ مَا كُنْتَ تَعْهَدُ؟ فلما رأى عبد الله أن ليس له حاجة إلى هذا أشار إليّ، فقال: يا عَلْقَمَةَ، فانتهيتُ إليه وهو يقول: أَمَا لئن قَلتَ ذلكَ لقد قال لنا النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة...» الحديث.

* * *

مفردات الحديث:

(يا معشر الشباب) المعشر جماعة يشملهم وصف ما، فالشباب معشر والنساء معشر والتجار معشر، وهكذا. والشباب جمع شاب، ويُجمع أيضاً على شَبَّة وشَبَّان. وأصله الحركة والنشاط. والشاب اسم لمن بلغ حتى الثلاثين ثم هو كهل إلى الأربعين ثم هو شيخ.

(الباءة) بالهمز وبالهاء، وتأتي بدون الهاء، وبهاءين (باهة) - قال الخطابي: المراد بالباءة النكاح وأصله الموضع الذي يتوآه ويأوي إليه، ونقل عن المازري أن الباءة أطلقت على عقد النكاح لأن من شأن من يتزوج امرأة أن يُبوأها منزلاً.

وقال النووي: (اختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى واحد: أحدهما أن المراد معناها اللغوي وهو الجماع، فتقديره: من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤنّه - وهو مؤن النكاح - فليتزوج، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنّه فعليه بالصوم ليدفع شهوته.

والقول الثاني: أن المراد هنا بالباءة مؤن النكاح سُمِّيت باسم ما يلازمها، وتقديره: من استطاع منكم مؤن النكاح فليتزوج ومن لم يستطع فليصم لدفع شهوته.

والذي حمل القائلين بهذا على ما قالوه قوله: (ومن لم يستطيع فعليه بالصوم)، قالوا: والعاجز عن الجماع لا يحتاج إلى الصوم لدفع الشهوة،

فوجب تأويل الباءة على المؤن . وأجاب الأولون بما قدمناه من القول الأول وهو أن تقديره: من لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه وهو محتاج إلى الجماع فعليه بالصوم^(١).

وما ذكره النووي من دليل القول الثاني مع مخاطبة الشباب الذين يمرون بمرحلة في العمر تقوى فيها الغريزة مع قلة ذات اليد عندهم كما أوضحه ابن مسعود - يجعلنا نميل إلى هذا الرأي الثاني في تأويل الباءة، وبخاصة أن النسائي رواه في بعض طرقه بلفظ: «من كان ذا طُولٍ فَلْيُنِكَحْ»^(٢). ومن معاني الطول الغنى والسعة، أي من كان ذا قدرة على النفقة ومؤونة النكاح، وهذا مما يؤيد المعنى الثاني.

قوله: (فإنه أغض للبصر)، يقال: غَضَّ بصره، من باب رَدَّ، إذا خفضه.

(وأحصن للفرج)، يقال: أحصنتُ الشيء، أي ادخرته وحفظته، وأصله من الحصن وهو ما يُتَحَصَّنُ ويُتَحَفَّظُ به^(٣).

والمقصود أن الزواج أكثر معونة على غض البصر ومنع الإنسان من الوقوع في المحرم، فإن التَّقْوَى مطلوبة من كل مسلم ومسلمة، وهي سبب لغض البصر وتحصين الفرج، وفي معارضتها الشهوة الداعية، وبالنكاح يضعف هذا العارض، فيكون أغض وأحصن مما لم يكن، لأن وقوع الفعل مع ضعف الداعي أندر من وقوعه مع وجود الداعي.

قوله: (فإنه له وجاء) الوجاء، بكسر الواو - رَضُّ عروق الخِصْتَيْنِ

(١) شرح النووي على مسلم ١٧٣/٩.

(٢) سنن النسائي ٥٧/٦ باب الحث على النكاح من كتاب النكاح.

(٣) المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث ٤٥٩/١.

حتى يكون شبيهاً بالخصاء . والخصاء هو سل البيضتين .
بيان التشبيه :

في الحديث تشبيه الصوم بالوجاء الذي هو غمز الخصيتين ورضهما ،
فلا تبقى شهوة مع وجود الألم .

ووجه الشبه : إضعاف الشهوة دون إزالتها .

من معاني الحديث :

في هذا الحديث توجيه الشباب الذين هم مظنة ثوران الشهوة – لوفرة
نشاطهم وفورة دمائهم وتدفق حيويتهم – إلى ما يرشدهم إلى تسكين هذه
الشهوة ، إما بإشباعها في الحلال وإما بإضعافها مؤقتاً .

والطريق المشروع لإشباع الشهوة هو الزواج ، إذ به يسلك كل من
الرجل والمرأة الطريق المشروع لإشباع لذته ، وبه يعترف المجتمع بالعلاقة
التي تربط بينهما ، ويعقد النكاح لتحديد مسؤولية كل من الزوجين ، وبه يتحقق
أمل كل منهما في أن تكون له ذرية يُعنى بها ، تمد المجتمع وتغذيه بالدماء
الجديدة ويستمر به النوع ، وبه ترتبط الأسر وتتوثق بينها العلاقات .

ولأن الزواج تتحقق به مصالح كثيرة سواء للزوجين أم للمجتمع أم
لنوع الإنساني – جعله الله سبحانه من آياته الدالة على عنايته بالبشرية بعد
آيته سبحانه في خلقها ، كما جعله من النعم التي من بها على بني الإنسان ،
والتي تستوجب شكر المنعم وإخلاص العبادة له ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ .

(١) سورة الروم : الآيتان ٢٠ و ٢١ .

وقال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً... ﴾ (١).

إن الزواج سنة الله في كثير من مخلوقاته، وكلما ارتقى النوع ارتقت العلاقة الزوجية، حتى تصل إلى الإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق، فعلاقته الزوجية حينئذ من السمو والكمال بحيث تتناسب مع مكانته في هذا الكون.

وقد فصل القرآن والسنة واجبات كل من الزوج والزوجة بما لا يتسع المقام هنا لتفصيله. ويكفي هنا أن نشير إلى أن بينهما تكافؤاً في الحقوق والواجبات، إلا أن للرجل درجة القوامه، كما قال تعالى :

﴿ وَهَلْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَاللِّرْجَالِ عَلَيْنَ دَرَجَةٌ ﴾.

حتى إن ابن عباس رضي الله عنه كان يقول: إني لأتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي، ثم يستشهد بهذه الآية (٢).

وعلى الرغم من المصالح المترتبة على الزواج والحاجة الملحة إليه - لا يتيسر لكل أحد، وبخاصة الشباب، لما يلزمه من تكاليف في إنشائه، ومن نفقات لاستمراره، وهم بعد في خطواتهم الأولى في كفاح الحياة لم يتأثروا مالم، ولم يكونوا ثروة. وقد يوجد من الشباب من يتكفل بهم ذوهم ليسارهم فيعينونهم على الزواج، ولكن هؤلاء نسبة ضئيلة، أما أكثرية الشباب فهي عاجزة عن تكاليف الزواج، فكيف يتصرفون؟

إن الحضارة الجاهلة، أو الجهالة الحاضرة ترى أن ينطلق الشباب في

(١) سورة النحل: من الآية ٧٢.

(٢) راجع تفسير القرطبي ١٢٣/٣، والآية هي ٢٢٨ من سورة البقرة.

إشباع غرائزه ويستمتع باللذات المتاحة، واستُحدثت من القوانين ما يناسب العرف الفاسد، بل أوصت بعض علومهم بهذا الانفلات حفاظاً على الصحة النفسية للشباب على زعمهم، لأن كبت الغريزة يؤدي إلى أمراض نفسية ينبغي تجنبها.

هكذا رَوَّجوا للذيلة وزَيَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، ثم نقلوا هذه الأفكار المسمومة إلى بلاد الإسلام عن طريق الغزو الحربي والغزو الفكري .

وقد أثبتت التجارب أن الانطلاق في إشباع الغريزة الجنسية لا يطفئها بل يزيدُها اشتعالاً وتأججاً، حتى يتجاوزها إلى اللواط والشذوذ الجنسي والاستعانة بالمنهات والمخدرات وما يستتبعه من إدمان مدمر، وما يؤدي إليه كل ذلك من أمراض خلقية ونفسية وبدنية يَسْتَعصي بعضها على العلاج .

وعلى الرغم من ظهور هذه الآثار المدمرة، نسمع بعض أذعياء الفكر والمعرفة من المستغربين ممعنين في غيهم يزينون للشباب من الجنسين هذا الانطلاق: تخرج الفتاة مسفرة متبرجة مبدية مفاتها، لتختلط بالفتيان في معاهد العلم ودور اللهو على السواء، وتقيم معهم علاقات يصفونها كذباً بالبراءة أو الصداقة، ويحدث من المفاسد والمآسي ما تفيض به الأخبار والصحف، وما خفي فهو أعظم . هذا الانطلاق في زعم هؤلاء الدعاة إلى النار هو سبيل التقدم وآية التحضر . أما التمسك بالقيم الإسلامية والوقوف عند حدود الله فهو تزمتٌ أو تخلف أو تطرف أو غير ذلك من العبارات التي يلصقونها بمن يرفض منهج الشيطان، ويعتصم بمنهج القرآن .

إن هذا المنهج المعوج الذي يدعو إليه أعداء الله وأعداء أنفسهم يستنفد طاقة الشباب فيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالضرر البليغ . ذلك أن هؤلاء الشباب هم يد الأمة التي بها تبطش وبها تبني، وهم درعها التي بها تدفع وتتقي، وهم حصنها بهم تمتنع وتترس، وهؤلاء الشباب مستهدفون من أعدائنا، فإن نجحوا في أن يصيبوا هدفهم في شبابنا بالتحلل الخلقي والإدمان

واللامبالاة والأمراض النفسية والبدنية، فأَيُّ شيءٍ يبقى حينئذٍ لهذه الأمة؟ وأي مستقبل يُتَوَقَّعُ لها؟.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ شباباً، وكانوا فقراء لا يجدون شيئاً يعينهم على الزواج، وكان من اليسير أن يُوجَّهوا إلى قضاء وطهرهم بغير الزواج، فقد كان للزنا في المجتمع الجاهلي - ككل مجتمع جاهلي ينحرف عن شريعة الله - سوق رائجة، وله أشكال أقرها عرفهم الجاهل ولم ينكرها^(١)، ولكن الله أرسل الرسل للإصلاح وإزالة الفساد، فلا يتوقع من محمد رسول الله ﷺ أن يتملق الشهوات أو يخضع للأهواء:

﴿وَلَوَاتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾^(٢).

لقد بعث رسول الله ﷺ ليبيي الإنسان السوي، فلا يصدرُ منه ما يهدمه ويحطمه. وبعث لإقامة المجتمع الفاضل فلا يتصور منه إقرار أو إباحة لما يهبط به أو يؤدي إلى تحلله.

لذلك خاطب الشباب بهذه العبارة الحازمة: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج». وحينئذٍ فلا حرج عليه في إشباع غريزته، ولا حرج عليه في أن يُتمتع نفسه باللهم مع زوجه، فقد قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله وكان شاباً، فتزوج بعد استشهاد أبيه ثيباً «أفلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك»^(٣).

(١) انظر صحيح البخاري كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي، فتح الباري ١٨٢/٩ - ١٨٧ وجاء في نهاية الحديث المروي عن عائشة والتي بينت فيه انحراف الجاهلية في العلاقة الجنسية: (فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم).

(٢) سورة المؤمنون: من الآية ٧١.

(٣) فتح الباري ١٢١/٩ باب تزوج الثيب من كتاب النكاح، ومسلم بشرح النووي ٥٢/١٠ - ٥٦، وبين جابر سبب زواجه بالثيب بأن أباه ترك أخوات له، فأراد أن يتزوج من ترعاهن.

بل يمكن أن يتحول لهو الشباب حينئذ واستمتاعه إلى عبادة يُثاب عليها، إن نوى به تحصين نفسه وزوجه، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «... وفي بُضْع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

قال النووي: (البُضْع - بضم الباء - ويُطلق على الجماع ويطلق على الفَرْج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا. وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات)^(١).

أما من حال بينه وبين الزواج قلة موارده وعدم قدرته على الإنفاق، فعليه أن يغالب الشهوة بالصوم حتى يُيسِّرَ الله عليه، ومتى قصد أن يُعِفَّ نفسه أعانه الله عليها وصرف عنه كيد الشيطان، وذلك له سبل الرزق حتى يتمكن من الزواج، وقد روى عن النبي ﷺ: «ثلاثة حق على الله إعانتهم: المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد أن يستعفف، والمكاتب يريد الأداء»^(٢).

إن الصوم عبادة من ثمراتها التقوى، وهو رياضة للنفس يعينها على الصمود، وكل مسلم ومسلمة في حاجة ماسة إلى هذه الرياضة، غير أن الشباب الذي لا يملك نفقات الزواج أكثر حاجة إلى الصوم لتضعف شهوته وتنقاد له نفسه، لا أن ينقاد لهواه، وهوى الشباب أهوج عاصف، وقد قال ابن مسعود: (الشباب شعبة من الجنون)، قال الخطابي في تفسيرها: (إنما جعل الشباب شعبة من الجنون، لأن الجنون آفة تنال العقل فتزيله، وكذلك الشباب قد

(١) شرح النووي على مسلم ٩١/٨ - ٩٢ كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(٢) نيل الأوطار أول كتاب النكاح، وذكر الشوكاني أن الترمذي أخرجه وكذلك الحاكم.

يسرع إلى غلبة العقل بما له من قوة الميل إلى الشهوات وشدة النزاع إليها. (١).

وفي مقابل أمر الشباب بالصيام، أرشد الآباء إلى التيسير في الزواج وعدم المبالغة في تكاليفه.

**

(١) غريب الحديث للخطابي ٢/٢٦٧.

المتطوع بالصيام

٣٠ - روى النسائي بسنده عن طلحة بن يحيى بن طلحة، عن مجاهد، عن عائشة قالت: (دخل عليّ رسول الله ﷺ يوماً، فقال: هل عندكم شيء؟ فقلت: لا. قال: فإني صائم، ثم مرّ بي بعد ذلك اليوم وقد أهديت إليّ حَيْسٌ، فَخَبَأْتُ له منه، وكان يحب الحيس، قالت: يا رسول الله إنه أهديت لنا حيس فخبأت لك منه، قال: أذنيه، أما إني قد أصبحت وأنا صائم، فَأَكَل منه، ثم قال:

«إنما مثْلُ صوم المتطوع مثْلُ الرجل يُخرجُ من ماله الصدقة، فإن شاء أمضاها وإن شاء حَبَسها» (١).

* * *

مفردات الحديث ورواياته:

قوله: (هل عندكم شيء) أي طعام، وفي رواية النسائي: (هل عندكم غداء) وفي رواية أخرى له: (أصبح عندكم شيء تُطعمينيه).

قوله: (حَيْس) هو طعام يتخذ من خلط التمر مع السمن مع اللبن المجفف المعروف بالأقط.

قوله: (فخبأت له منه) أي أفردت له حصة وسترتها عن الأعين.

قوله: (أذنيه) أمر من الإذناء، أي قربه.

(١) سنن النسائي، باب النية في الصيام، من كتاب الصيام.

قوله: (أمضاها): أي أتمها وأخرجها إلى المتصدق عليه.

وقد روى مسلم هذا الحديث بسنده عن طلحة بن يحيى عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين مرفوعاً دون ذكر المثل، أي دون قوله: «إنما مثل صوم المتطوع... إلخ، بل ذكر ما يفيد أن هذا المثل من قول مجاهد، فقد روى المرفوع إلى قوله ﷺ: (هاتيه، فجئت به فأكل، ثم قال قد كنت أصبحت صائماً)، وبعده: (قال طلحة: فحدثت مجاهداً بهذا الحديث فقال: ذلك بمنزلة الرجل يخرج الصدقة من ماله فإن شاء أمضاها، وإن شاء أمسكها)^(١).

ولكن رواية النسائي عن طلحة عن مجاهد، من الثقات^(٢) الذين تقبل زيادتهم في رفع هذا المثل، فالاختلاف فيه إنما هو من طلحة وصنيع مسلم يفيد أن المثل مدرج، وأن الأصل فيه أنه من قول مجاهد.

ومما يذكر أن البخاري لم يخرج هذا الحديث، لأنه يدور على طلحة بن يحيى بن طلحة وهو ليس من رجاله، قال عنه ابن حجر في التقريب: صدوق يخطيء من السادسة، ورمز له بمسلم وأصحاب السنن الأربعة.

(١) مسلم بشرح النووي ٣٤/٨ باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال، من كتاب الصوم.

(٢) قال النسائي: (أخبرنا عمرو بن منصور، قال: حدثنا عاصم بن يوسف، قال: حدثنا أبو الأحوص عن طلحة بن يحيى عن مجاهد). وعمرو بن منصور قال عنه في التقريب: ثقة ثبت، وقال عن عاصم بن يوسف: ثقة من كبار العاشرة، أما أبو الأحوص الكوفي فهو سلام بن سليم من السابعة قال عنه: ثقة متقن.

بيان التمثيل :

في الحديث تشبيه المتطوع بالصيام بالمتطوع بالصدقة .
ووجه الشبه : الاختيار وعدم الإلزام بإتمام العمل في كل منهما .

من معاني الحديث :

أداء الفرائض أمر مطلوب من كل مسلم ومسلمة ، والالتزام بأدائها هو الحد الأدنى للفلاح ، كما بينه ﷺ في شأن من أراد الاقتصار عليها ، حيث قال : «أفلق إن صدق»^(١) .

وهو كذلك من أعظم القربات إلى الله ، إذ في الالتزام بأداء الفرائض واجتناب النواهي ما يشعر بصدق الإيمان والحرص على الوفاء بالعهود .

غير أنه من الصعوبة بمكان أن يخلو عمل الإنسان من نقص يعرض له بسوعي منه أو بلا وعي ، فلا يتأهل بعمله ذلك للفلاح والعبور إلى منطقة الأمان ، كما قال تعالى :

﴿... وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ...﴾^(٢) .

ولذلك شرع الاستغفار وغيره من الأذكار ، وندب المسلم إلى الإكثار منها ، كما ندب إلى نوافل العبادات من صلاة وصدقة وصيام ، حتى تجبر هذا النقص الذي يعرض للعمل من جانب ، وحتى تكون مجالاً للمنافسة في الرقي

(١) رواه البخاري في باب الزكاة من الإسلام من كتاب الإيمان ، فتح الباري ١/١٠٦ ،

ورواه مسلم في باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام من كتاب

الإيمان ، شرح النووي على مسلم ١/١٦٦ - ١٦٨ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٨٥ .

الروحي الذي يترتب عليه تفاوت الدرجات في الآخرة من جانب آخر.

وصوم رمضان أحد أركان الإسلام، والصيام فيه فريضة من أحب القربات إلى الله، فمن اكتفى به وأدى حق الصوم فيه بشروطه فلم يرفث ولم يجهل ولم يغترب أحداً. فقد وَفَى بما لزمه، ولا عليه أن لا يصوم في غير رمضان. لكن يبقى باب التطوع بالصيام مفتوحاً لمن أراد أن يرتقى في مجال تزكية النفس ورياضتها، ليرتقي بذلك في مدارج السالكين إلى رضا رب العالمين.

والأمر في هذا موكول إلى اختيار المسلم ونشاطه، فإن آنس من نفسه نشاطاً وعزماً في بعض الأيام صام فحصل الأجر، وإن لم يجد نشاطاً لم يصم ولا حرج عليه متى لم يلزم نفسه بنذر.

لكنه إن وجد نشاطاً فصام هل هو مُلْزَم بالمضي في الصوم وإتمامه، أم له أن يفطر دون أن يترتب على إفساد صومه هذا إثم ولا قضاء؟

إن التشبيه في الحديث يفيد أن عدم تمام الصوم يشبه عدم تمام الصدقة، فإن مجرد الهَم بالصدقة أو العزم عليها لا يوجب على المتصدق إنفاذها، وإنما تتعدد الصدقة وتتم بتسليمها إلى الفقير، وحينئذ ليس له أن يرجع فيها، كما قرره الحديث الصحيح: «مثل العائد في صدقته كمثل الكلب يعود في قيئه»^(١).

وهذا الذي عزم على صدقة التطوع ثم بخل بها لم يأثم، بل لعله مأجور، استناداً إلى ما قرره الحديث الصحيح: «... فمن همَّ بحسنة فلم

(١) هذا لفظ مسلم في أول كتاب الهبة، شرح النووي على مسلم ١١/٦٢ - ٦٤، ورواه البخاري في كتاب الهبة، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته بنحوه، وانظر فتح الباري ٥/٢٣٤ - ٢٣٥.

يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»^(١).

فكذلك من صام تطوعاً ثم لم يتم صومه لا إثم عليه ولا قضاء، بل لعله مأجور أدنى درجات الأجر.

هذا النظر في الحديث قريب مما ذهب إليه الشافعية والحنابلة^(٢).
أما الأحناف والمالكية فقد أوجبوا إتمام التطوع متى شرع فيه، وإن أفسده فعليه قضاؤه.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾:

(احتج علماءنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع، صلاة كان أو صوماً، بعد التلبس به لا يجوز، لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك، وهو الإمام الشافعي وغيره، المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نَفلاً فلا،

(١) رواه البخاري في باب من هم بحسنة أو بسيئة من كتاب الرقاق، (فتح الباري ٣٢٣/١١).

(٢) انظر المجموع شرح المهذب النووي ٦/٣٩٢ - ٣٩٨، وشرح منتهى الإرادات ١/٤٦١، وفيه (ومن دخل في تطوع صوم أو غيره، غير حج أو عمرة - لم يجب عليه إتمامه. . . وإن فسد تطوع فلا قضاء عليه نصاً، بل يُسَن).

لأنه ليس واجباً عليه^(١).

وقال أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، في تفسير قوله تعالى:

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾:

(قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ دَخَلَ فِي صَوْمِ التَّطَوُّعِ لَزِمَهُ إِتْمَامُهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ عَامٌّ فِي سَائِرِ اللَّيَالِي الَّتِي يَرِيدُ النَّاسُ الصَّوْمَ فِي صَبِيحَتِهَا، وَغَيْرُ جَائِزِ الاِقْتِصَارُ بِهِ عَلَى لَيَالِي صِيَامِ رَمَضَانَ دُونَ غَيْرِهِ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَخْصِيصِ الْعَمُومِ بِلا دَلَالَةٍ، وَلِمَا كَانَ حَكْمُ اللَّفْظِ مُسْتَعْمَلًا فِي إِبَاحَةِ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ فِي لَيَالِي صَوْمِ التَّطَوُّعِ ثَبَتَ أَنَّهَا مُرَادَةٌ بِاللَّفْظِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، اقْتَضَى ذَلِكَ لَزُومَ إِتْمَامِ الصَّوْمِ الَّذِي صَحَّ لَهُ الدَّخُولُ فِيهِ تَطَوُّعًا كَانَ ذَلِكَ الصِّيَامَ أَوْ فَرَضًا. ثُمَّ قَالَ: (وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُونُسَ وَمُحَمَّدُ وَزُفَرُّ: مِنْ دَخَلَ فِي صِيَامِ التَّطَوُّعِ أَوْ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ فَأَفْسَدَهُ أَوْ عَرَضَ لَهُ فِيهِ مَا يَفْسِدُهُ فَعَلِيهِ الْقَضَاءُ. وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ إِذَا أَفْسَدَهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: إِذَا دَخَلَ فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ فَأَقْلَ مَا يَلْزِمُهُ رَكْعَتَانِ. وَقَالَ مَالِكٌ: إِنْ أَفْسَدَهُ هُوَ فَعَلِيهِ الْقَضَاءُ، وَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ مَا أَخْرَجَهُ مِنْهُ

(١) تفسير القرطبي ٢٥٥/١٦، والآية هي ٣٣ من سورة محمد. وقوله (احتج علماؤنا) يعني المالكية. وانظر رأي المالكية في شرح الخرشي على متن خليل ٢٥١/٢، وجواهر الإكليل للآبي ١٥٠/١، وفيه: (وقضى في النفل وجوباً بالفطر العمدة ولو لسفر طراً عليه لا بالفطر نسياناً أو إكراهاً، ولا لحيض أو نفاس أو خوف مرض...).

فلا قضاء عليه . وقال الشافعي رحمه الله : إن أفسد ما دخل فيه تطوعاً فلا قضاء عليه .

ولم يختلفوا في الحج والعمرة إذا أحرم بهما تطوعاً ثم أفسدهما أن عليه قضاءهما^(١) .

ومن أحكام صيام التطوع التي استدلَّ عليها بهذا الحديث جواز إنشاء النية فيه من النهار، ذلك أن قوله ﷺ : «فإني صائم» بعد سؤاله : هل عندكم شيء؟ يفيد أنه أنشأ الصيام من النهار عقب سؤاله . فلا يشترط حينئذ تبييت النية من الليل لصيام التطوع . وهذا رأي الجمهور من الحنفية والشافعية والحنابلة . أما المالكية فجعلوا صوم التطوع كصوم الفريضة في وجوب تبييت النية قبل الفجر لكل منهما، وهو رأي الليث بن سعد .

قال النووي في شرح هذا الحديث : (وفيه دليل لمذهب الجمهور أن صوم النافلة يجوز بنية في النهار قبل زوال الشمس . ويتأوله الآخرون على أن سؤاله ﷺ : «هل عندكم شيء» لكونه ضعف عن الصوم وكان نواه من الليل فأراد الفطر للضعف . وهذا تأويل فاسد وتكلف بعيد)^(٢) .

والتأويل الذي استبعده النووي ، ليس مستبعداً ، بل يحتمله لفظ الحديث ، لكن عمل عدد من الصحابة على خلافه مما يضعفه ، ذكرهم البخاري في (باب إذا نوى بالنهار صوماً) ، قال : (وقالت أم الدرداء : كان

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢٣٤/١ . وانظر مزيداً لرأي الأحناف في الاختيار لتعليل المختار ٦٦/١ باب النوافل من كتاب الصلاة ، وفتح القدير شرح الهداية في كتاب الصوم ٣٦٠/٢ - ٣٦٣ ، وعمدة القاري للعيني ٧٧/١١ - ٨٢ وفيه تفصيل للأدلة ودفاع عن رأي الأحناف وانظر فتح الباري لابن حجر ٢١٢/٤ باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، ففيه تفصيلات مفيدة . وقد مال السيوطي في شرحه على النسائي إلى وجوب القضاء على من أفطر في صوم التطوع .

(٢) شرح النووي على مسلم ٣٥/٨ .

أبو الدرداء يقول: عندكم طعام؟ فإن قلنا لا، قال: فإنني صائم يومي هذا. وفعله أبو طلحة، وأبو هريرة، وابن عباس، وحذيفة رضي الله عنهم^(١).

وقد لخص ابن رشد آراء الفقهاء في وقت النية في صوم الفرض والتطوع فقال: (وأما اختلافهم في وقت النية فإن مالكا رأى أنه لا يجزىء الصيام إلا بنية قبل الفجر، وذلك في جميع أنواع الصوم. وقال الشافعي: تجزى النية بعد الفجر في النافلة ولا تجزى في الفروض. وقال أبو حنيفة: تجزى النية بعد الفجر في الصيام المتعلق وجوبه بوقت معين مثل رمضان ونذر أيام محددة، وكذلك في النافلة، ولا تجزى في الواجب في الذمة.

والسبب في اختلافهم تعارض الآثار في ذلك، أما الآثار المتعارضة في ذلك فأحدها ما أخرجه البخاري عن حفصة أنه قال عليه الصلاة والسلام: «من لم يبيت الصيام من الليل فلا صيام له»، رواه مالك موقوفاً. قال أبو عمر: حديث حفصة في إسناده اضطراب. والثاني رواه مسلم عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ ذات يوم: «يا عائشة، هل عندكم شيء؟» قالت: قلت يا رسول الله ما عندنا شيء، قال: فإنني صائم). ولحديث معاوية أنه قال على المنبر: (يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: اليوم هذا يوم عاشوراء ولم يكتب علينا صيامه وأنا صائم، فمن شاء منكم فليصم ومن شاء فليفطر).

فمن ذهب مذهب الترجيح أخذ بحديث حفصة. ومن ذهب مذهب الجمع فرق بين النفل والفرض، أعني حمل حديث حفصة على الفرض، وحديث عائشة ومعاوية على النفل...^(٢).

*
**

(١) انظر فتح الباري ٤/١٤١ - ١٤٢، وعمدة القاري ١٠/٣٠٢ - ٣٠٦.

(٢) بداية المجتهد ١/٢٤٩ طبع المطبعة التجارية الكبرى بمصر.

الربح المضمون

٣١ - عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتَوَكَّلَ اللهُ للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالمًا مع أجر أو غنيمة»^(١).

* * *

المفردات:

القائم: الذي يقوم في الصلاة بالليل، فيحیی ليله بالصلاة وقراءة القرآن.

وتوكل الله: أي تكفل وضمن. وقد روى البخاري في كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان: «انتدب الله لمن خرج في سبيله» أي سارع بالثواب وحسن الجزاء، وقيل: «انتدب» أي أجاب بالمراد، ففي الصحاح: ندبت فلاناً لكذا فانتدب، أي أجاب إليه.

بأن يتوفاه أن يدخله الجنة: أي بأن يدخله الجنة إن توفاه، كما هي رواية الطبراني، بإن الشرطية والفعل الماضي.

(١) صحيح البخاري ٤/١٨ - ١٩ ط. الشعب، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد.

بيان التمثيل :

في الحديث تشبيه المجاهد في سبيل الله بالعباد الذي استغرق وقته في العبادة: نهاره صائم وليله قائم . . . ووجه الشبه: استغراق الوقت في العبادة ليلاً ونهاراً في كل منهما.

من معاني الحديث :

روى البخاري قبل هذا الحديث ما يبين سببه، وهو أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: دُلّني على عمل يعدل الجهاد - أي يساويه - قال: «لا أجده»، ثم قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟»

ومما يدل على أن هذا هو السبب أن الإمام مسلماً رواهما في سياق واحد^(١)، هو: «قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، وقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى».

وكذلك فعل البخاري في رواية له عن أبي هريرة قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلّني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟^(٢)).

(١) كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، مسلم بشرح النووي

٢٤/١٣ - ٢٥.

(٢) باب فضل الجهاد من كتاب الجهاد والسير.

وهذا يفيد أمرين: أن الجهاد في سبيل الله أفضل العبادات، وأن المجاهد في عبادة مستمرة: في طعامه وشرابه، وراحته وعنائه، ونومه وقاتله، ولا أدل على هذا من قول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ﴾ (١).

ولهذا قال أبو هريرة عقب رواية البخاري السابقة: (إن فرس المجاهد لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فيكتب له حسنات)، وقد نبه الحافظ ابن حجر^(٢) إلى أن هذا القول الموقوف على أبي هريرة قد رواه البخاري عنه مرفوعاً في (باب الخيل لثلاثة).

وَنَصَّهُ هُنَاكَ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ: فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ فِي مَرَجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طَيْلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرَجِ أَوْ الرَوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طَيْلَهَا فَاسْتَنْتَّ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ أَوْرَاقُهَا وَأَثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ...) الحديث.

قال ابن حجر: فيه أن الإنسان يؤجر على التفاصيل التي تقع في فعل

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٢٠ - ١٢١.

(٢) فتح الباري ٥/٦ - ٦.

الطاعة إذا قصد أصلها وإن لم يقصد تلك التفاصيل^(١).

وإنما كان الجهاد أفضل عبادة؛ لأن المجاهد يقدم أغلى ما يقدمه إنسان، وهي نفسه وحياته، وبهذا الجهاد يتهيأ للمتعبد الأمن الذي يتيح له العبادة، وقد يسهل على النفس صيامها وقيامها، لكن يصعب عليها أن تعرّض نفسها للموت، فإذا أمرت بالجهاد والقتال فرعت وترددت والتمست الأعذار، ونسيت أن الذي تتوجه إليه بالعبادة هو الذي أمرها بالقتال، والعبادة لا تتم إلا بالطاعة، وليس من العبادة أن يعبد الله فيما يوافق هوى النفس ويعصي فيما يخالف هواها، إن الذي يفعل هذا إنما يعبد نفسه في الحقيقة. أما عبادة الله فتكون بطاعته فيما يوافق الهوى وما يخالفه، وليس كالجهاد محكاً لاختبار الطاعة وإظهار العبودية. ولهذا حكى الله سبحانه وتعالى عن فريق من الناس أنهم أمروا بالصلاة والزكاة فامتلوا وأطاعوا، فلما أمروا بالقتال خافوا وناقشوا:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿٢﴾ .

ولأن المجاهد يحمل روحه على كفه طائعاً منافحاً عن دين الله مكافحاً في إعلاء كلمته – كان أجره أعظم الأجر ليتكافأ مع عظم التضحية. ضمن الله له هذا الأجر، وتكفل به، ووعد عليه، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو

(١) فتح الباري ٦/٦٣ - ٦٤، وقوله (يَسْتَنُّ) أي يمرح بنشاط. وقال الجوهري: هو أن يرفع يديه ويطحرحهما معاً، وقال غيره: أن يَلِجَ في عَدُوهِ مَقْبِلاً أو مَدْبِراً. وقوله (في طَوْلِهِ)، بكسر المهملة وفتح الواو – هو الجبل الذي تربط به الدابة ويطول لها لترعى، وهو الطِيل أيضاً.

(٢) سورة الصف: الآيتان ١٠ - ١١.

سبحانه يعطي من فضله لا يلزم بشيء، لكن التعبير يفيد تأكيد الثواب والقطع بوقوعه.

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يفيد استمرار ثواب المجاهد، واستمرار رزقه حتى بعد وفاته، لأنه بعدها حيٌّ عند ربه. وذلك فيما رواه مسلم بسنده عن سلمان قال: (سمعت رسول الله يقول: «رباط يوم ليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأَمِنَ الْقُتَّانُ» (١).

هذا الأجر العظيم للمجاهد بيّنه القرآن في قوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ (٢).

تكفل الله للمجاهد بهذا الأجر العظيم في الدنيا وفي الآخرة، سواء مات في المعركة، أو رجع منها سالماً موفوراً، إن مات ظفر بالشهادة، وإن لم يمت فقد رجع بأجر قد تصحبه غنيمة:

أما الشهادة فهي درجة عظيمة، وأمنية محببة، ومكانة مرموقة مع:

﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٣﴾﴾ (٣).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/٦١، باب فضل الرباط في سبيل الله من كتاب الجهاد. والفتان - بضم الفاء جمع فاتن، والمقصود أنه يؤمن من فتنة القبر.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٩٥ - ٩٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٩.

وهي اختيار من الله للشهيد، وليس كل الناس يقع عليه الاختيار.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (١).

والشهادة حياة خالدة، حياة لا ندرك كنهها، ولا نعرف سرها ولا نعلم كيفيتها، وهل أدركنا كنه الحياة التي نعيشها حتى نبحث في كنه الحياة التي ينتقل إليها الشهيد؟ (إنه بعد أن يخلع جسده البالي يحيا حياة لا نشعر بها ولا نحسها:

﴿وَلَا نَقُولُ الْمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (٢).

حياة يسعد بها، ويتمتع فيها، ويتمنى أن لو يعود فيقتل مرة ثانية أو مرات لما يرى من كرامة الشهيد إنها كرامة جعلت نبي الإسلام يتمنى أن يحظى بها. يقول سيد المجاهدين عليه السلام: «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أنني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل» (٣).

إنها كرامة جعلت المسلمين يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، هي الكرامة التي مكنت أنس بن النضر من أن يشم ريح الجنة

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٤. وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾... إلخ: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

(٣) صحيح البخاري ١٦/١ ط. الشعب. وفي الصحيحين عن أنس مرفوعاً: «أن الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» (انظر رياض الصالحين ص ٣٨٠ ط. الشعب).

من دون أحد^(١)، وهي التي حملت عمير بن الحُمَام الأنصاري على أن يستكثر على نفسه أكل تمرات تبطىء به عن دخول الجنة. ويقول: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، ثم رمى ما كان معه من التمر وقاتل المشركين حتى قتل، وكان ذلك في غزوة بدر^(٢).

أما إذا لم يمت المجاهد في المعركة، فقد رجع بأجر عظيم، قد تصحبه غنيمة قد أحلها الله له يتقوى بها على عدوه، ويتمتع من طيبات ما أحل الله له، وتسري في أحاسيسه العزة، ويأمن على دينه ومقدساته وعرضه وماله، ويؤمن لغيره هذه المصالح، ثم الجنة مثواه إذا انتقل إلى مولاه.

ولكن من هو المجاهد الذي اختص بهذا التكريم وادخر له الأجر العظيم؟

إنه الذي يجاهد في سبيل الله، لا رياء ولا سمعة ولا ليقال إنه شجاع، ولا يقاتل حباً في القتال أو سعياً وراء التوسع. يجب أن تكون النية خالصة لله في القتال شأنها في أي عبادة أخرى، والله سبحانه عليم بذات الصدور، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو يعلم المخلص في جهاده من غيره، والثواب الموعود به إنما هو للمخلص لا لغيره.

إن المسلم لا يقاتل دفاعاً عن أرض أو رمل، ولكنه يقاتل دفاعاً عن الكلمة، عن كلمة الله الذي أراد سبحانه أن يقيم الناس من هجهم على مقتضاها، عن كلمة الله الذي خلقهم ليلوهم بالاهتداء إليها، عن الإسلام الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور. يكافح المسلم لتصل

(١) متفق عليه. وانظر البخاري ٢٣/٤.

(٢) رواه مسلم.

كلمة الله إلى الشعوب، فيزيل حواجز الظلم والقهر التي يقيمها الحكام والطواغيت، وحينئذ يكون للشعوب حق الاختيار، ليتحقق الابتلاء.

إن المسلم عندما يجاهد في سبيل الله، يدافع ضمناً عن أرضه ووطنه، ويدافع كذلك عن أرض أخرى قد لا ينتسب إليها جغرافياً، ولكنه ينتسب إليها دينياً وعقائدياً، وحدث بين الأرضين كلمة الله، إنه مواطن وطنه (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، يسعى لنشر هذه الكلمة ويدافع عنها في كل أرض قيلت فيها، ويهمه أمن واستقرار ورفاهية كل من ينطق بها. من أجل هذا يقاتل المسلم، وفي سبيل هذا يجاهد: سئل رسول الله ﷺ: «الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١)؛ وهذا من جوامع الكلم، لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله، احتمال أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله، وليس كذلك، فأجاب بلفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلى حال المقاتل، فتضمن الجواب وزيادة^(٢).

والجهاد يُشيع في الأمة روح الجد، ويستخرج منها البطولات، فيعطي لصغارها النماذج التي يقلدونها، ويعود الشعوب على الموت، فلا تقبل الذل خوفاً على حياتها، بل الموت أهون من قبولها الذل؛ لأنها لا ترضى بالعزة بدلاً... لقد كان الصغار في المجتمع المدني على عهد الرسول ﷺ يتسابقون إلى الالتحاق بالجيش، وكان أحدهم يحزن إذا لم يقبل لصغر سنه، وقد حصب الصغار جيش خالد بن الوليد عندما رجع إلى المدينة من غزوة مؤتة، رمى الصغار الجيش بالحصباء، ظناً منهم أن الجيش فرّ من مواجهة

(١) البخاري ٢٤/٤ - ٢٥، ط. الشعب.

(٢) فتح الباري ٢٩/٦ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

عدوه، ولم يشفع لهم كثرة عدوهم وقتلهم، ولم يشفع لهم أن قواداً ثلاثة استشهدوا في هذه المعركة بالإضافة إلى عدد كبير من الجنود؛ لأنه وقر في نفوس الصغار أن موت الجميع أهون من ذل الفرار وعار الجبن. وقد صحح النبي ﷺ مفهوم الصغار وغيرهم بالنسبة للجيش العائد من مؤتة، عندما قرر أنهم كَرَّار وليسوا بالفرار، ومع هذا فموقف الصغار من الجيش يعطي صورة للروح العامة في المجتمع، ويبين كيف يلقن الآباء للأبناء معاني العزة والشرف ويرضعونهم الشجاعة والأنفة والإباء، ويتعلم الخلف من السلف روح التضحية والفداء.

وقد استمرت هذه الروح أحقاباً طويلة في العالم الإسلامي، منطلقة بقوة الدفع الأولى، ثم أخذت تضعف تدريجياً ضعفاً مطرداً مع بعدها عن مصدر قوتها وهو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله. وحرص أعداء الإسلام على أن يقتلوا في المسلمين هذه الروح، وأن يشيعوا فيهم الفساد والوهن - وهو حب الدنيا وكراهية الموت - وأن يُشيعوا إليهم الجهاد، حتى إذا انهارت قوتهم تسلط عليهم عدوهم، وأذلهم، وأفسد عليهم دينهم ودنياهم.

وهكذا الحياة لا مكان فيها للضعفاء، ولا تنفك عن القتال ولا تخلو عن القوة. وأصحاب الحق مدعوون إلى أن يعدوا ما استطاعوا من قوة، ليحموا حقهم، وليقيموا شرعية الله في الأرض فيرفرف العدل على ربوع الدنيا، إن القوة في أيديهم شرطي يرضى الأمن ويسهر على راحة الناس، يقول تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ (١)

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

فإن تهاون المؤمنون في تحصيل أسباب القوة وخلدوا إلى الراحة والملذات، انتقلت القوة إلى عدوهم، وصارت سوطاً يلهب به أهل الباطل ظهور العباد، ويذلونهم، وينهبون خيراتهم، ويضطهدون أصحاب الحق ويحاولون استئصالهم بلا رحمة، وما حدث في إسبانيا قديماً وما يحدث في فلسطين والهند والفلبين حديثاً، بل وما يحدث في معظم أرجاء الوطن الإسلامي من تنكيل بالدعاة إلى الله - أصدق شاهد على ما نقول.

لقد زرع أعداء الإسلام دولة لليهود في قلب العالم الإسلامي، تعاون في زرعها الغرب الصليبي والشرق الملحد، ولم يبالوا بقتل وتشريد الملايين من المنتسبين إلى الإسلام، ثم أخذت هذه الدولة المصنوعة تمارس ضغطها على دول الإسلام المحيطة بها، وتقمصت دور «البلطجي» الذي يفرض إتاوات على الضعفاء الذين يرهبهم بقوته المستمدة من سلاحه، ومن ضعف خصومه، لقد وصلت دول الإسلام إلى حالة من الهوان والذل والضعف لم تعرفها في تاريخها الطويل: استعمرت أرضها، وقهرت شعوبها، ونهبت خيراتها، وتخنت رجالها، وفجر نساؤها، حتى ظن أعداء الإسلام أنهم قد أجهزوا على المارد الإسلامي. لكن هذا المارد يخيب ظنهم دائماً، فقد تحرك في العاشر من رمضان من سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وتسعين من الهجرة - تحرك في هذا اليوم حركة دلت على حياته وعلى أن النار تحت الرماد، تحرك ليسترد حقه ويرغم إسرائيل على الانسحاب، بعد أن اقتحم عليها أقوى حصونها وعبر أعنى خطوط دفاعها. ولم تنته المعركة بعد.

والذي أريد أن أستخلصه من هذه المعركة، هو كيف أن الجهاد قد غير من حياة الناس: من الهزل إلى الجد، من اللامبالاة إلى الاهتمام والمشاركة الإيجابية، من الهلع إلى الشجاعة والصبر والتعود على الموت، إن الحمية التي أثارها القتال وقصص البطولة تغطي على حزن من فقد حبيباً له في

الحرب . إنها روح جديدة يعيها الجهاد، وأخشى ما أخشاه أن يكون ما حدث ومضة يعقبها ليل طويل، فإن أعداء الإسلام ليسوا بغافلين عن خطورة ما حدث، ولن يقصروا في أن يعيدوا إلينا حياة العث واللهو واللامبالاة والوهن . ولعل المسلمين يتنبهون إلى ما يكاد لهم وما يراد بهم، فيأخذون بأسباب قوتهم، ويجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله، فإنها تجارة رابحة، فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة، والإنسان فيها هو الرابع، أما الله فهو غني عن العالمين .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۙ ﴾ (١) .

الإنسان هو الذي يربح في الدنيا وفي الآخرة: يربح في الدنيا حياة مطمئنة آمنة، يتمتع فيها بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وفي الآخرة له الدرجات العلا، في جنة عرضها كعرض السماء والأرض:

﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَةٍ يُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۗ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۗ ﴾ (٢) . . . الآيات .

إنها تجارة رابحة، يشتري فيها الله سبحانه وتعالى الأنفس والأموال ويعطى عليها الجنة والحياة الكريمة، وهذا فضل منه تعالى: فالأنفس هو خالقها، والأموال هو رازقها، والمنتفع أولاً وأخيراً هو الإنسان، هو صاحب المصلحة ومع هذا يأخذ الأجر. وقد جاء في الأثر «مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى: ترضع ولدها وتأخذ أجرها» (٣) .

(١) سورة النساء: الآية ١٣٣ .

(٢) سورة الصف: الآية .

(٣) رواه أبو داود في مراسيله، والبيهقي في السنن عن جبير بن نفير مرسلًا. انظر الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ٣/١٣٠ .

لقد خسر المسلمون كثيراً منذ تركوا هذه التجارة المضمونة، فهل
يستدركون خطأهم، ويعودون إلى ربهم، ويقبلون على تجارتهم ولا ييخلون
عليها بنفس أو نفيس؟ نرجو هذا وعسى أن يكون قريباً.

*

**

«لَوْ خُضَّتْ بِنَا الْبَحْرِ لَخَضِنَاهُ مَعَكَ»

٣٢ - عن أنس رضي الله عنه قال: (دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان، فأتكأ عندها، ثم ضحك، فقالت: لِمَ تضحك يا رسول الله؟ فقال: ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله، مثلهم مثلُ الملوكة على الأسيرة. فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعلها منهم. ثم عاد فضحك، فقالت له مثل - أو مم - ذلك؟ فقال لها: مثل ذلك، فقالت: ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأولين ولست من الآخرين.

قال أنس: فتزوجت عبادة بن الصامت، فركبت البحر مع بنت قرظة، فلما قفلت، ركبت دابتها فوقفت بها فسقطت عنها، فماتت^(١).

* * *

(١) هذا لفظ البخاري باب غزو المرأة في البحر من كتاب الجهاد. وقد رواه في مواضع أخرى من كتاب الجهاد، منها باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء، ومنها باب فضل من يصرع في سبيل الله، ومنها باب ركوب البحر، كما رواه في كتاب الاستئذان باب من زار قوماً فقال عندهم، وكتاب التعبير باب رؤيا النهار. وقد رواه مسلم من عدة طرق في باب فضل الغزو في البحر من كتاب الجهاد (شرح النووي على مسلم ٥٧/١٣ - ٦٠).

وهذا الحديث يروى في بعض الطرق من مسند أنس، ويروى في بعضها الآخر من مسند أم حرام، أي أنس عن أم حرام.

مفردات الحديث وألفاظه :

ابنة ملحان: هي أم حَرَام كما صرح به في باب من زار قوماً فقال عندهم، وغيره من الأبواب وأم حرام هي بنت ملحان - بكسر الميم - ابن خالد بن زيد بن حرام الأنصارية، وهي أخت أم سليم بنت ملحان، والدة أنس بن مالك. فأم حرام خالة أنس، وقد توفيت أم حرام في خلافة عثمان، وكذا أختها أم سليم. وأمهما (مليكة بنت مالك) جدة أنس أم أمه، من بني النجار، وهي التي دعت رسول الله ﷺ إلى طعام صنعته فأكل منه، ثم قال: «قوموا فلأصل لكم»، قال أنس: (فصفت أنا واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا)^(١).

وكان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى قباء يزور أم حرام وأختها ويستريح عندهما وقت القيلولة، كما أوضحته رواية البخاري في باب من زار قوماً فقال عندهم، وقد ذكر ابن حجر أن الأختين كانتا في دار واحدة، كل واحدة منهما في بيت من تلك الدار^(٢).

قوله: (فاتكأ عندها)، أي نام قريباً منها، كما هو مصرح به في رواية أنس عن أم ملحان في باب فضل من يصرع في سبيل الله، والتعبير بقوله: (اتكأ) قد يفيد أنه نام معتمداً على يده أو مستنداً إلى شيء، شأن من يستعين على مواصلة السير أو العمل براحة قصيرة.

وللعلماء أقوال في سبب تشریف النبي ﷺ أم حرام وأختها بالاستراحة عندهما وقت القيلولة عند ذهابه إلى قُباء:

(١) شرح النووي على مسلم ١٦٢/٥ - ١٦٣، وفتح الباري ٤٨٩/١، والإصابة

٤١١/٤

(٢) فتح الباري ٧٨/١١.

منها أنهما من بني النجار، وهم أخواله وخالاته، لأن أم جده عبد المطلب منهم.

ومنما أنه كان يرحمهما ويواسيهما، لأن أخاهما حرام بن ملحان ممن قتل يوم بئر معونة، فقد ثبت في الصحيح أنه كان لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه إلا على أم سليم، فقيل له: فقال: ارحمها، قتل أخوها معي.

ومنما ما أضافه ابن حجر إلى ذلك، وهو كون أنس خادم النبي ﷺ، وقد جرت العادة بمخالطة المخدم وأهل خادمه، ورفع الحشمة التي تقع بين الأجانب عنهم^(١).

ومنما ما ذكره ابن وهب وابن عبد البر من أن أم حرام إحدى خالات النبي ﷺ من الرضاعة.

قال النووي: (اتفق العلماء على أنها - أي أم حرام - كانت محرماً له ﷺ. واختلفوا في كيفية ذلك، فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة، وقال آخرون: بل كانت لأبيه أو لجدته، لأن عبد المطلب كانت أمه من بني النجار)^(٢).

قوله: (ثم ضحك) أي بعد أن نام استيقظ، ثم ضحك، كما في الروايات الأخرى. وكذا قوله: (ثم عاد فضحك) أي نام مرة ثانية ثم استيقظ

(١) فتح الباري ٧٨/١١. وقد نقل ابن حجر دعوى ابن العربي خصوصية هذا للنبي ﷺ، ونقل رد القاضي عياض بأن الخصوصية لا تثبت بالاحتمال، ومع هذا مال ابن حجر إلى دعوى الخصوصية.

(٢) شرح النووي على مسلم ٥٧/١٣، وفي ادعاء النووي الاتفاق بين العلماء نظر، انظر تحفة الأحوذى ٢٨٠/٥.

فضحك وهذا مصرح به في الروايات الأخرى، والرواية التي معنا اختصرت هذا.

قوله: (يركبون البحر الأخضر): الماء في الأصل لا لون له، ولكن البحر يأخذ لوناً تختلف درجته باختلاف المساحة والعمق. وقد أطلق الوصف نفسه على السماء، كما في حديث «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء...».

والمقصود أنهم يركبون البحر الكبير المتسع. وقد جاء في بعض الروايات: (يركبون ثَبَج هذا البحر) والثَبَج - بفتح المثناة والباء الموحدة ثم الجيم - ظَهَر الشيء أو وسطه، وفي رواية لمسلم: (يركبون ظهر البحر). قوله (الأسرة) جمع سرير.

(عبادة بن الصامت) هو الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، كان أحد النقباء في بيعة العقبة وشهد بدرًا والمشاهد كلها بعد بدر، كما شهد فتح مصر. مات سنة ٣٤هـ على أحد الأقوال^(١). وسياق الرواية هنا يفيد أنها لم تكن متزوجة وقت تبشيرها بأنها ستكون مع من يغزون في البحر، وأنها تزوجت عبادة بعد ذلك.

وجاء في بعض الروايات ما يفهم منه أنها كانت زوجة عبادة حين زارها النبي ﷺ ونام ورأى هذه الرؤيا. كرواية البخاري في (باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء) عن أنس (كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ... الحديث).

وقد رجح ابن حجر أنها تزوجت عبادة بعد هذه البشرية، وأن قوله في

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٢/٢٦٨.

هذه الرواية (وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت) جملة معترضة أراد الراوي وصفها به غير مقيد بحال من الأحوال.

قوله: (.. مع بنت قرظة) هي فاختة بنت قرظة - بفتح القاف والراء والطاء المعجمة - ابن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، القرشية النوفلية، زوج معاوية بن أبي سفيان.

وكان ركوبها البحر سنة ٢٨هـ في خلافة عثمان بن عفان، وكانت أول مرة يغزو المسلمون فيها راكبين البحر متجهين إلى جزيرة قبرص، وكان ذلك بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وكان أميراً لعثمان على الشام، وقد جاء في رواية البخاري في (باب فضل من يصرع في سبيل الله) ما يبين ذلك بقوله: (فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية).

قوله: (فلما قفلت) أي عادت من الغزو. وقد اختلفت الروايات في مكان استشهادها هل كان بساحل الشام، أم بساحل قبرص، ورجح ابن حجر^(١) أنه كان بساحل قبرص.

قوله: (فوقصت بها): أصل الوقص، كسر العنق، وفي رواية (فصُرعت).

بيان التمثيل في الحديث:

في الحديث تشبيه الغزاة حالة ركوبهم السفن واعتلائهم متونها، بالملوك حالة اعتلائهم سرير الملك.

ووجه الشبه هو العزة والثقة والسعة والاستمتاع.

وقد اختلف شراح الحديث في هذا التشبيه، هل هو إخبار عن حالهم

(١) فتح الباري ١١/٧٦.

في الآخرة وما ينالونه من ثواب، أم هو إخبار عما يؤول إليه أمرهم في الدنيا
عندما يغزون في البحر؟

قال ابن عبد البر: (أراد - والله أعلم - أنه رأى الغزاة في البحر من
أمتهم ملوكاً على الأسرة في الجنة، ورؤياه وحي، وقد قال الله تعالى: في
صفة أهل الجنة:

﴿عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ (١).

وقال:

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ﴾ (٢).

والأرائك السرر في الحجال.

وقال عياض: هذا محتمل، ويحتمل أيضاً أن يكون خبراً عن حالهم في
الغزو من سعة أحوالهم وقوام أمرهم وكثرة عددهم، فكأنهم الملوك على
الأسرة^(٣) وهذا الاحتمال الثاني هو الأرجح، وإن استبعده العلامة ابن حجر،
فإن التشبيه مسوق لبيان حالهم عند الغزو، لا لبيان ما يؤول إليه أمرهم في
الآخرة.

من معاني الحديث:

كم من معجزة جرت على يد سيدنا رسول الله ﷺ. وإخباره بهذا الغزو
البحري معجزة تضاف إلى معجزاته، ودلالة من دلائل نبوته.

لقد أخبر بما سيطراً على الحياة الإسلامية من تمكين الإسلام وانتشاره

(١) سورة الصافات: الآية ٤٤.

(٢) سورة يس: من الآية ٥٦.

(٣) فتح الباري ١١/٧٤.

حتى يجاوز البر إلى البحر^(١). أخبر بهذا وهو يضحك، سروراً بهذه النقلة التي تتيح للمسلمين أن تكون لهم صولة في البحر كصولتهم في البر، وإعجاباً بهذه الجرأة التي تجعل فئة من أمته تقتحم هذا البحر الذي لم تكن للعرب به خبرة، بل خافوه وهابوه وحذروا من ركوبه.

صحيح أن الله سبحانه قد امتن على عباده بنعمة البحر في جملة ما امتن به عليهم من نعمه التي لا تحصى، وعدّد وجوه الانتفاع بالبحر في كثير من آيات القرآن، منها إجراء السفن فيه، وأن من هذه السفن ما يكون من الضخامة كأنها الجبال، فقال تعالى:

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾^(٢).

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِي الْبَحْرِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾^(٣).

كما صور القرآن بدقة بالغة مشاعر راكبي السفن في حالتها هدوء البحر وهيجانه، فقال سبحانه عقب الآية السابقة من سورة لقمان:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

وقال سبحانه:

(١) وجاء الإخبار بالغزو البحري أيضاً فيما خرج ابن المبارك في رفاقته عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيول في سبيل الله» انظر تفسير القرطبي ١٨/١.

(٢) سورة الرحمن: من الآية ٢٤.

(٣) سورة لقمان: من الآية ٣١.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ الدِّينَ . . . ﴾ (١) الآية .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

وهذا الإخبار عن البحر والامتنان والتصوير للمشاعر يفيد أن العرب لم يكونوا بمعزل عن البحر تماماً وبخاصة من كان منهم يقيم بالساحل أو قريباً منه . غير أن الكثرة الغالبة من العرب لم يكن لها شأن بالبحر، وهي بدروب الصحراء أعرف بها من البحر، وهي للمفازات والفيافي والصبر على السير فيها أكثر اطمئناناً من البحر .

وهذا يفسر لنا كراهية بعض السلف لركوب البحر، وبخاصته إن تحمّل إمام منهم مسؤولية ركوب أعداد كبيرة من المجاهدين للسفن دون سابق تجربة (٢) .

لكن معاوية بن أبي سفيان كما أُلح على عمر في أن يأذن له في غزو البحر أُلح على عثمان بن عفان حتى استجاب له .

ولا شك أنها منقبة لكل من عثمان ومعاوية رضي الله عنهما، فعلى يديهما، تمّ هذا الحدث التاريخي في سنة ثمان وعشرين من الهجرة، وعلى يديهما بدأ تكوين الأسطول الإسلامي الذي صار فيما بعد قوة يخشى بأسها،

(١) سورة يونس: الآية ٢٤ .

(٢) قال الجصاص: (وقد كان عمر بن الخطاب منع الغزو في البحر إشفاقاً على المسلمين) انظر أحكام القرآن له، باب إباحة ركوب البحر في تفسيره آية رقم ١٦٤ من سورة البقرة وراجع فتح الباري ٦/٨٨ .

وعلى يديهما تم تصديق رؤيا رسول الله ﷺ .

إن القوة البحرية لها أهميتها البالغة في جانبي الدفاع والهجوم، وقد وَجَّه القرآن الأنظار والأفكار إلى استخدامه والانتفاع به، وبشَّر النبي الأمي ﷺ بأن سيكون للمسلمين قوة بحرية. وقد تسابق المسلمون إلى الغزو في البحر تسابقهم إلى الغزو في البر، فإن الذي يحرص على الشهادة ويبيع نفسه لله يستوى عنده البر والبحر، وقد سبق أن قال قائلهم للرسول ﷺ معبراً عن إيمانهم وطاعتهم واستعدادهم للتضحية: (فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد)^(١).

ومما يدل على تسابقهم إلى الجهاد في البحر أن المجاهدين في أول غزوة بحرية كانوا متطوعين، ذلك أن الخليفة عثمان رضي الله عنه اشترط على معاوية قائلاً له: (لا تنتخب أحداً، بل من اختار الغزو فيه طائعاً فأعنه)^(٢).

بل أدل من ذلك على المبادرة إلى اقتحام البحر جهاداً في سبيل الله ما جاء في هذا الحديث الذي بين يدينا من تَشَوُّف أم حَرَام لأن تكون منهم. وهو مما يدل على سريان روح الجهاد آنذاك عند الرجال والنساء على السواء.

والمرأة وإن لم يجب عليها الجهاد - لها أن تتطوع به - وقد روى

(١) القائل هو سعد بن عبادة في المسير إلى غزوة بدر. انظر سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٣/٣٣ - ٣٤.

(٢) فتح الباري ١١/٧٥ نقلاً عن الطبري.

البخاري أن عائشة بنت أبي بكر وأمّ سُلَيْمٍ كانتا تنقلان القرب على ظهورهما يوم أحد وتُفَرِّغان الماء في أفواه القوم (١).

وروى البخاري أيضاً عن الرُّبَيْعِ بنتِ مُعَوِّذٍ قال: (كنا مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة) (٢).

وروى مسلم عن أنس أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين، ولما سُئِلَتْ عنه قالت: (اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بَقَرْتُ به بطنه) (٣).

والذي يستفاد من هذه النصوص وغيرها أن المرأة لا تخرج للغزو إلا مع زوج أو ذي رحم مَحْرَمٍ منها، وأنه لا يجوز لها أن تتطوع منفردة وبخاصة إن تطلّب ذلك منها سَفْراً، لما ورد من النهي عن ذلك ولما يترتب عليه من المفاسد المفضية إلى أن يكون ضرر خروجها حينئذٍ أكبر من نفعه.

إن سرور النبي ﷺ بما رآه من هؤلاء النفر من أمته الذين يغزون البحر، يدل دلالة واضحة على أن القوة البحرية - وإن لم توجد في عصر النبوة - مطلوبة شرعاً متى وجدت دواعيها وتوفرت إمكاناتها، وأن القوة الجوية مطلوبة كذلك قياساً عليها، وكل سلاح مستحدث مطلوب شرعاً من المسلمين تحصيله للدفاع عن أنفسهم وكف عدوهم عن استخدامه ضدهم متى علم أنهم قادرون على معاملته بالمثل. ولو لم يكن إلا هذه الآية الفأدة الجامعة:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (٤)،

(١) باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال من كتاب الجهاد.

(٢) باب مداوة النساء الجرحى في الغزو.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٨٨ باب غزوة النساء مع الرجال من كتاب الجهاد والسير.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

لكانت كافية في وجوب تحصيل أي قوة تستحدث، ووجوب تحصيل العلم المؤدي إلى تحقيقها، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر كانت سفنهم تجوب البحار عزيزة المنال مرهوبة الجانب، حتى كان البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، ثم انحسرت قوتهم البحرية، كما ضعفت قوتهم البرية، وما ذلك إلا لانحسار الإيمان في نفوسهم وهو مصدر كل قوة.

واليوم تَمُخَّرَسُنْ أهل الكفر عباب البحار في كل أرجاء العالم، مختالة بقوتها مَزْهُوَّةٌ بمعداتنا، متربصة بالمسلمين مهددة إياهم. والمسلمون ضعفاء مستكينون. فمتى يدركون أن القوة والعزة والمنعة لا تحقق إلا بتحقيق الإيمان في نفوسهم والعمل بشريعة الله في حياتهم؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١).

لو عاد المسلمون إلى ربهم واعتصموا به وطبقوا شرعه وتوكلوا عليه حق التوكل - فإن قوى الأرض جميعاً لن ترهبهم ولن تضربهم، كما قال تعالى:

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضَّرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (٢).

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَشَوْهُمْ فزَادَهُمُ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٣).

**

(١) سورة الرعد: من الآية ١١.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١٧٣.

كَلِمَاتٌ مِنْ نُورٍ

٣٣ — عن الحارث الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات، أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها. وإنه كاد أن يبطيء بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فيما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخَسَفَ بي أو أُعَذَّبَ. فجمع الناس في بيت المقدس، فامتأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن:

أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليّ. فكان يعمل ويؤدي إلى غيره سيده، فأيكم يرضى أن عبده كذلك.

وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثّل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم.

وَأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثّل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال النبي ﷺ: وأنا أمركم بخمسٍ لله أمرني بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم» فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلي وصام. قال: «وإن صلي وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»^(١).

المفردات:

الشُّرف، بضم الشين وفتح الراء: جمع شرفة، بضم فسكون.
العصابة: الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين، لا واحد لها من لفظها.

أحرز نفسه: أي حفظ نفسه وصانها عن الأخذ بدخوله إلى الحصن.

(١) رواه الترمذي في أبواب الأمثال من جامعه (٣٠٢/١٠ - ٣٠٨ بشرح ابن العربي)، وهو الحديث الخامس منها، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقد رواه بطريقتين. أولهما: (حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، أن أبا سلام حدثه بأن الحارث الأشعري حدثه...) والثاني (حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير...) به. وقد رواه أحمد في المسند (٢٠٢/٤)، وذكره ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين، وشرحه في كتابه (الوابل الصيب من الكلم الطيب).

قيد شبر: بكسر القاف وفتح الدال، أي قدر شبر، والمراد من فارق الجماعة ولو بقدر قليل.

ربقة الإسلام: ربقة - بكسر فسكون مثل كِسرة - وتجمع على ربق - بكسر ثم فتح مثل كَسر. والربقة في الأصل عُروة في جبل تجعل في عنق الدابة أو يدها تمسكها. فاستعيرت للإسلام. يعني ما يشد به المسلم نفسه من عُرى الإسلام، أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه.

جنا جهنم: أي جماعة جهنم. والجنا جمع جشوه - بضم الجيم وكسرهما - وهي الشيء المجموع.

بيان التمثيل:

في الحديث عدد من الأمثال:

في المثل الأول: تشبيه المشرك بالله في توجهه بالعبادة إلى غير خالقه - بعد يعمل لغير مالكة. ووجه الشبه: أداء العمل لغير صاحبه الذي يستحقه، وإنكار العقول السليمة لهذا.

وفي المثل الثاني: تشبيه رائحة فم الصائم برائحة المسك. ووجه الشبه طيب الرائحة في كل منهما.

وفي المثل الثالث: تشبيه المتصدق في تكفير الصدقة خطاياها وحماتها إياه من النار - بالأسير الذي افتدى نفسه واشترى حياته. ووجه الشبه: إنقاذ النفس بدفع المال في كل منهما.

وفي المثل الرابع: تشبه ذكر الله في تحصينه النفس من الشيطان - بحصن حصين احتمى به خائف من عدوه. ووجه الشبه: الأمن والسلامة عند الالتجاء إلى كل منهما.

من معاني الحديث :

الغاية من خلق الجن والإنس هي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وإنه لأمر يدعو إلى الإنكار والعجب أن يكون الناس عبيداً لله، وبدلاً من أن يتوجهوا بالعبادة إلى مالكمهم، يعبدون غيره ممن يتساوى معهم في الخلق والعبودية.

خيانة عظمى أن يعمل المواطن جاسوساً لمصلحة دولة أخرى. إنه انحراف خطير يستحق عليه الموت. وخيانة أن يعمل الموظف لمصلحة غير مَنْ يعطيه أجره. إنه تصرف يثير الاشمئزاز والغضب ويستدعي العقوبة. أليس هذا عملاً مذموماً في عرف الناس؟ فلم يجعلون الله ما يكرهون؟ إن أحدهم يستنكر أن يعمل عبده أو خادمه لغيره ولا يعمل له، في حين أنه هو الذي يؤويه ويحميه ويطعمه ويكسوه ويدفع له ويدفع عنه، ويحق له الإنكار وتأييده العقول السليمة فيه. فلم يرضى أحدهم أن يتوجه بالعبادة أو بالعمل لغير الله، الذي خلقه خلقاً من بعد خلق حتى جعله بشراً سويّاً، وهياً له أسباب الرزق، وسخر له ما في السموات وما في الأرض؟ إن هذا الشرك ظلم عظيم، وعمل يدعو إلى الإنكار والمقت والعقوبة، وجريمة لا تغتفر؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١).

ومع هذا، فلورجع العبد الأبق إلى مولاه، وكفر بالطاغوت وآمن بالله، فالله يقبل توبته، ويغفر له ما سلف منه. فإنه الغفور الرحيم، فقله: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، يَجِبُ ما سبق من شركه، ويؤهله لدخول الجنة، فالجنة لا يدخلها إلا أهل التوحيد، أعدّها رب العباد ومالكهم لعباده الذين عرفوه وعبدوه ولم يشركوا به شيئاً.

(١) سورة النساء، آية ٤٨ وآية ١١٦.

فالتوحيد هو مفتاح الجنة، غير أن هذا المفتاح له أسنان تسهل فتح باب الجنة من الطاعات المختلفة: كالصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمانة وبر الوالدين وغير ذلك، وقد ذكر منها في هذا الحديث الصلاة والصيام، والصدقة وذكر الله .

وقد سبق أن تكلمنا عن الصلاة وأهميتها وأثرها. والحديث هنا يركز على أدب من آدابها، بل عن سرها وجوهرها، وهو الإقبال على الله سبحانه وتعالى، وعدم الالتفات عنه، سواء الالتفات بالقلب بانشغاله بهوم الدنيا في الصلاة أو الالتفات بالبصر، وكلاهما لا يليق في مقام المثل بين يدي الله عز وجل، وليس للمصلي من صلاته إلا ما عقل منها، وإذا أقبل على الله أقبل الله عليه بقبوله ورضاه ورحمته وتوفيقه .

أما الصيام، فهو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وقد فرض الله صيام رمضان، وهو أحد أركان الإسلام، جعله الله موسماً يحتفل فيه بذكرى نزول القرآن:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (١) .

وفي الصيام يمتنع المسلم عن المباح، ترويضاً لنفسه على طاعة الله سبحانه وتعالى، فإنه إذا امتنع عن المباح امتثالاً لأمر الله، كان أكثر استعداداً للامتناع عن تناول ما حرم الله، بل يتعود على أن يجعل بينه وبين الحرام سترة من الحلال، وهي مرتبة الورع .

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٥ .

وإمساك الصائم عن المفطرات أمر لا يطلع عليه إلا الله، فإخلاص العمل يتوفر في الصوم أكثر مما يكون في غيره، ولهذا اختص بنسبته إلى الله، وقد وعد الله عليه جزيل الثواب، لكن هذا الثواب مخصوص بمن يقوم بحق الصوم، فيمسك لسانه عن الكذب والغش والغيبة في سائر أوقاته، كما يمسك عن شهوتي البطن والفرج، وتمسك جوارحه عن المحرمات، مثل هذا الصائم أمسك ضرره عن الناس وأوصل إليهم نفعه. هذا الصائم الذي لا يخرج من فمه إلا الطيب من الكلم رائحة فمه التي يخلفها الصيام أطيب عند الله من رائحة المسك، لأنها رائحة تدل على ما وراءها من إمساك الضرر، وإيصال النفع، وامتنال الأمر، وإخلاص العمل لله: قال رسول الله ﷺ: «الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، مرتين، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها»^(١).

وتتابع الأمثال التي احتواها هذا الحديث، فنأتي إلى الصدقة، وقد مثلت في الحديث بفدية افتدى بها أسير نفسه من عدوه. وهذا المعنى جاء صريحاً في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمر»^(٢). وقد سبق الكلام عن الصدقة في مثل البخيل والمتصدق، والتركيز هنا على أن الصدقة الخالصة – ولا يقبل الله إلا طيباً خالصاً لوجهه – وسيلة النجاة من النار، وقد قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(١) صحيح البخاري ٣/٣١ ط. الشعب.

(٢) صحيح البخاري ٢/١٣٦ ط. الشعب.

وإلى هذا المعنى أيضاً يشير الحديث الصحيح الذي ذكر أن النبي ﷺ خرج يوم عيد إلى النساء فوعظهن وقال: «يا معشر النساء تصدقن ولو من حُلَيْكِنَّ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فهو يرغبهن ويدلُّهن على ما يفدين به أنفسهن من النار وهو الصدقة.

أما ذكر الله تعالى فهو موضوع الحديث التالي.. فنرجى الكلام فيه إلى أن ننتهي من هذا الحديث.

وهذه الأمثال التي حكاها النبي ﷺ عن يحيى عليه السلام، موجهة إلى المسلمين وليست مقصورة على بني إسرائيل؛ لأنها أمثال توضيحية لعقائد وعبادات رئيسية مشتركة في جميع الأديان السماوية: فالتوحيد دين الأنبياء جميعاً، كما سبق، والله تعالى يقول:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

وكذلك الصلاة والصيام والزكاة وذكر الله، فالمسلمون مطالبون بها كما طوب بها من قبلهم.

فقوله ﷺ بعد حكايته الأمثال عن يحيى: «وأنا أمركم بخمس» أي بالإضافة إلى ما أمرتم به من قبل، أمركم بخمس كلمات، هي: (السمع) أي الفهم والتدبر والرضا والقبول، وليس مجرد إدراك الحس، وقد جاء في القرآن:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٢).

والسمع المصحوب بالتدبر والقبول والرضا ينتج (الطاعة) وهي امتثال

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢١.

الأمر، واجتناب النهي . والمقصود طاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين فيما ليس معصية لأنه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١). واقتراف المعاصي ينافي الطاعة، ولا فرق بين الصغير والكبير من الخطايا. و(السمع والطاعة) من جوامع كلمه ﷺ، فإنهما يستوعبان جميع عقائد الإسلام وأحكامه، وإن كان أكثر ما يستعملان في طاعة الأمة ولي أمرها.

والكلمة الثالثة التي أمرنا بها هي (الجهاد) ومعناها بذل الجهد في مقاومة هوى النفس الأمارة بالسوء، ومقاومة الشيطان وحزبه من أعداء الله، وبهذا الجهاد يُمكن لكلمة الله في الأرض:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢).

والأمر بالجهاد أمر دائم ملازم للسمع والطاعة، ولا يزال المسلمون بخير ما أقاموا هذه الشعيرة، فإن تركوها وأخذوا بأذنان البقر وركنوا إلى الدنيا واطمأنوا إليها أبدلهم الله بعزهم ذلاً، وبغناهم فقراً، وسلط عليهم من لا يرحمهم حتى يرجعوا إلى دينهم ويأخذوا بأسباب قوتهم - وقد تناولنا بعض معاني الجهاد في الحديث السابق.

أما (الهجرة) فهي الكلمة الرابعة التي أمرنا بها. وهي في الأصل اسم

(١) رواه أحمد والحاكم عن عمران بن حصين، ورواه أبو داود والنسائي عن عليّ بلفظ: «لا طاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»، ورواه أحمد عن أنس بلفظ: «لا طاعة لمن لم يطع الله» (كشف الخفاء ٥٠٩/٢ - ٥١٠).

وفي صحيح البخاري ٦٠/٤ «السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

(٢) سورة الحج: الآية ٤٠.

من الهجر ضد الوصل. يقال: هجره هَجْرًا وَهَجْرَانًا، ثم غلب على الخروج من أرض الوطن إلى أرض أخرى، وترك الأولى للثانية.

وإذا تعرض المسلم للفتنة والتضييق عليه في دينه، وأمكنه الخروج إلى مكان يأمن فيه على نفسه ودينه وجب عليه أن يهاجر إلى حيث يجد الأمن، ويتأكد الوجوب إن كان في المكان الذي يهاجر إليه جماعة مسلمة تطبق أحكام الإسلام وتقيم شعائره، فإن انضمامه إليها أمن له وتقوية لها.

وقد كانت الهجرة قبل الفتح وإلى المدينة واجبة على كل مسلم وبخاصة إن كان من مكة، فكان الرجل يأتي النبي ﷺ، ويترك أهله وماله، وينقطع للإقامة بالمدينة، وكان النبي ﷺ يكره لأحدهم أن يموت بالأرض التي هاجر منها، فضلاً عن أن يرجع ليقيم فيها فقد كان هذا حراماً. ولما كان المسلمون يذهبون إلى مكة لأداء شعائر الحج، كان النبي ﷺ يمنعهم أن تزيد إقامتهم فيها على ثلاثة أيام بعد انتهاء المشاعر، وقد جاء في البخاري عن رسول الله ﷺ: «ثلاث للمهاجر بعد الصدر» أي بعد الرجوع من منى، كما جاء فيه قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة، يرثي له رسول الله ﷺ أن توفي بمكة»^(١).

وقد مدح الله المهاجرين فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢).

فلما فتحت مكة صارت دار إسلام وانقطع وجوب الهجرة إلى المدينة،

(١) البخاري ٨٧/٥ ط. الشعب.

(٢) سورة الحشر: الآية ٨.

وهو معنى ما جاء في الحديث «لا هجرة بعد الفتح» أي لا هجرة إلى المدينة، لكن لو تكررت فيما بعد الظروف التي أوجبت الهجرة من قبل – وجبت الهجرة نصرة لله وفراراً بدينه من الفتن .

والكلمة الخامسة: هي الجماعة، أي لزومها وعدم الخروج عليها، فالتجمع قوة، والتفرق ضعف، يؤدي إليه التنازع والخروج على الجماعة. والمراد بالجماعة جماعة المسلمين، فلا يخرج أحد على هذه الجماعة ما دامت قائمة بأحكام الإسلام مظهرة شعائره، فإن الخروج عليها والحالة هذه ليست من مصلحة الإسلام في شيء، حتى ولو زعم الخارجون أنهم ينكرون بعض الأمور ويريدون أن يغيروها، فإن المصرة المترتبة على الخروج على الجماعة المسلمة حينئذ أعظم من المصلحة المتوقعة جلبها ولا يسمح بالخروج على الجماعة إلا إذا خرجت الجماعة عن إطار الإسلام، وكان فيما بايع النبي ﷺ عليه أصحابه: «وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»^(١).

إن الإسلام التزام، ولا يكفي في المسلم أن يعلن بلسانه كلمة الإسلام ثم يخلع عن نفسه كل الالتزامات التي يقتضيها إسلامه، فهذا سلوك المنافقين. أما المسلم فهو يخضع نفسه لتعاليم الإسلام، ويتصرف في سلوكه على وفقها، ويرفع شعار الإسلام فوق كل شعار، ومصلحة الإسلام فوق كل اعتبار. عصبية للإسلام فقط. وكل عصبية لغير الإسلام فهي دعوة جاهلية، سواء كانت عصبية قبلية، أو عصبية قومية، أو عصبية فكرية. وكل عصبية لغير الإسلام تورث النار، لأن التعصب يعني الانحياز لما يتعصب له الإنسان، والدفاع عنه والهجوم على غيره، وهكذا قد نجد من ينتسب للإسلام يهاجم

(١) البخاري، كتاب الفتن ٥٩/٩ - ٦٠.

مسلماً أو يقاتله أو يهاجم الفكر الإسلامي وينتصر لغيره؛ ألا يؤدي به هذا إلى أن يكون من أهل النار حتى ولو اتخذ سميت المسلمين وتعبد بعباداتهم؟.

ألا ترى ما يعانيه العالم الإسلامي الآن من تفكك وضعف وتنازع وتنافر، إنها العصبية لغير الإسلام هي التي شتت شمله، ودفعت به إلى هذا الوضع المحزن، ولو أن هذا العالم الإسلامي ألتقى حول الحنيفية السمحة، ونادى بدعوة الله، ووضع شعار الإسلام فوق كل شعار، ومصلحته فوق كل اعتبار - لتوحدت كلمته، وتراصت صفوفه، واسترد قوته، وأخذ مكانه في قيادة العالم إلى طريق الخير والرفاهية.

عودوا إلى إسلامكم أيها المسلمون يحقق الله ما وعدكم به من عزة وتمكين في الأرض:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلِيلَةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿١﴾ (١).

**

(١) آخر سورة الحج.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

٣٤ - عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحيِّ والميت»^(١) متفق عليه.

* * *

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه الذاكر ربه بالحي، والغافل بالميت.

أي تشبيه القلوب في جلائها بالذكر وتَبُّهها إلى حقائق الكون وقيامها بأمر الله - بالحيِّ الذي سَرَتْ الحياة في أوصاله، والنضرة في أعطافه، والحركة في أطرافه.

وتشبيه القلوب الغافلة عن ذكر الله وما تراكم عليها من رانٍ وصدأ حتى انطمست معالم الحق فيها - بالميت في عدم انتفاعه أو الانتفاع به.

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب الدعوات باب ذكر الله ٨١/٤ بحاشية السندي و١٠٧/٨ ط. الشعب. وأخرجه مسلم في باب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد. ولفظه: «مثل البيت الذي يذكر الله تعالى فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت». وانظر زاد المسلم ٣٨٢/٢ - ٣٨٥. ومسلم بشرح النووي ٦٨/٦. ويؤخذ من رواية مسلم أن شأن صلاة الفرض أن تؤدي في جماعة، فلواقترن على صلاة الفرض التي من شأنها أن تصلى في المسجد، لخلت البيوت من الصلاة. وقد أهمل كثير من المصلين في عصرنا المساجد، واكتفوا بأداء الفرائض في بيوتهم مخالفين السنة في ذلك.

من معاني الحديث :

في هذا الحديث اعتبر الذكر حياة - وفي الحديث السابق اعتبر الذكر حصناً يحمي الإنسان من غوائل الهوى ونزعات الشياطين، ويشعره بالأمن والسكينة والاطمئنان :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١).

والذكر حياة، به يستفيد الإنسان من حواسه ووجوده في هذا الكون، فيرى في كل شيء آية تدل على الخالق الواحد، وينسجم مع الكون كله في التسبيح بحمد ربه في كل لحظة: حين يصبح وحين يمسي وحين يُظهر (أي حين يدخل وقت الظهر)، ويذكره في كل أحواله: في صحته ومرضه، وفي غناه وفقره، وفي فرحه وحزنه، وفي عمله وراحته، وفي أداء الفرائض والنوافل وبعد فراغه منها.

لا يعيش الإنسان في فراغ، والقلب مشغول بأمر ولا بد. إن لم يكن بذكر الله فبذكر الشيطان: إنه كالإناء المعرض للهواء، تحسبه فارغاً وهو ممتلئ بالهواء، فإذا ملأته بسائل كالماء مثلاً حل السائل محل الهواء، وبقدر ما توضع من السائل بقدر ما يذهب من الهواء. فالقلب المشغول بالذكر، المستغرق وقته في الطاعة، المراقب ربه في كل وقت وعلى كل حال - هذا القلب الذاكر الحي لا حظ للشيطان فيه، وهو في مأمن منه، لقد قال الله عز وجل للشيطان:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٢).

وهؤلاء هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٤٢.

أما القلب الغافل عن ذكر الله فهو مشغول بالشیطان، ويكون حظ الشیطان منه بقدر غفلته ونسيانه ذكر ربه، حتى إذا وصل إلى حد الإعراض والكفر، ضل وشقي، وصار هذا القلب بيتاً للشیطان يبيض فيه ويفرخ:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (١).

القلب لا يعيش في فراغ: إما ذكر وإما غفلة. فإن ذكر ذكره الله، وإن غفل ونسي نسيه الله وذكره الشیطان، الذي يتحين الفرص ليجلب عليه بخيله وورجله وينقض عليه بعد أن خرج من حصنه ووضع سلاحه. لكنه بالذكر يأوي إلى حصن حصين، ويلجأ إلى رب العالمين، فيذكره القوي المتين ويحفظه من الشياطين، ويتولاه ويرعاه، ويوفقه وينصره: هكذا شأن الله مع عباده: إن نصره نصرهم، وإن ذكروه ذكرهم، وإن نسوه نساهم وأنساهم أنفسهم:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (٢).

من أجل هذا كان الذكر أعظم العبادات، بل ما شرعت العبادات إلا للذكر: ففي الصلاة ذكر، والله تعالى يقول:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٣).

قيل: معناها: أنتم تذكرون الله في الصلاة، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وهذا التفسير مروى عن ابن عباس وسلمان وابن مسعود رضي الله عنهم.

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

فكان الصلاة إنما شرعت ليتعود القلب على ذكر الله في أوقات منتظمة متكررة فترتاض نفسه على الذكر الدائم، ولهذا لم يسمح لعذر ما أن يسقط الصلاة، فقد يترخص في هيئة الصلاة وأركانها من أجل العذر، لكن لا يسمح بإسقاطها مهما كانت الأسباب، فإذا زال العذر ذكر الله في الصلاة كما ينبغي بالمحافظة على أركانها وشروطها: يقول الله تبارك وتعالى في بيان هذا:

﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ (١).

وفي الحج تكرر الأمر بذكر الله في أكثر من آية:

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سِكِّكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (٢).

ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار - لإقامة ذكر الله تعالى» رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.

فشعائر الإسلام كلها وسيلة من وسائل ذكر الله، وذكر الله أوسع وأشمل منها؛ لأنه يستوعب الحياة كلها، وقد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ: يذكر الله على كل أحيانه» رواه مسلم.

ومن أجل هذا أمر الله المؤمنين بكثرة الذكر:

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٩٨ - ٢٠٠.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (١).

ووصفوا به ووعدوا عليه المغفرة والأجر العظيم:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (٢).

وَمَدَحِ رِجَالًا - وَشَأْنِ الرِّجَالِ الْاِسْتِغَالِ بِالرِّزْقِ وَطَلْبِ الْكَسْبِ - بِأَنَّهُمْ لَا يَغْفُلُونَ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ:

﴿رِجَالٌ لَا نُلَيْهِمْ تَحَرُّعٌ وَلَا يُبِيعُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (٣).

ثم أمروا بذلك أمراً صريحاً في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا نُلَيْهِمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٤).

وهو أمر عام للمؤمنين والمؤمنات بالأداء يشغلهم شيء عن ذكر الله، ولو كان أعز ما في الدنيا وأعلى ما يحرص عليه من زينتها، وهو المال والبنون. وأظنه أصبح واضحاً أن ذكر الله يعني أداء عبادة، وامتنال أمر، واجتناب نهى، وعمل خيرات، وتسبيحاً وتهليلاً وتحميداً وتكبيراً باللسان وبالقلب وبالعمل، كما يعني استغفاراً من ذنب، وتوبة من إثم، وشكراً على نعمة، ومراقبة لله عز وجل في كل الأمور.

وكل مجلس يترفع أهله عن استعمال ألسنتهم في السوء؛ لتكون أداة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

(٣) سورة النور: الآية ٣٧.

(٤) سورة المنافقون: الآية ٩.

لِتَدْبُرَ آيَاتِ اللَّهِ وَالتَّحَدَّثُ بِنِعْمِهِ، ومدارسة كتابه، والتسبيح بحمده - كل مجلس يكون هذا أو بعضه من شأنه فهو مجلس ذكر، تَحْفُفُ أصحابه الملائكة وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة الأعلى: وقد جاء في الحديث الصحيح «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: وكيف لورأوني؟ قال: يقولون: لورأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يارب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة. قال: فمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لورأوها؟ قال: يقولون: لورأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة. قال فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»^(١).

وأظنه أصبح واضحاً كذلك أن هؤلاء الجلساء الذين لا يشقى بهم جليسهم ليسوا من هؤلاء الذين يتمايلون على أصوات الدفوف والصاجات، ويرقصون على أصوات المنشدين والمغنين، ويزعمون أنهم يذكرون،

(١) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري في كتاب الدعوات ١٠٧/٨ - ١٠٨.

ويسمون مجلس اللهو هذا مجلس ذكر. لا؛ ليس هؤلاء من الذاكرين، بل هم:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (١).

والله تبارك وتعالى لا يذكر بالمعصية، وليس العبث واللهو من شأن الذاكرين، لكنه من شأن الغافلين الناسين.

شأن الذاكر أن يكون خاشعاً لله، متدبراً آياته، تغشاه السكينة ويكسوه الوقار:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٢).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (٣).

فهذا شأن الذاكر: قراءته القرآن ذكر، وتدبره آيات الله في السماء والأرض ذكر، لا ينسى الله في جميع أحواله، وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نذكر الله في جميع أحوالنا: في السفر والعودة، وعند الطعام والشراب، وعند الزواج والوليمة، وعند النوم، وحين الاستيقاظ منه، وعند دخول الخلاء لقضاء الحاجة، وعند الخروج منه، بل حتى قبيل الاتصال الجنسي بالزوجة. وقد جمع العلماء هذه الأذكار واعتنوا بها. وقد ذكر ابن قيم الجوزية تسعاً وسبعين فائدة للذكر، ثم أعقبها بفصل في الأذكار المختلفة في جميع الأحوال والأوقات والمظاهر الطبيعية. في كتابه (الوابل الصيب من الكلم الطيب).

نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ذكره وشكره وحسن عبادته.

**

(١) سورة الأعراف: الآية ٥١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٣) سورة الحديد: الآية ١٦.

﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾

٣٥ - عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت المستورد أخا بني فهر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة في اليم، فليُنظر بِم يرجع»^(١).

* * *

بيان التمثيل:

في الحديث تشبيه نسبة الدنيا إلى الآخرة، بنسبة القطرة إلى البحر. ووجه الشبه: نسبة المحدود إلى ما لا حدود له، سواء في الزمان، أو المكان، أو فيما يشتمل عليه كل منهما.

من معاني الحديث:

قُدِّرَ لآدم وذريته أن يكونوا خلفاء في الأرض، لكنهم لم يسكنوها

(١) هذا اللفظ نص رواية ابن ماجه في سننه ١٣٧٦/٢ وقد رواه مسلم (١٧/١٩٢) بشرح النووي)، بلفظ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه - وأشار يحيى بن سعيد بالسبابة - في اليم، فليُنظر بِم يرجع»، وقد أخرجه الترمذي والنسائي كذلك، وانظر جامع الأصول ٥/٢٧٥. وقد أشار إليه البخاري في كتاب الرقاق عندما قال: (باب مثل الدنيا في الآخرة) ولم يخرج لأنه لم يخرج للمستورد وإن كان سند الحديث إلى التابعي على شرطه، نص عليه ابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٣٢)، ط. السلفية.

بمفردهم ، ولم يهبطوا إليها وحدهم ، بل نزل معهم عدو لهم هو إبليس الذي أقسم على أن يغويهم أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين ، فبدأ الصراع ، وتحقق الابتلاء ، الذي على أساسه يتحدد مصير كل إنسان في دار الجزاء :

﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة

الأعراف : الآية ٢٤].

فاستقرار الإنسان في الأرض وانتفاعه بما فيها مؤقت بأجل ينتهي فيه ، عمره فيها قصير ، ومتاعه فيها قليل . فليس الخلود من شأن هذه الحياة الدنيا ، وإنما هو من شأن حياة أخرى لا تنتهي آمادها ، ولا يفرغ متاعها ، ولا تُكدر لذاتها . إنها الحياة التي ينبغي أن يكرس الإنسان جهده لها ، ويوجه همته إليها ، ويتنافس في الحصول على مكانة ممتازة فيها ، إثارةً منه ما يبقى على ما يفنى ، وسعيًا منه وراء الحياة الحقيقية ، فإن ما يبقى هو الجدير بوصف الحياة ، أما ما يفنى فحياته أشبه بالأوهام والسراب ، أو باللغو واللعب :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ لَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : الآية ٦٤].

الاستقرار في الأرض محدود ، والانتفاع فيها إلى حين . وقد جاء وصف الدنيا بأنها (متاع) في مقابلة وصف الآخرة بأنها (قرار) ، في قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون :

﴿ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [سورة غافر : الآية ٢٩].

وتشير هذه المقابلة إلى سرعة زوال المتاع وقلته بالنسبة لما في الآخرة .

كما جاء هذا في قوله تعالى في [سورة الرعد : الآية ٢٦] :

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴾ .

وقد جاء التصريح بقلة متاع الدنيا بالنسبة لما في الآخرة في قوله تعالى :

﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٨].

ومتاع الحياة الدنيا هو الانتفاع بما فيها مما يشبع حاجات الإنسان وغرائزه وشهوته، وهذا الانتفاع مشروع مرغوب، لأن الله جعل الأرض مستقراً للإنسان ومتاعاً، وزينها له :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١).

وأباح له هذه الزينة ولم يحرمها عليه :

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٢].

وما دام الانتفاع بما في الحياة الدنيا وزينتها مشروعاً، وما دام قضاء حاجات الإنسان وغرائزه أمراً ضرورياً - فلا لوم على الإنسان إن انتفع وقضى حاجاته باقتصاد، ومن الطرق المشروعة، فإن الميل إلى هذا الانتفاع وقضاء الحاجات أمر فطري مركوز في الطباع، قال علي بن أبي طالب: (نحن أبناء الدنيا، ولا يلام الرجل على حب أمه) (٢).

لا لوم على الإنسان في هذا الانتفاع وفي قضاء هذه الحاجات؛ لأنها وسيلته الضرورية في سعيه من أجل الوصول إلى المثل الأعلى، وفي سعيه في الوصول إلى الدرجة التي يطمح إليها في الآخرة.

لا يلام الإنسان على الانتفاع وقضاء الحاجات طالما كانا في إطار

(١) سورة الكهف: الآية ٧.

(٢) مجمع الأمثال للميداني، الباب الأخير.

الوسائل، ولم يُتَّخَذَ هدفاً في أنفسهما، ولم يُعتبراً غايةً لحياة الإنسان على هذه الأرض. لكن اللوم يتوجه إليه إن عاش لهما واعتبرهما غايةً لحياته؛ لأن هذا شأن الحيوان، وانحراف عما خلق له الإنسان الذي جاء إلى هذه الحياة بأشواق تدفعه إلى معرفة ربه وعبادته، والتطلع إلى دار لا ظلم فيها، ولا فناء لها، ولا نهاية لسعادتها.

يلام الإنسان إن جعل منتهى أمله أن يحصل على مطالبه المادية، فيجعل من هواه إلهاً يدين له بالولاء والطاعة، ويسعى في تحقيق مطالبه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وينسى نفسه وربه وآخرته، ويغره البريق الخاطف، وتشغله الزينة عن الجوهر، ولا يدرك أن نضرة النبات تصير إلى جفاف ثم إلى حطام، وأن نشاط الشباب يتحول إلى ضعف الشيخوخة، ثم إلى ركود الموت، وأن الذي يجعل الأرض تموج بالنضرة والحيوية مرة أخرى سيحييه بعد موته كذلك، ثم يحاسبه على ما قدم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

لهذا يُذَكَّرُ اللهُ الناسَ بِقَصْرِ هذه الحياة الدنيا وفنائها، وبأنها لعب ولهو وزينة، حتى لا يغتر أحد بها، ولا يستغرق عمره في الاستمتاع بزينتها، وينسى المهمة الأساسية التي خلق من أجلها.

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة فأفئيتَها هل أنت إلا كحالم

وقد روي أن سليمان بن عبد الملك نظر في المرأة فأعجب بشبابه فقال: أنا الملك الشاب. فقالت له جاريتها:

أنت نِعَمَ المتاع لو كنتَ تَبَقَى غير أن لا بقاء للإنسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب كان في الناس غير أنك فاني (١)

* * *

ومن هنا ندرك أن وصف الدنيا بأنها لهو ولعب وزينة ومتاع قليل، وغير ذلك - إنما هو تقرير للواقع وبيان للحقيقة: فإن اشتغل الإنسان بدنياه فقط، توجه اللوم والذم إليه وإلى دنياه هذه، وإن اتخذها وسيلة لمعرفة ربه ورجاء ما يبقى عند الله في الدار الآخرة فنعم هذا الإنسان ونعمت دنياه. وصدق الله العظيم:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [سورة الشورى: آية ٢٠].

وقد ذمَّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال علي: (الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها) (٢).

وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء المنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع (٣).

فالواجب على الإنسان أن يدرك حقيقة الدنيا، وسر وجوده فيها، فيتزود منها لما بعدها، ويعتبرها استراحة قصيرة على طريق سفر طويل، كما جاء في الحديث: «إنما أنا والدنيا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (٤).

(١) تفسير القرطبي ٤١٤/٦.

(٢) المصدر السابق ٤١٤/٦٠.

(٣) إحياء علوم الدين ص ١٧١٤.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، عن ابن مسعود، وكذلك الحاكم وقال: على =

إنه مسافر، ومن شأن المسافر أن يتزود ولا يستقر حتى يبلغ غايته، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(١).

وقد ضرب الغزالي مثلاً للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيمها وغفلتهم عن الآخرة وما يترتب على ذلك من خسران فقال:

اعلم أن مثل أهل الدنيا في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهوا إلى جزيرة معشبة فخرجوا لقضاء الحاجة، وحذرهم الملاح من التأخر، وأمرهم أن يقيموا بقدر قضاء حاجتهم، وإلا فانتهم السفينة: فبادر بعضهم بالرجوع واختار أحسن الأمكنة وأوسعها في السفينة فاستقر فيه، وبعضهم توقف في الجزيرة معجباً بأزهارها وأغاريد طيورها وفنون ألوانها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فاستقر فيه، وبعضهم لم يكتفِ بالتوقف والتطلع لكنه أخذ بعضاً مما أعجبه، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله ضيقاً ولم يجد مكاناً لوضعه فحمله على عنقه، ثم لم يلبث أن ذبلت الأزهار وبيست الثمار وظهر ننتها فلم يجد بدأً من رميها في البحر. وبعضهم أمعن التجول في الجزيرة ونسي المركب ووصية الملاح، لاشتغاله بأكل الثمار والتفرج بين الأشجار، وهو مع هذا خائف من السباع، يسقط أحياناً ويصاب

= شرط البخاري، وأقره الذهبي. قال البيهقي: رجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن حبان وهو ثقة. (انظر جامع الأصول ٥/٢٥٦، وسنن ابن ماجه ٢/١٣٧٦، والبيان والتعريف ٢/١٩٥).

(١) البخاري ٨/١١٠، كتاب الرقاق.

من الأشواك والأغصان أحياناً، ثم انصرف مثقلاً بما معه فلم يدرك السفينة ومات على الشاطئ. أما الأخيرون فاشتدت بهم الغفلة وشغلهم عن السفينة ونداء ملاحها، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك وهكذا.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم ومصدرهم، وغفلتهم عن عاقبة أمورهم^(١).

إن الإنسان في الدنيا كالتلميذ الذي ينتظره الامتحان في نهاية العام؛ فإن كان الامتحان نصب عينيه وعلى ذكره دائماً عمل له، وشمر عن ساعد الجد في أثناء العام، فتكون النتيجة نجاحه في الامتحان، وعلى قدر علمه وجدته ومثابرتة تتحدد مكانته، إما في المتفوقين أو المتوسطين أو الذين ينجحون بأدنى الدرجات، وإن كان قد نسي أن أمامه امتحاناً، وقضى أوقاته في اللهو واللعب، وأهمل الاستعداد للامتحان، فنتيجته معروفة وهي رسوبه في الامتحان، الذي يحس وهو يؤديه أنه جاء مبكراً، وأن أيام الدراسة والاستعداد فاتت سريعة كأنها يوم أو بعض يوم، ويتمنى أن ترجع الأيام إلى السوراء ليستدرك ما فاتته.

نسأل الله أن يوفقنا للاستفادة بأوقاتنا والاستعداد ليوم لقائه، حتى نحصل على نتيجة مشرفة، ومكانة عالية في «جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين».

*
**

(١) إحياء علوم الدين ص ١٧٣٠ - ١٧٣١ بإيجاز وتصرف، وفتح الباري ٢٣٥/١١.

نماذج من أحاديث المثل الموجز السائر

بعد أن استمتعنا بصحبة أحاديث الأمثال، ورتعنا في رياضها، وقطفنا من ثمارها، وتعرفنا من خلالها على نوع من بيان المصطفى ﷺ، يتجلى فيه توضيح الفكرة وتقريبها عن طريق استعمال نوع من الوسائل التعليمية للبيان، وهو المثل القياسي أو التشبيه – تأتي إلى نوع آخر من البيان، فيه التعبير عن الفكرة بأوجز عبارة، ألا وهو المثل الموجز السائر.

وإنما أتعرض لهذا النوع من المثل للتعريف به وتقديم نماذج له – كما سبق أن قلت – لا لجمعه أو شرحه، فليس هذا من موضوع الكتاب الذي بأيدينا، وقد يوفق الله إلى جمعه في مؤلف آخر.

وهذا النوع هو الذي يعنيه طاش كبري زادة عندما قال عن علم الأمثال: (وهذا من فروع علم اللغة، وهو معرفة الألفاظ الصادرة عن البليغ المشتهرة بين الأقوام بخصوص ألفاظها وهيئاتها، وموردها، وسبب ورودها، وقائلها، وزمانها، ومكانها، لثلا يقع الغلط عند استعمالها في مضاربها، وهي المواضع والمقامات المشبهة بمواردها. ولا بد لمعاني تلك الألفاظ من غرابة، ولألفاظها من فصاحة وبلاغة).

وموضوعه: الألفاظ المذكورة من حيث ورودها في مواردها وتعيين مضاربها بالنوع.

ومباده: مقدمات حاصلة بالتواتر من ألفظ الثقات.

وأما غرضه ومنفعته فغنيان عن البيان، فإن الأمثال أشد ما يحتاج إليها

المنشئ والشاعر، لأنها تكسو الكلام حلة التزيين، وتَرْقِّيه، أعلى درجات التحسين^(١).

جوامع الكلم:

الكَلِم جمع كَلِمَة، والجوامع جمع جامعة، أي الكَلِم الجوامع للمعاني. وكان الرسول ﷺ أفصح العرب، وقد أعطاه الله جوامع الكلم، فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «بُعِثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب»، وفي رواية: «أعطيت مفاتيح الكلم»، وقد نقل البخاري عن ابن شهاب الزهري قال: (بلغني أن جوامع الكلم أن الله يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأميرين ونحو ذلك)^(٢).

وقال ابن حجر العسقلاني: (وحاصله أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز، القليل اللفظ، الكثير المعاني. وجزم غير الزهري بأن المراد بجوامع الكلم القرآن، بقرينة قوله «بُعِثت»، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني)^(٣).

وقد فسَّر صاحب كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) حديث «أوتيت جوامع الكلم» بالكلم الجوامع للمعاني، ثم قسمها إلى قسمين:

١ - القسم الأول: ألفاظ تتضمن من المعاني ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها. فمن ذلك ما استعمل في المجاز، كقوله ﷺ

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ١/٢٧٠. مراجعة وتحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور - طبع دار الكتب الحديثة عابدين.

(٢) رواه البخاري في كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد ٤٧/٩، وباب رؤيا الليل ٤٣/٩، وفي كتاب الاعتصام ١١٣/٩.

(٣) فتح الباري ١٣/٢٤٧، الطبعة السلفية.

يوم حنين: «الآن حَمِيَ الوطيس»^(١). وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه، فقلنا: (استعرت الحرب) لما كان مؤدياً من المعنى ما يؤديه «حمى الوطيس»، لأن الوطيس هو التَّنُور، وهو موطن الوقود ومُجْتَمِعُ النار، وذلك يخيّلُ للسامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها، وهذا لا يوجد في (استعرت الحرب) وما جرى مجراها.

٢ - وأما القسم الثاني من جوامع الكلم، فالمراد به الإيجاز الذي يدل بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة. وجُلُّ كلامه ﷺ جارٍ هذا المجرى^(٢).

فمن جوامع كلمه ﷺ قوله:

«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(٣)

أي بعض البيان يعمل عمل السحر، لحدة عمله في سامعه، وسرعة قبول القلب له. قال الميداني^(٤): يُضْرَبُ فِي اسْتِحْسَانِ الْمَنْطِقِ، وَإِيرَادِ الْحِجَّةِ الْبَالِغَةِ.

وذكر العسكري أنه قد اختلف في معنى هذا الحديث: هل هو ذم، أم مدح، ونقل عن بعض العلماء أنه ذم، لأن السحر تمويه، أي إن من البيان

(١) أخرجه مسلم عن العباس بن عبد المطلب، باب غزوة حنين من كتاب الجهاد والسير (شرح النووي ١٢/١١٣ - ١١٧).

(٢) المثل السائر ص ٣١ - ٣٢.

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر، وأخرجه مسلم بعض حديث عن عمار باب صلاة الجمعة وخطبتها بشرح النووي ٦/١٥٨، وانظر الفتح الكبير ١/٤١٨، والبيان والتعريف ١/٢٤٧.

(٤) مجمع الأمثال، وبهامشه جمهرة الأمثال ١/٥ - ٧، وانظر المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٩٤ - ٩٥.

ما يُموّه الباطل حتى يتشبهه بالحق^(١). ونقل عن آخرين أنه مدح، لأن البيان من الفهم والذكاء، ثم رجح أنه مدح^(٢)، وأن تسميته سحراً إنما هو على جهة التعجب منه. ثم نقل قولاً ثالثاً في معنى «إن من البيان لسحراً» هو من البليغ يبلغ بيانه ما يبلغ الساحر بلطافة حيلته في سحره. وقد تكلم بعضهم عند عمر بن عبد العزيز بكلام حسن، فقال عمر: (هذا السحر الحلال). فتصرف بعض الشعراء، في هذا المعنى فقال:

وحدِيثها السحر الحلال لو أنه لم يَجْنِ قتلَ المسلم المتحرِّز
 إن طال لم يُملَلْ، وإن هي أوجزتْ ودَّ المحدثُ أنها لم تُوجز
 شَرَكَ القلوبِ وقِيْنَة ما مثلها للمطمئن وعقله المستوفز^(٣)

وسبب هذا الحديث كما ذكره الميداني وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة أنه وفد على النبي ﷺ عمرو بن الأهتم والزُّبَيْرِ قَان بن بدر وقيس بن عاصم: ففخر الزبيرقان فقال: يا رسول الله، أنا سيد بني تميم والمطاع فيهم، وهذا يعلم ذلك - يعني عمرو بن الأهتم - فقال عمرو: إنه لشديد العارضة، مطاع في أدنّيه، مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبيرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر من هذا، ولكنه حسدني.

فقال عمرو: أنا أحسد له!! والله يا رسول الله إنه لثيم الخال، حديث المال، أحقق الوالد، مُضِيْع في العشيرة. والله يا رسول الله لقد صدقت في

(١) ومنهم مالك حيث أدخله في الموطأ في باب ما يكره من الكلام.

(٢) وكذلك رجحه النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥٩/٦.

(٣) مجمع الأمثال، وبهامشه جمهرة الأمثال ٥/١ - ٧، وانظر المجازات النبوية

للشريف الرضي ص ٩٤ - ٩٥.

الأولى وما كذبت في الثانية، ولكني رجل إذا رضيتُ قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أفبح ما وجدت، فقال الرسول: «إن من البيان لسحراً»^(١).

وقد جاء في بعض الروايات «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حِكماً» رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

وفي رواية ثالثة: «إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً، وإن من القول عيًّا». أخرجه أبو داود عن بريدة. وقوله: «إن من العلم جهلاً» هو تكلف العالم فيما لا يعلم فيجهله ذلك.

وأما قوله: «إن من القول عيًّا» العي: عدم الإبانة. والذي في سنن أبي داود: «وإن القول عيالاً»، وفسرها الخطابي بعرض الحديث على من ليس من شأنه ولا يريد. ثم ذكر أن غير أبي داود رواها: «وإن من القول عيالاً» من قولك: (علت الضالة، أعيل عيالاً وعيالاً) إذا لم تدر أي جهة تبغيها، كأنه لم يهتد إلى من يطلب علمه، فعرضه على من لا يريد^(٢).

ومن جوامع كلمه ﷺ:

«من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَمَ»

رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «قَبِلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت

(١) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف ٢٤٦/١، ومجمع الأمثال ٥/١ - ٦، وقد أسند الجصاص عدداً من هذه الروايات في كتابه أحكام القرآن ٤٢/١ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾.

(٢) معالم السنن للخطابي ١٣٦/٤ - ١٣٨ ط. حلب ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، وسنن أبي داود ٣٠٢/٤ - ٣٠٣ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية الكبرى.

منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»^(١).
ومن جوامع كلمه ﷺ:

«الآن حَمِي الوَطِيس»

قال يوم حنين لما اشتدت المعركة، والوطيس: حفيرة تُحتفر فتوقد فيها النار للاشتواء، والعرب تقول: أوقدت نار الحرب بين آل فلان وآل فلان، وقال الله سبحانه:

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

وتشبيه الحرب بالنار من وجهين: أحدهما لحرّ مواقع السيوف، وكرب ملابس الدروع، وحمي المعترك لشدة العراك وكثرة الحركات - وهذا في القديم، أما الآن فهي نار حقيقية - والوجه الثاني: أن يكون تشبيه الحرب بالنار، لأنها تأكل رجالها، وتفني أبطالها، كما تأكل النار سُعلها وتحرق حطبها^(٢).

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

« اليد العليا خير من اليد السفلى »

وهو بعض حديث رواه البخاري في كتاب الزكاة، عن ابن عمر، وحكيم بن حزام^(٣)، وفي روايته عن ابن عمر ذكر أن اليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب. انظر اللؤلؤ والمرجان ١٣٤/٣، وصحيح البخاري ٩/٨ ط. الشعب.

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) صحيح البخاري ١٣٩/٢ - ١٤٠ ط. الشعب، والمجازات النبوية ٣٧.

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ مِمَّا يَنْبِت الرِّبْع ما يَقْتَل حَبْطاً أو يُلْم»

وقد عد ابن دُرَيْد هذا القول من الكلام المفرد الوجيز الذي لم يُسبق إليه رسول الله ﷺ (١).

وقال أبو هلال العسكري: وهذا من أحسن الكلام وأوجزه، وأفصحه لفظاً، وأبلغه معنى. وهو مثل ضربه لمن أُعْطِيَ من الدنيا حظاً فألهاه الاشتغال به والاستكثار منه والحرص عليه ومجانبة القصد فيه - عن إصلاح دينه، فيكون فيه هلاكه، كما أن الماشية إذا لم تقتصد في مراعيها حبطت بطونها فماتت أو كادت (٢).

والربيع اسم للغيث - أي المطر - في الأصل، ثم صار اسماً عندهم لما ينبت عن الغيث من أنواع الزهور والعشب. قال الشاعر يريد الغيث:
أنت ربيعي والربيعُ يُنتظرُ وخير أنواء الربيع ما بكر
والربيع أيضاً النهر الصغير أو الجدول ويجمع على أربعاء، كأنصباء.
والحبط: انتفاخ البطن، وقوله: «أو يلْم» أي يوشك ويقرب، أي ما يقتل أو يقرب من القتل.

والإلمام القرب، والإلمام أيضاً النزول بالمكان.

وهذا المثل بعض حديث أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في كتاب الزكاة، وفي الرقاق، ونصه كما جاء في الرقاق: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض. قيل: وما بركات الأرض؟ قال:

(١) فتح الباري ١١/٢٤٨ المطبعة السلفية.

(٢) جمهرة الأمثال على هامش مجمع الأمثال ٧/١.

زهرة الدنيا. فقال رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ، حتى ظننت أنه يُنزَل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا - قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك - قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم، إلا آكلة الخضرة، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتهاها استقبلت الشمس، اجترت وتلطت وبالت، ثم عادت فأكلت. وإن هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع^(١).

وهو حديث جليل يرشد إلى القصد في تناول أهم زينة الحياة الدنيا وهو المال، ويضع للإنسان علامات على الطريق حتى لا تزل قدمه، فيتردى في المهاوي والأخطار، مدفوعاً بغرائزه ونوازه.

فالإنسان يحب المال ويسعى إلى جمعه وتحقيق رغباته به. وهذا الحب غريزة كامنة فيه، ومن العبث أن تستأصل هذه الغريزة أو تعطل من عملها، كما أنه من الخطر أن تشط من عقالها ويُلقي حبلها على غاربها، فتؤدي إلى أنانية مفرطة، ومادية مطلقة، تتوارى معها معاني البر والإحسان وكل الفضائل. لكن الأفضل أن تهذب هذه الغريزة، وأن توجه إلى تحقيق مصلحة الفرد والجماعة، والرسول ﷺ يعلم أن أصحابه فقراء، ويحس بحاجتهم إلى المال وتطلّعهم إلى الاستمتاع به، وهو يدرك - بما آتاه الله من وحي وبصيرة - أن الله سيفتح عليهم الدنيا، ويغدق عليهم من الخيرات ما يفوق أحلامهم، ويربو على أمانهم. إنه لا يخشى عليهم الفقر، فقد مَرَنوا عليه ونجحوا في

(١) البخاري ١٥٠/٢، ١١٣/٨ ط. الشعب. . والخاصرتان: جانبا البطن، اجترت الدابة: استرفعت ما في كرشها لتعيد مضغه. تلطت: أخرجت ما في بطنها سهلاً.

بلائه، ولكنه يخشى عليهم بلاء النعمة وفتنة المال، يخشى عليهم أن تنطلق الغرائز فيعجزون عن كبح جماحها، ويفلت منهم زمامها، فتؤدي بهم إلى المنافسة والمغالبة والأثرة والشح والركون إلى الدنيا والتقاعس عن نصره المثل العليا التي جاهدوا في سبيلها، والتي أهدت إليهم النعمة التي يرفلون فيها.

فقد روى البخاري أن الأنصار سمعت بقدوم مال من البحرين، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف من صلاته تعرضوا له، فتبسم رسول الله حين رآهم وقال: «أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم»^(١).

ويمكن أن نوجز فلسفة الإسلام في المال، وسياسته في تهذيب غريزة التملك في النقاط التالية:

١ - الإنسان في هذه الحياة لا يملك شيئاً في الحقيقة، يأتي إليها وهو صفر اليدين، ويخرج منها وهو صفر اليدين. وفي الفترة ما بين مولده ووفاته يستخلفه الله على بعض الأموال، فإذا طلب منه الإنفاق أو التبرع أو المعاونة، فليسارع بالإنفاق، فإنه لا ينفق من ماله، بل المال مال الله، والأرض لله يورثها من يشاء.

٢ - وعلى الرغم من أن المال مال الله في الحقيقة يثاب الإنسان إذا غالب الأثرة والشح، يثاب في الدنيا والآخرة، فما ينفقه في الدنيا يخلفه الله عليه في الدنيا ويدخره له في الآخرة.

(١) البخاري ١١٢/٨.

٣ - الدنيا مَعْبَرٌ إلى الآخرة، فينبغي ألا يكون المال شاغلاً عن الإعداد للقاء الله، وأن يكون عوناً وعدة لهذا اللقاء.

٤ - شرع الإسلام كثيراً من العبادات والعقوبات المالية من زكاة وكفارات، ليعود الإنسان على الإنفاق ويعينه على مغالبة الأنانية والشح.

٥ - كل مسلم مطالب بأن يتصدق وأن يقدم للمجتمع شيئاً مما يملك قليلاً أو كثيراً، كلُّ على قدر استطاعته. إن لم يكن بالمال فبالعمل والكلمة الطيبة.

٦ - في الوقت الذي يحث فيه الإسلام على الإنفاق والبذل المادي والمعنوي - يحث كذلك على العفاف والأنفة من السؤال.

٧ - يحدد جمع المال بالطرق المشروعة، فكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به، ولا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن ماله: من أين اكتسبه وفيم أنفقه، فكل إنسان سوف يُسأل: من أين لك هذا؟ وكيف تصرفت فيه؟

هذه خطوط عريضة في سياسة المال في الإسلام.

* * *

ونكتفي بهذا القدر من أحاديث المثل الموجز، التي قدمناها كنماذج تدل على غيرها، وبخاصة أن في الصفحات التالية عديداً منها، وهي الأحاديث التي ذكرها الميداني في نهاية كتابه، ووعدت بتخريجها.

*
**

خاتمة

في تخريج أحاديث الأمثال التي ذكرها الميداني

في نهاية بحثنا عن الأمثال نرى أنه من الفائدة أن تُخرج الأحاديث التي سردها الميداني في نهاية كتابه (مجمع الأمثال) وهو الباب الثلاثون منه، والذي ذكر فيه نبذاً من كلام النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، تحقيقاً لما سبق أن وعدت به. وجملة الأحاديث التي ذكرها في هذا الباب ثمانية وخمسون حديثاً، وهي كما لا يخفي من المثل الموجز السائر، لا من المثل القياسي. وأود أن أنبه إلى أن هذا التخريج أُريدَ به التعريف بأن للمثل المذكور أصلاً في كتب السنة، والدلالة على بعض مواضعه والإشارة إلى درجته، ولم يُقصد بالتخريج هنا الاستقصاء والكلام على الرواة.

١ — «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»:

أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، وفي الرقاق^(١). وبقية الحديث: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

٢ — «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»:

رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بأن في سنده ابن أبي مريم، وهو واه، وقد روه عن شداد بن أوس مرفوعاً، وللحديث بقية

(١) صحيح البخاري ٩/١، ١٢٧/٨ ط. الشعب.

هي : «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»^(١).

٣ - «كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته» :

بعض حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر مرفوعاً، وبقيّة الحديث «فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته»^(٢).

٤ - «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة» :

رواه الحكيم الترمذي بلفظ : «أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصلٍّ لا خلاق له عند الله تعالى» عن زيد ابن ثابت. ورواه القضاعي في مسند الشهاب عن أنس.

وزوى الطبراني الجزء الأول منه عن شداد بن أوس بلفظ : «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة»^(٣).

٥ - «الرزق أشد طلباً للعبد من أجله» :

رواه ابن حبان بلفظ : «إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله»^(٤). عن أبي الدرداء مرفوعاً.

ورواه البيهقي والعسكري عن أبي الدرداء مرفوعاً، ورواه القضاعي

(١) كشف الخفاء ٢/١٩٦.

(٢) البخاري، باب العبد راعٍ في مال سيده من كتاب العتق (فتح الباري ٥/١٨١)، ومسلم بشرح النووي (٢١٣/١٢) باب فضيلة الإمام العادل، من كتاب الإمارة.

(٣) الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ١/٤٦٨ - ٤٦٩، ومسند الشهاب ١/١٥٥ - ١٥٦.

(٤) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٢٦٧، ومسند الشهاب ١/١٦٨.

باللفظ الذي ذكره الميداني، ورواه الدارقطني في علله مرفوعاً، والصواب الموقوف، كما قاله البيهقي والدارقطني. وروى عن أبي سعيد بمعناه مرفوعاً، وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ: «لوفر أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه أجله»، ولأبي نعيم والعسكري عن جابر رفعه بمعناه^(١).

٦ — «النظر في الخضرة يزيد في البصر، والنظر إلى المرأة الحسناء كذلك»:

رواه الحاكم والديلمي عن ابن عمر رفعه، وروياه عن القاضي أبي البختري عن علي بن أبي طالب مرفوعاً بلفظ: «ثلاث يزدن في قوة البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري وإلى الوجه الحسن».

وروى القضاعي عن جابر مرفوعاً: «النظر في وجه المرأة الحسناء والخضرة يزيدان في البصر^(٢). والنصوص القاطعة الصريحة في القرآن والسنة الصحيحة تأمر بغض النظر، وتحرم النظر إلى الأجنبية بدون ضرورة، مما يرجح وضع هذا الحديث، وقد اتهم أبو البختري بوضع الحديث.

٧ — «الشؤم في المرأة والفرس والدار»:

رواه البخاري عن ابن عمر مرفوعاً، رواه أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي بلفظ: «إن كان في شيء ففي الدار والمرأة والفرس».

وشؤم المرأة سوء خلقها أو كونها لا تلد، وشؤم الفرس كونها حروناً أو لا يُغزى عليها، وشؤم الدار يعني ضيقها أو سوء جيرانها^(٣).

(١) كشف الخفاء ١/٢٦٦ - ٢٦٧، الفتح الكبير ٢/٢٤١.

(٢) كشف الخفاء ١/٣٨٦ - ٣٨٧، ومسنَد الشهاب ١/١٩٣.

(٣) صحيح البخاري في كتاب الجهاد والسير ٤/٣٥ ط. الشعب، وانظر شرحه في فتح الباري ٦/٦٠ المطبعة السلفية.

٨ — «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» :

رواه البخاري في كتاب الرقاق^(١).

٩ — «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» :

رواه الطبراني عن سلمان، وأبونعيم والقضاعي عن أبي هريرة، والطبراني في المعجمين الكبير والأوسط عن أم سلمة، وكذلك العسكري في حديث طويل^(٢).

١٠ — «السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم» :

رواه البزار والقضاعي والبيهقي والحاكم عن ابن عمر مرفوعاً.. وله بقية هي : «كل مظلوم من عباد الله، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو خان أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر، وإذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر، وإذا خفرت الذمة أديل العدو^(٣).

وفي سننه سعيد بن سنان، قال ابن حجر في التقریب : متروك ورماه الدارقطني بالوضع.

١١ — «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله» :

رواه القضاعي والديلمي عن ابن عمر، وهو حديث حسن لغيره^(٤).

(١) البخاري ١٠٩/٨، وفتح الباري ٢٢٩/١١.

(٢) كشف الخفاء ٣٠٧/١، ٢٩/٢، والشهاب للقضاعي ص ١٩٩، والحلية لأبي نعيم

٣١٩/٩ والطبراني في الصغير ٧٤/١ عن أبي موسى الأشعري.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ١٩٦/٥، ومسند الشهاب ص ٢٠٠.

(٤) كشف الخفاء ٥٤٧/١، والقضاعي ٢٠٦/١، ورواه الخطيب للبغدادى في تاريخه

١٦/٦ - ١٧ بسند ضعيف.

١٢ — «خصلتان لا يكونان في منافق: حسن سمت وفقه في دين»:

رواه الترمذي عن أبي هريرة^(١).

١٣ — «الشيخ شاب في حب اثنين: في حب طول الحياة وكثرة المال»:

رواه عبد الغني بن سعد في الإيضاح عن أبي هريرة بلفظ: «الشيخ يضعف جسمه، وقلبه شاب على حب اثنتين: طول الحياة وحب المال»^(٢).

وفي كتاب الرقاق من البخاري بطريقتين عن أبي هريرة وعن أنس. ورواية أبي هريرة هي: «لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل»^(٣).

١٤ — «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»:

رواه الطبراني والقضاعي عن الفضل بن عباس مرفوعاً. وقال العراقي: حديث منكر^(٤).

١٥ — «كانت الأرواح جنوداً مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»:

رواه البخاري ومسلم^(٥).

(١) في كتاب العلم من سننه، باب فضل الفقه على العبادة، وقال الترمذي (حديث غريب) وضعف سنده في فيض القدير ٤٤٠/٣ وانظر الفتح الكبير ٨٨/٢، وإحياء علوم الدين ٩/١ ط. الشعب.

(٢) الفتح الكبير ١٨٥/٢.

(٣) البخاري ١١١/٨ ط. الشعب.

(٤) كشف الخفاء ١٣٠/٢، والفتح الكبير ٢٧٠/٢، ومسند الشهاب للقضاعي ١٧٠/١ - ١٧١.

(٥) البخاري بحاشية السندي ١٦٠/٢ ومسلم بشرح النووي ١٨٥/١٦.

١٦ - «الرغبة في الدنيا تكثر الهمة، والبطالة تقسي القلب»^(١) :

١٧ - «الزنا يورث الفقر» :

رواه القضاعي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر^(٢).

١٨ - «رأس الحكمة مخافة الله» :

رواه البيهقي في الدلائل، والعسكري في الأمثال، والديلمي عن عقبة بن عامر والحكيم الترمذي عن مسعود. وبقية الحديث من رواية عقبة بن عامر: قال خرجنا في غزوة تبوك، فذكر حديثاً طويلاً فيه قول النبي ﷺ: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، والخمر جماع الإثم»^(٣).

١٩ - «صنائع المعروف تقى مصارع السوء» :

أخرجه القضاعي عن ابن مسعود وأبي أمامة مرفوعاً والطبراني في

(١) لم أعثر عليه.

(٢) كشف الخلفاء ١/٥٣٢ - ٥٣٣، والفتح الكبير ٢/١٤٥، ومسند الشهاب ١/١٧٠ -

١٧١ وقال ابن أبي حاتم في العلل: سمعت أبي وحدثنا عن حرملة، عن ابن وهب، عن الماضي بن محمد، عن هشام، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «الزنى يورث الفقر»، قال أبي: - يعني أبا حاتم: هذا حديث باطل، وماضي لا أعرفه».

(٣) دلائل النبوة، للبيهقي ٥/٢٤٢ دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤٠٥هـ. وقال المناوي في فيض القدير ٣/٥٧٤: وضعفه البيهقي، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٥/١٣، نقلاً عن البيهقي، وقال: هذا حديث غريب وفيه نكارة وفي إسناده ضعف.

الكبير والأوسط أيضاً، والعسكري عن أم سلمة، وفي سند العسكري صدقة بن عبد الله وثقه دحيم وضعفه الجمهور، وللحديث بقية في الروايات المخلفة، منها: «وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»^(١).

٢٠ — «صلة الرحم تزيد في العمر»:

انظر الحديث السابق. وقد روى البخاري في كتاب الأدب عن أبي هريرة وأنس مرفوعاً: من سره أن ييسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره، فليصل رحمه»^(٢).

٢١ — «الرجل في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس»:

رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعاً، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال: على شرط مسلم^(٣).

٢٢ — «العلماء أمناء الله على خلقه»:

رواه القضاعي وابن عساكر عن أنس، ورواه العقيلي في الضعفاء^(٤).

(١) كشف الخفاء ٢٨/٢ - ٢٩، ٤٢، والفتح الكبير ١٩٢/٢، والمعجم الكبير للطبراني ٣١٢/٨.

(٢) كشف الخفاء ٢٨/٢ - ٢٩، ٤٢، والبخاري ٦/٨ ط الشعب.

(٣) كشف الخفاء ٥١٠/١ - ٥١١، والمستدرك للحاكم ٤١٦/١.

(٤) كشف الخفاء ٨٤/٢، ومسند الشهاب ١٠٠/١، ونقل تحسينه المناوي في فيض القدير ٣٨٢/٤.

٢٣ - «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه إلى بعضاً» :

رواه البخاري ومسلم^(١).

٢٤ - «ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة» :

رواه العسكري والقضاعي عن جابر مرفوعاً^(٢).

٢٥ - «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» :

رواه مسلم عن أبي هريرة، ورواه البخاري بدون زيادة (معادن الذهب والفضة)، في كتاب الأنبياء بلفظ:

«الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا

فقهوا»^(٣).

٢٦ - «لكل شيء عماد، وعماد الدين الفقه» :

في الإحياء للغزالي من حديث طويل: «لكل شيء دعامة، ودعامة

الدين العقل». أخرجه ابن المحبر^(٤).

٢٧ - «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه» :

متفق عليه^(٥).

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب ١٤/٨ ط. الشعب وفي المظالم ١٦٩/٣ ومسلم

بشرح النووي ١٣٩/١٦ . (٢) كشف الخفاء ٢٧٣/٢ .

(٣) الفتح الكبير ٢٦٦/٣، وفتح الباري ٤١٧/٦ ط. السلفية، ومسلم بشرح النووي ١٣٤/١٥ .

(٤) إحياء علوم الدين ١٤٤/١ ط. الشعب .

(٥) الفتح الكبير ٢٥٧/٣، وهو بعض حديث رواه البخاري في كتاب المظالم من

صحيحه ١٦٨/٣ ط. الشعب، عن ابن عمر، ورواه مسلم عن أبي هريرة في

كتاب البر والصلاة والآداب (بشرح النووي ١٦/١٢٠).

٢٨ - «الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشر» :

رواه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنه (١).

٢٩ - «من سرتة حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» :

بعض حديث رواه ابن حبان عن جابر بن سمرة، عن عمر، ولفظه :

«من ساءته سيئته وسرتة حسنته فهو مؤمن»، ورواه الطبراني عن أبي موسى (٢).

٣٠ - «من يشته كرامة الآخرة يدعُ زينة الدنيا» :

رواه القضاعي في مسند الشهاب عن الحسن (١/٢٥١) حديث رقم

(٤٠٧).

٣١ - «من أصبح معافي في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» :

رواه البخاري في الأدب، والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن

محسن (٣) ورواه ابن حبان عن أبي الدرداء مرفوعاً (٤).

(١) الفتح الكبير ٣/٣٠٨، وكشف الخفاء ٢/٤٨٢، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال

٣/٣٨٥: هذا وإن كان معناه حقاً فهو موضوع، وانظر مسند الشهاب ١/٢٠٧ -

٢٠٨.

(٢) الفتح الكبير ٣/١٩٨، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ١٠/٤٣٧ حديث

٤٥٧٦، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وانظر تخريجه هناك.

(٣) الفتح الكبير ٣/١٦٣، وكشف الخفاء ٢/٣١٥، وانظر الأدب المفرد للبخاري

ص ١١٢ حديث (٣٠٠)، ورواه الترمذي في كتاب الزهد من سننه (٤/٥٧٤)

بتحقيق إبراهيم عطوة، وقال: (هذا حديث حسن غريب... وفي الباب عن

أبي الدرداء). وانظر سنن ابن ماجه ٢/١٣٨٧، والضعفاء الكبير للعقيلي ٢/١٤٦.

(٤) موارد الظمان ٦٢٠.

٣٢ - «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم» :

رواه ابن المبارك عن خالد بن عمران مرسلًا . ورواه الديلمي عن أنس رفعه بلفظ : «رحم الله امرأً تكلم فغنم أو سكت فسلم» ، ورواه العسكري عن أنس لكن بلفظ «عبداً» ، ورواه أيضاً عن ابن مسعود^(١) .

٣٣ - «جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» :

رواه أبو نعيم في الحلية (١٢١/٤) ، وابن حبان في روضة العقلاء والخطيب في تاريخ بغداد (٣٤٦/٧) وآخرون عن ابن مسعود وأخرجه ابن عدي في كامله (٧٠١/٢) والبيهقي في شعبه عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً قال البيهقي : وهو - أي روايته موقوفاً - المحفوظ . وقال ابن عدي : وهو المعروف . وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٧١ - ١٧٢) : وهو باطل مرفوعاً وموقوفاً ، وقول ابن عدي ثم البيهقي أن الموقوف معروف عن الأعمش يحتاج إلى تأويل ، فإنهما أورداه كذلك بسند فيه من اتهم بالكذب والوضع بسياق يجلب الأعمش عن مثله .

ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية مرفوعاً وموقوفاً . وهو باطل من الوجهين^(٢) ، وكذلك قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٧١ - ١٧٢) ،

(١) المقاصد الحسنة ، للسخاوي ص ٣٢٥ وكشف الخفاء ١/٥١٤ ، والفتح الكبير ١٣٣/٢ ، وانظر كتاب الزهد والرقائق ، لابن المبارك ص ١٢٨ ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، وله شاهد من حديث أبي أمامة رواه الطبراني في الكبير (١٩٧/٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣/١٧٦ .

(٢) العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ٢/٢٩ - ٣٠ ، وكشف الخفاء ١/٣٩٥ - ٣٩٦ ، والفتح الكبير ٢/٦٢٣ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/١٢): والحديث لا يصح بالكلية.

٣٤ — «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»:

رواه أبو داود والترمذي في الزهد من سننه والنسائي وأحمد وآخرون عن الحسن بن علي. وباقي الحديث عند غير النسائي: «فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وصححه ابن حبان^(١).

٣٥ — «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»:

رواه الطبراني وأبو يعلى والبيهقي بسند ضعيف عن عائشة^(٢).

٣٦ — «اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم»:

رواه ابن عساكر عن عبد الله بن بسر، والحاكم عن علي، بلفظ (اطلبوا المعروف من رحماء أمتي)^(٣)، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٤٠٦/١) عن أبي سعيد، وفيه محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك.

٣٧ — «ليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة

قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، فما بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار»:

في الإحياء للغزالي أن النبي قال في بعض خطبه: «المؤمن بين مخافتين.

(١) عارضه الأحوزي ٣٢١/٩، وكشف الخفاء ٤٨٩/١، والفتح الكبير ١١/٢، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان جزء ٢ حديث ٧٢٢.

(٢) مسند الشهاب للقضاعي ٤٠٤/١، وكشف الخفاء ١٥٤/١ - ٢٠٣، والفتح الكبير ٢٢٩/٢، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير ٢٩٠/١.

(٣) كشف الخفاء ١٥٦/١، والفتح الكبير ١٩٣/٢.

بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض به. فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار.

وقال العراقي في تخريجه: رواه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفيه انقطاع^(١).
ورواه القضاعي في مسنده (٤٢٥/١).

٣٨ — «اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تحمل على الغمام، يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»:

رواه الطبراني عن خزيمة مرفوعاً، وقال المنذري: لا بأس بإسناده في المتابعات، والحاكم وقال: على شرط مسلم، وروى البخاري في المظالم عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمين فقال: «اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»^(٢).

٣٩ — «لا يفلح قوم تملكهم امرأة»:

رواه البخاري بلفظ: لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»، عن أبي بكر، ورواه الحاكم وأحمد وابن حبان مطولاً^(٣).

(١) إحياء علوم الدين ٣/١٧٠٨ ط. الشعب.

(٢) كشف الخفاء ١/٣٩، والبخاري ٣/١٦٩ ط. الشعب، والترغيب والترهيب للمنذري ٣/١٨٨.

(٣) كشف الخفاء ٢/٢١٥، والبخاري في المغازي، باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر. ورواه أحمد في المسند ٥/٤٣، وانظر الإحسان ج ١٠ ح ٤٥١٦.

٤٠ - «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(١) :

٤١ - «لا يشبع عالم من علم حتى يكون متتهاها الجنة» :

رواه الترمذي في سننه رقم (٢٨٢٦) وقال عنه : حسن غريب .

وعند ابن حبان عن أبي هريرة من حديث طويل : سأل موسى ربه : «أي عبادك أعلم؟ قال: الذي لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه»^(٢) .

٤٢ - «لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا كنه عقله»^(٣) :

٤٣ - «إن الله إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن ترى عليه» :

رواه البيهقي في السنن (٢٧١/٤) عن عمران بن حصين مرفوعاً، ورواه الترمذي بلفظ: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده «وحسنه» عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده مرفوعاً^(٤)، ورواه الطحاوي في مشكل الآثار (١٥١/٤) وأحمد في المسند ٢٣٨/٤ والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١٦١) .

٤٤ - «إن الله يحب الرفق في الأمر كله» :

رواه البخاري في قصة تبين سببه؛ وهي : «دخل رهط من اليهود على

(١) رواه أحمد في المسند ٤٤١/٦، وانظر في مسند الشاميين حديث رقم ٢٢١٤ .

(٢) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٥٠ .

(٣) لم أعر عليه . ونقل محمد طاهر الهندي في (تذكرة الموضوعات ص ٢٩) أن ابن حجر قال في أحاديث العقل التي أخرجها الحارث بن أسامة في مسنده: كلها موضوعة وقال الهندي: كل حديث ورد فيه ذكر العقل لا يثبت .

(٤) كشف الخفاء ٢٨٧/١ .

رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم: قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ «قد قلت: وعليكم»^(١).

٤٥ — «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها؟ قال: ذكر الله وتلاوة القرآن»:

في إحياء علوم الدين للغزالي بلفظ: «...: تلاوة القرآن وذكر الموت».

وقال العراقي في تخريجه: رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف. وأخرج الحكيم الترمذي وابن عدي في الكامل عن أنس: إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد، وجلاؤها الاستغفار^(٢).

وقد رواه أبو نعيم في الحلية (١٩٧/٨) والخطيب في تاريخ بغداد (٨٥/١١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٩٨/٢ - ١٩٩).

٤٦ — «ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله»:

رواه الديلمي في مسند الفردوس^(٣) من حديث جبير بن مطعم. قال المناوي في الفيض (٣٨٩/٥) وفيه عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير، مجمع على ضعفه. ورواه القضاعي (٢٠٥/٢) من طريق الدارقطني عن عائشة،

(١) البخاري في كتاب الأدب ١٤/٨ ط. الشعب، وصحيح مسلم حديث رقم (٢١٦٥)، والفتح الكبير ٣٥٤/١.

(٢) إحياء علوم الدين ٤٩٦/٣ ط. الشعب. والفتح الكبير ٣١٢/١، والكامل لابن عدي ١٩٢١/٥، ٢٤٩٤/٧. (٣) الفتح الكبير ٦٨/٣.

وفي إسناده يحيى بن سعيد الفارس الإصطخري، قال ابن عدي: يروى عن الثقات البواطل.

٤٧ — «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت»:

روى مسلم عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: «ألهاكم التكاثر» قال: يقول ابن آدم. مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(١):

٤٨ — «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»:

رواه الطبراني في الكبير (١٠٥/١٠) وقال فيه موسى بن عمير وهو أبوهارون القرشي، متروك، والأوسط، وأبونعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً. ورواه أبو نعيم وأبو يعلى والطبراني والبخاري عن أنس مرفوعاً.

وقال النووي في فتاويه: هو حديث ضعيف، لأن فيه يوسف بن عطية ضعيف باتفاق الأئمة.

وقال ابن حجر في الفتاوى الحديثة: «حديث الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» ورد من طرق كلها ضعيفة^(٣).

(١) مسلم بشرح النووي ٩٤/١٨، ومسند أحمد (٤/٢٤، و٢٦) والنسائي ١٩٨/٦ وغيرهم.

(٢) كشف الخفاء ١/٤٥٧ - ٤٥٨، والفتح الكبير ٢/١٠٥، وضعيف الجامع الصغير، للألباني (٣/١٤٥).

٤٩ - «كفى بالسلامة داء»:

رواه الديلمي في مسند الفردوس، عن ابن عباس، وضعفه الألباني (١).

٥٠ - «رب مبلغ أوعى من سامع»:

رواه البخاري في كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (٢).

٥١ - «جمال الرجل فصاحة لسانه»:

رواه القضاعي والعسكري والخطيب عن جابر مرفوعاً: وله طرق أخرى كلها ضعيفة (٣).

٥٢ - «الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة»:

رواه الطبراني بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً، وأخرجه البيهقي وأبو نعيم عن أبي هريرة موقوفاً، وهو أصح (٤). وأخرجه البيهقي وأحمد في مسنده (٣٣٥/٤) عن عامر بن مسعود الجمحي. وأخرجه ابن عدي في الكامل (١٠٧٥/٣، ١٢١٠) عن جابر وعن أنس، وفي كلا الطريقتين من هو ضعيف وقد حسن الألباني هذا الحديث في صحيح الجامع الصغير (٢٦٥/٣).

٥٣ - «الخير معقود بنواصي الخيل»:

رواه البخاري عن عروة البارقي في (كتاب المناقب) باب سؤال

(١) الفتح الكبير ٣١٧/٢، وضعيف الجامع الصغير ١٣٩/٣.

(٢) صحيح البخاري ٢١٦/٢ ط. الشعب، وأخرجه أحمد في المسند (٤١٥٦/٦) عن عبد الله بن مسعود وصحيح الشيخ أحمد شاكر، والترمذي في كتاب العلم من سنته (تحفة الأحوزي ٤١٧/٧) وابن ماجه، باب سيبلغ علماً (٨٥/١).

(٣) كشف الخفاء ٣٩٩/١ - ٤٠٠، وضعيف الجامع الصغير (٧٩/٣)، ومسند الشهاب ١٦٤/١.

(٤) كشف الخفاء ٦/٢ - ٧، ٤٣، وسنن البيهقي، كتاب الصيام، باب ما ورد في صوم الشتاء (٢٩٦/٤) ومسند الشهاب ١٦٣/١.

المشركين أن يريهم النبي آية، ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، وبقيته: إلى يوم القيامة، والمنفق على الخيل كالباسط كفه بالنفقة لا يقبضها».

والحديث الصحيح المتفق عليه هو بتقديم (الخيل) ولفظه: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» رواه الشيخان وغيرهما عن مالك عن نافع عن ابن عمر، كما رواه الشيخان وغيرهما عن عروة البارقي مرفوعاً بزيادة «الأجر والمغرم» بعد قوله: «يوم القيامة»^(١).

وأقرب الألفاظ إلى هذا المثل أيضاً ما رواه الترمذي عن عروة البارقي في كتاب الجهاد من سننه (عارضضة الأحوزي ١٨٦/٧) وابن ماجة في كتاب التجارات من سننه (١٨١/٢) عن عروة أيضاً.

٥٤ — «التاجر الجبان محروم»:

رواه الديلمي والقضاعي عن أنس مرفوعاً. وبقيته: «والتاجر الجسور مرزوق»، وفي سند القضاعي كذاب، وآخر مجهول^(٢).

٥٥ — «السلام تحية لملتنا وأمان لذمتنا»:

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٩/٨) عن أبي أمامة، وأخرجه أيضاً في المعجم الصغير (٧٥/١) عن أبي هريرة. وأخرجه القضاعي في مسنده (١٧٩/١ - ١٨٠) عن أنس بن مالك. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٧٩/٣) كتاب معاشرمة الناس باب السلام.

(١) كشف الخفاء ٤٧٧/١، والفتح الكبير ١٠٦/٢ - ١٠٧، والبخاري، كتاب الجهاد والسير ٣٤/٤، ومسلم شرح النووي ١٦/١٣ - ١٧ و ٦٧/٧ - ٦٨.

(٢) كشف الخفاء ٣٤٩/١، ومسند الشهاب ١٦٩/١.

والأحاديث الصحيحة في الأمر بالسلام وإفشائه كثيرة معروفة.

٥٦ — «العالم والمتعلم شريكان في الخير»:

بقيته: «وسائر الناس لا خير فيه» رواه الطبراني عن أبي الدرداء، وابن الإمام أحمد في زوائد الزهد، ورواه الترمذي عن أبي هريرة وحسنه^(١)، وأخرجه ابن ماجه (١٠١/١) عن أبي أمامة.

٥٧ — «من صمت نجاً»:

رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة من سننه وقال: غريب، وأحمد والدارمي وآخرون عن ابن عمرو ابن العاص مرفوعاً، وفي سندها ابن لهيعة^(٢).

٥٨ — «من تواضع لله رفعه الله»:

أخرجه ابن ماجه عن أبي سعيد، وكذلك ابن حبان وصححه. وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «وما تواضع أحد لله تعالى إلا رفعه»^(٣).

* * *

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر ٤/٦٦٠، الفتح الكبير ٢/٢٤٧، وكشف الخفاء ٨٥/٢.

(٢) مسند أحمد ٢/١٥٩، ١٧٧ طبع دار صادر، وسنن الدارمي ٢/٢٩٩، ومصابيح السنة للبخاري ٣/٣٢٤، ومسند القضاة ١/٢١٩، وكشف الخفاء ٢/٢٥٦ — ٢٥٧، والفتح الكبير ٣/٢٠٩.

(٣) كشف الخفاء ٢/٣٣٥، وفتح الباري ١١/٣٤٧ بترقم محمد فؤاد عبد الباقي، والفتح الكبير ٣/١٨٠، وموارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٤٧٨ حيث رواه ابن حبان بزيادات عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وإلى هنا نأتي إلى نهاية هذا الكتاب، وأرجو أن أستدرِك في المستقبل ما فاتني من الأمثال، وأسأل الله أن ينفع به، وأن يغفر لي ما أخطأت فيه. (وقد خففت وإن كنت أكثر، واختصرت وإن كنت أطلت. . ونحن نسأل الله أن يمحو ببعض بعضاً، ويغفر بخير شراً. . ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله، ويتغمدنا بعفوه، ويعيدنا — بعد طول الأمل فيه وحسن الظن به والرجاء له — من الخيبة والحرمان)^(١).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ وسلم
تسليماً كثيراً.

*
**

(١) من مقدمة عيون الأخبار، لابن قتيبة.

أهم المراجع للبحث، عدا القرآن الكريم

- * أبو جعفر الطحاوي وأثره في الحديث – للمؤلف دار طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
- * إحياء علوم الدين للغزالي – دار الشعب، وبهامشه تخريج أحاديثه.
- * إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، مطبوع بأسفل حادي الأرواح، مطبعة النيل بمصر، بمعرفة فرج الله زكي الكردي.
- * الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢هـ) مطبعة الترقى بدمشق ١٣٤٩هـ.
- * إمتاع الأسماع للمقرئزي، تصحيح أحمد شاکر.
- * أمثال الحديث، للرامهرمزي – ميكروفيلم بمعهد المخطوطات.
- * إيقاظ الهمم في شرح الحكم، للعارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني (ت ١٢٦٦هـ)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- * البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، لإبراهيم بن محمد كمال الدين الشهير بابن حمزة (ت ١١٢٠هـ)، طبع حلب سنة ١٣٢٩هـ في جزءين.
- * تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.
- * الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث، للمؤلف – مكتبة الخانجي ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- * تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي – لأبي العلي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.

* تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ٩١١هـ)، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبداللطيف - دار الكتب الحديثة بعابدين - مصر.

* تفسير ابن كثير.

* تفسير الكشاف، للزمخشري، انظر: الكشاف.

* التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من علوم ابن الصلاح، للعراقي.

* جامع الأصول من أحاديث الرسول، لأبي السعادات مبارك بن الأثير.

* الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي - طبع دار الكتب المصرية - مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

* جمع الفوائد.

* جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (حسن بن عبد الله ت ٣٩٥هـ)، مطبوع على هامش مجمع الأمثال الآتي.

* الرسالة للشافعي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر - الحلبي ١٣٥٨هـ.

* رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للنووي (محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف) ط. الشعب.

* زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم طبع الحلبي وشركاه.

* سبل السلام للصنعاني.

* سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية.

* سنن الترمذي، بشرح ابن العربي (عارضة الأحوزي)، وبشرح المباركفوري (محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم ت ١٣٥٣هـ)، واسم الشرح [تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي].

* السنة قبل التدوين، للدكتور محمد عجاج الخطيب - مطبعة مخيمر بالقاهرة.

* شروط الأئمة الخمسة، للحازمي (محمد بن موسى ت ٥٨٤هـ)، بتعليق الكوثري مطبعة القدسي والسعادة بمصر ١٣٥٧هـ.

- * صحيح البخاري ط. الشعب، وبحاشيته السندي.
- * صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧هـ - ١٩٥٩م.
- * ظلال القرآن، لسيد قطب رحمه الله، الطبعة الثانية.
- * علوم الحديث ومصطلحه، لصبحي الصالح.
- * فتح الباري بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - المطبعة السلفية، ونسخة أخرى طبع مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- * الفتح الرباني لترتيب مسند للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه كتاب بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني، كلاهما لعبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي.
- * فتح المغيث للسخاوي.
- * فتح القدير، للكمال ابن الهمام (محمد بن عبد الواحد - المطبعة الأميرية ١٣١٨هـ).
- * الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، للسيوطي ترتيب الشيخ يوسف النبهاني، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى - مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
- * القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي - المطبعة الأميرية.
- * كتاب الجامع لأدب الراوي وأخلاق السامع، للخطيب البغدادي (أحمد بن علي ٤٦٣هـ) تحقيق د. محمد رأفت سعيد.
- * الكافي لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨هـ).
- * كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي (محمد علي بن محمد حامد) طبع ليز ١٨٦٢هـ.
- * الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري (محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨هـ)، المكتبة التجارية الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤هـ.

- * كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني المتوفى سنة ١١٦٢هـ - نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي بحلب.
- * لسان العرب، لابن منظور (محمد بن مكرم ٧١١هـ) المطبعة الأميرية ١٣٠٠هـ.
- * اللؤلؤ والمرجان، فيما اتفق عليه الشيخان، طبع دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.
- * المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن محمد.
- * المجازات النبوية، للشريف الرضي، تحقيق محمود مصطفى - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.
- * مجمع الأمثال للميداني أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (المتوفى سنة ٥١٨هـ) المطبعة الخيرية ١٣١٠هـ.
- * مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي (نور الدين علي بن أبي بكرت ٨٠٧هـ).
- * مسند الشهاب، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت ٤٥٤هـ)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط. أولى مؤسسة الرسالة، بيروت.
- * المعتصر من مصطلحات أهل الأثر، للأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف.
- * المغني لابن قدامة مع الشرح الكبير.
- * مفاتيح الغيب للرازي، المشهور بالتفسير الكبير.
- * مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، لأبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت ٦٤٣هـ).
- * موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيتمي، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة - المطبعة السلفية ومكبتها بمصر.
- * الموطأ للإمام مالك - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع مصر ١٣٧٠هـ.
- * ميزان الاعتدال للذهبي. ط. الخانجي الكتبي ١٣١٥هـ.

* النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد)، وبهامشها الدر الثير - تلخيص نهاية ابن الأثير، للسيوطي - طبع سنة ١٣١١هـ.

* هدي الساري، مقدمة فتح الباري، لابن حجر العسقلاني - المطبعة السلفية ومكبتها بمصر.

* الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية - الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤هـ - المطبعة السلفية ومكبتها.

*

**

الفهرس

الموضوع	الصفحة
● التعريف بعلوم الحديث	٧ - ٧٥
معنى الحديث والسنة	٩ - ١٠
تقسيم علم الحديث	١١
● أولاً - علم الحديث رواية	١١ - ٣٠
تدوين النصوص الحديثية	١٣ - ١٦
تعريف بمسند الطيالسي	١٦
تعريف بمسند أحمد بن حنبل	١٧ - ١٨
التعريف بصحيح البخاري	١٩ - ٢١
التعريف بصحيح مسلم	٢١ - ٢٢
كتب أخرى في الصحاح	٢٢ - ٢٥
احتياط المسلمين في نقل السنة	٢٦ - ٣٠
● ثانياً - علم الحديث دراية	٣١
تدوين علوم الحديث	٣٢ - ٣٥
مصطلح الحديث	٣٦
المتواتر	٣٦
خبر الأحاد	٣٨
الغريب والفرد	٣٨ - ٤٠
الشاذ والمنكر	٤٠ - ٤٢
العزیز	٤٠
المستفيض أو المشهور	٤٠ - ٤٣

٤٤ - ٦١	تقسيم الحديث من حيث القبول والرد
٤٤ - ٤٩	المقبول
٤٩ - ٥٠	هل يفيد خبر الأحاد العلم
٥٠ - ٥١	المتابع والشاهد
٥١ - ٥٩	الحديث المرذود
٦٠	الموضوع
٦١ - ٦٥	مصطلحات التحمل والأداء
٦٦	غريب الحديث
٦٧ - ٦٩	مختلف الحديث والناسخ والمنسوخ منه ومشكل الحديث
٧٠ - ٧٢	الجرح والتعديل
٧٣ - ٧٥	آداب المحدث وشيوخه
٧٧	● القسم الثاني . . . أمثال الحديث
٧٨	تمهيد
٧٩	معنى المثل
٨١	أنواع المثل
٨٢	ضرب المثل
٨٣	أهمية المثل في الكلام
٨٤	التأليف في الأمثال
٨٨ - ٩٠	منهجنا في عرض أحاديث الأمثال
٩١ - ١٥٨	● (في الدعوة إلى الله)
٩٣	دين التوحيد والوحدة
١٠٥	وقل إني أنا النذير المبين
١١٦	الفراش والنار
١٢٤	الإنسان والأرض
١٣١	﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾

- ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ . ١٣٨
 المائة معدة والدعوة عامة ١٥٠
- (الأمة الإسلامية) ١٥٩ - ٢٣١
- ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ ١٦١
 ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ ١٨٦
 حتى لا تغرق السفينة ١٨٣
 الصفو للرعية ١٩٦
 اختر جليسك ٢١٢
 الوحدة العضوية في المجتمع المسلم ٢٢٣
 ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ٢٢٣ - ٢٦٣
 من صفات المؤمن ٢٣٥
 سنبله في مهب الريح ٢٤٥
 الإيمان قيد المؤمن ٢٥٥
 المنافق ٢٥٩
- (قرآن وعبادة وذكر) ٢٦٥ - ٣٨١
- تلاوة القرآن وتعهدده ٢٦٧
 الظلة والشفيع ٢٧٥
 إن الحسنات يذهبن السيئات ٢٨٦
 ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ ٢٩٠
 ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ٢٩٥
 المبادرة إلى الصدقات ٣٠٣
 الصوم جنة ٣١٠
 الصوم وجاء ٣١٨
 المتطوع بالصيام ٣٢٧
 الربح المضمون ٣٣٥

٣٤٧	لو خضت بنا البحر
٣٥٨	كلمات من نور
٣٦٩	﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾
٣٧٦	﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾
٣٨٣	● (نماذج من أحاديث المثل الموجز السائر)
٣٩٣	● خاتمة في تخريج أحاديث الأمثال التي ذكرها الميداني
٤١٣	● أهم المراجع للبحث عدا القرآن الكريم
٤١٩	● فهرس الأحاديث
٤١٩	● فهرس الموضوعات

*
**